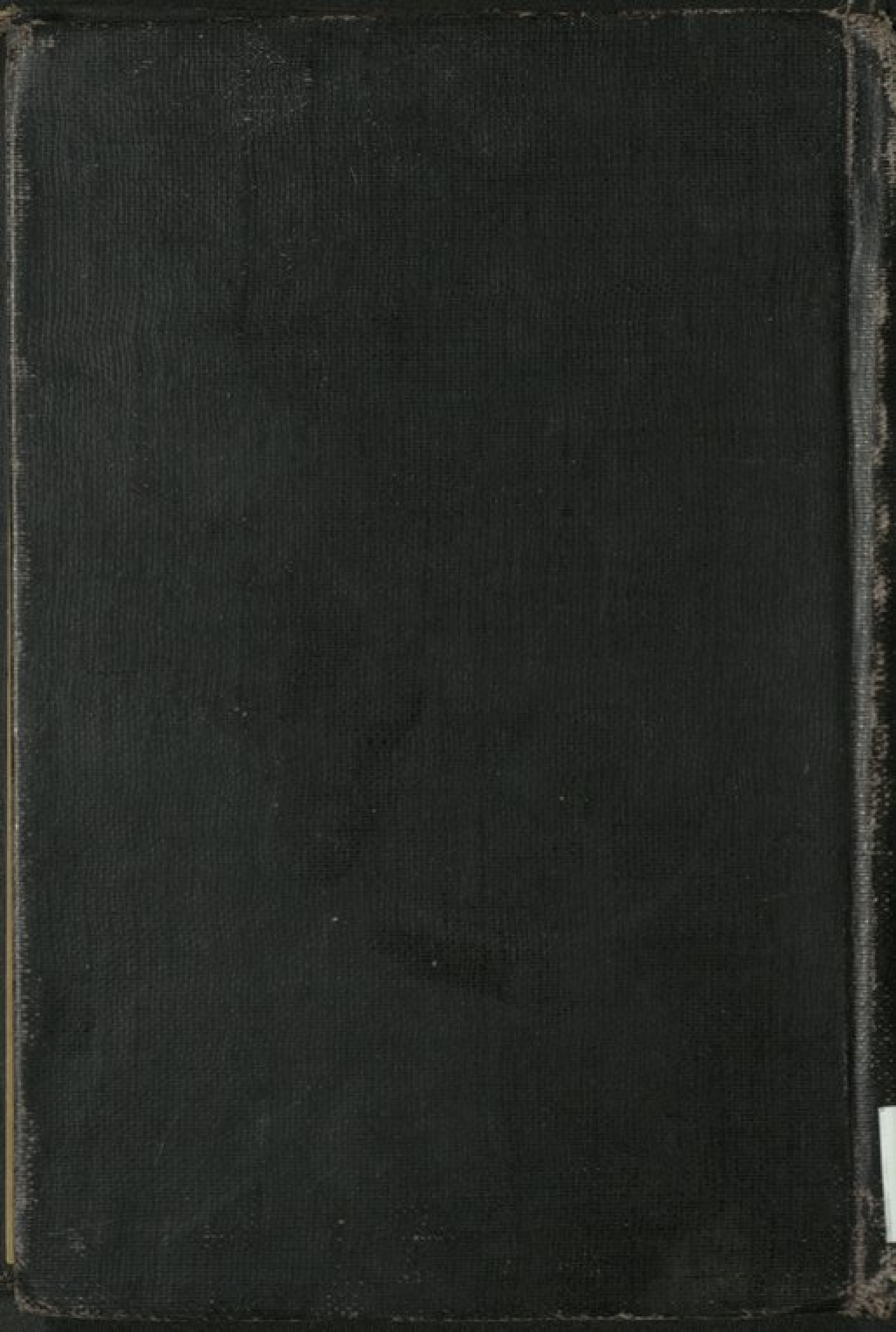
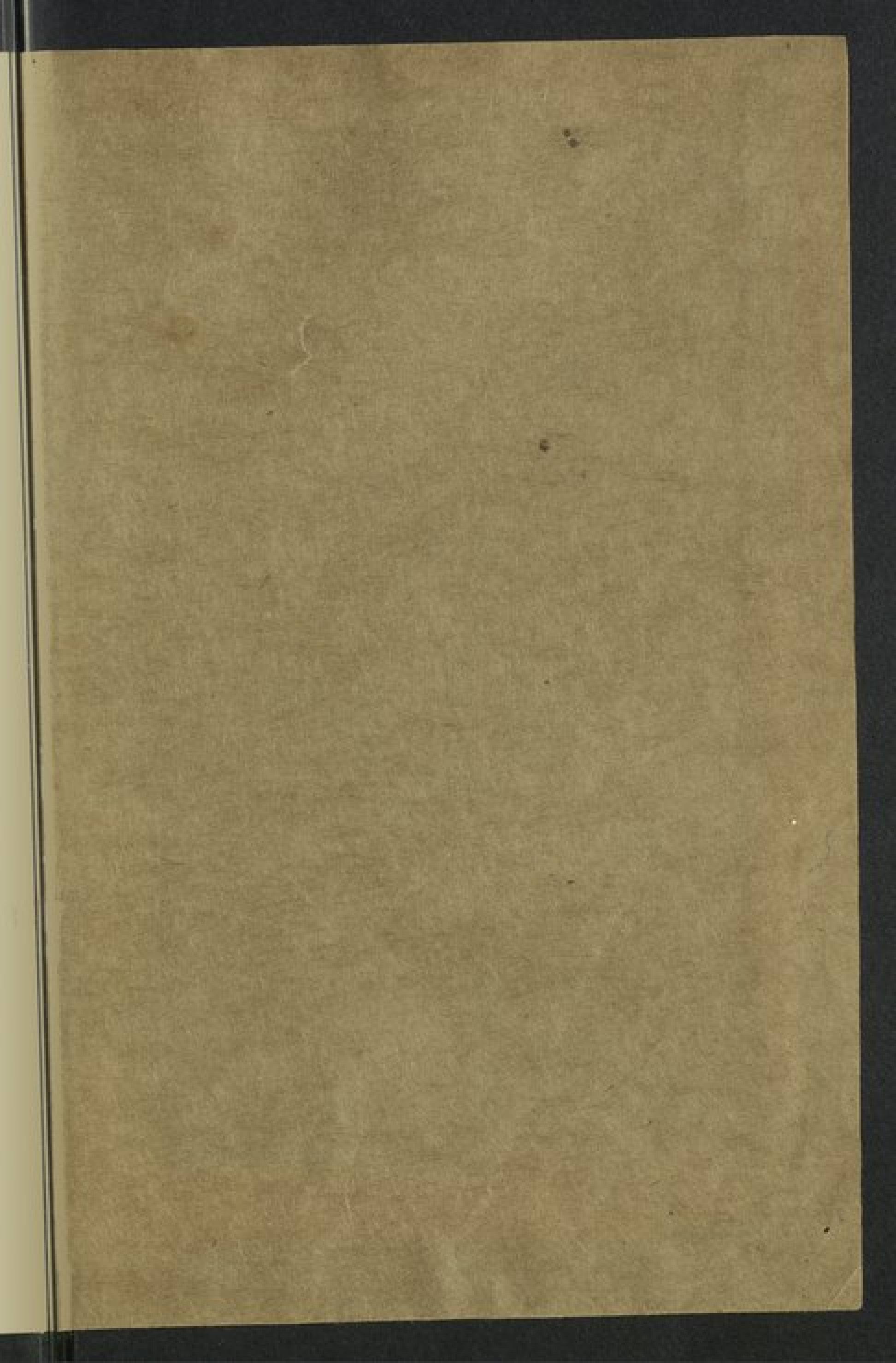
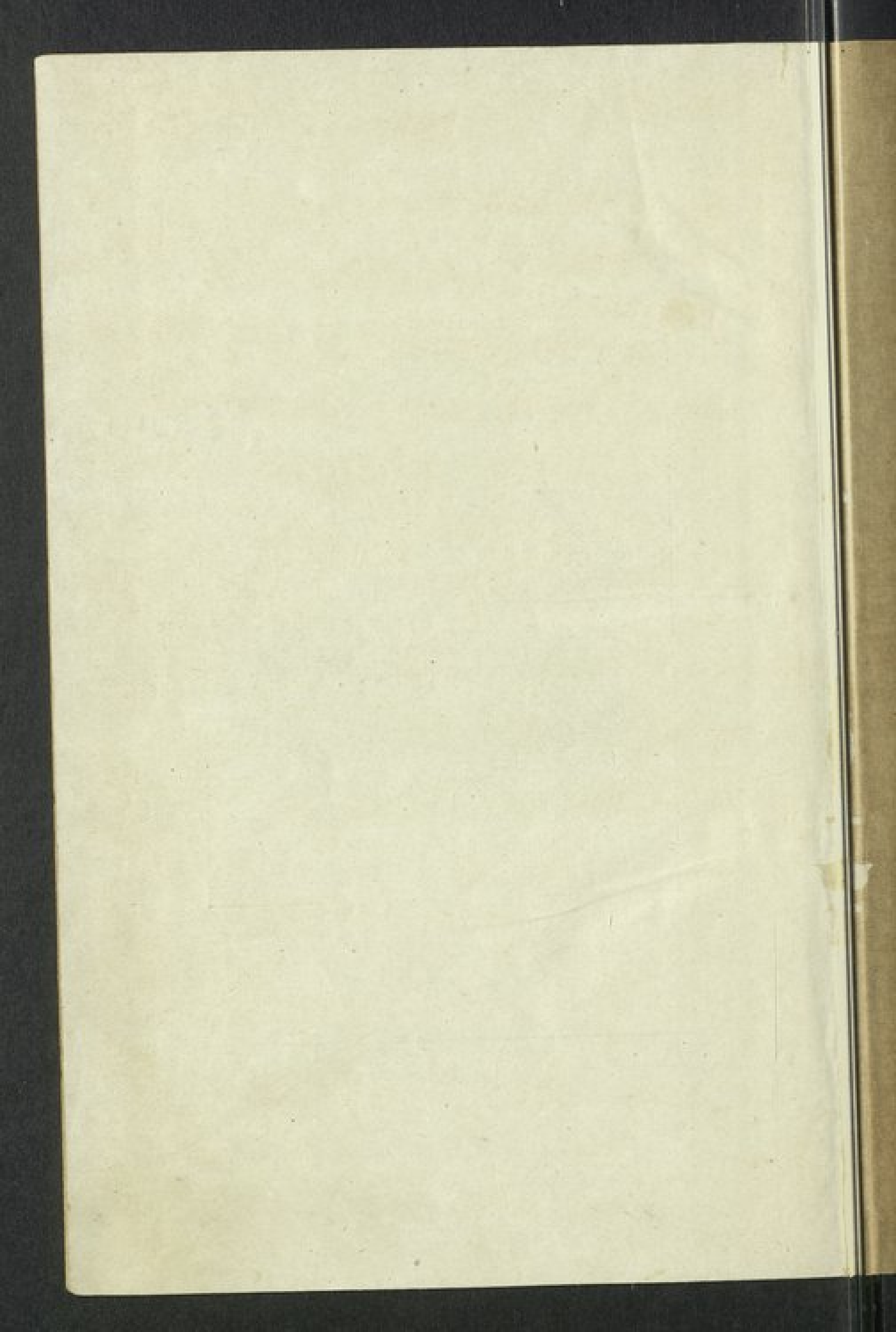








سلامة موسى

اليوم والغد

تأليف الكاتب العصري الكبير

الاستاذ سلامه موسى

مؤلف كتاب « نظرية التطور واصل الانسان »
وكتاب « مختارات سلامه موسى » الخ

١٩٢٨

عني بنشره

الياس انطون الياس

صاحب

المطبعة العصرية

(بالفجالة ، بشارع الخليج الناصري ، بمصر)

المخاطبات البريدية تعنون هكذا : —

الياس انطون الياس

صندوق البريد ٩٥٤ مصر

Published by
E. A. Elias
P. O. Box 954
Cairo, (Egypt)

مقدمة

كلما ازددتُ خبرة وتجربة وثقافة توضحت امامي اغراضي من الادب كما ازاوله . فهي تتلخص في انه يجب علينا أن نخرج من اسيا وان نلتحق باوربا . فاني كلما زادت معرفتي بالشرق زادت كراهيتي له وشعوري بانه غريب عني ، وكلما زادت معرفتي باوربا زاد حبي لها وتعلقي بها وزاد شعوري بانها مني واني منها

فانا ازاول حرفة الادب لكي ادأب في وعظ امتي بوجوب كفها عن ممارسة العادات التي اكتسبتها من آسيا ووجوب اصطناعها عادات اوربا . اريد حرية المرأة كما يفهمها الاوربي حتى نأمل يوماً ما في رؤية قاضيات وطبيبات وطيارات ومعلمات ومديرات ووزيرات وعاملات في مصر كما يرين الآن في اوربا . ولا اريد ان أرى المرأة الشرقية في مصر تلك التي تعرف كيف تأكل الصراصير لكي تسمن ، او تلك التي تعيش خاضعة لزوجها لا رأي لها معه ولا تستطيع ان تعيش بحرفة شريفة لو مات . او تلك التي تخفي نفسها بنقاب يوحي اليها أن الرجال لم يخلقوا إلا لتأكلها أعينهم الخائنة وتفتض عفافها . واريد من التعليم أن يكون تعليماً اوربياً لا سلطان للدين عليه ولا دخول له فيه، وأن يتولى تعليم اللغة رجال متمدينون

يفهمون على الأقل نظرية التطور ولا ينسبون الشعر العربي لآدم وابليس، ولا يعتقدون ان اللغة العربية أوسع اللغات الآن وهي تكدنا في التعبير البسيط . واريد من الحكومة ان تكون ديمقراطية برلمانية كما هي في اوربا، وأن يعاقب كل من يحاول أن يجعلها مثل حكومة هرون الرشيد أو المأمون ، اتوقراطية دينية. واريد أن أرى العائلة المصرية مثل العائلة الاوربية زوج وزوجة وأولادهما بلا ضرار وبلا ضمد كما يجري الآن في آسيا، بحيث يعاقب بالسجن كل من يتزوج اكثر من امرأة ويمنع الطلاق إلا بحكم محكمة. واريد من الأدب أن يكون أدباً اوربياً ٩٩ في المائة منه قائم على المعنى والقصد لا على اللفظ كما كان الحال عند العرب . واريد أدباً مصرياً ابطاله فتيان مصر وفتياتها لا رجال الدولة العباسية ولا رجال الفتوحات العربية. واريد أن يكون هم الاديب اكبر من أن يقول « تحسب » بدلاً من « فقط » أو يحفظ عبارات يستخرجها من الجاحظ او الجرجاني ويدسها بين انشائه . ثم اريد أن تكون ثقافتنا اوربية لكي نغرس في انفسنا حب الحرية والتفكير الجرىء ، أما الثقافة الشرقية فيجب ان نعرفها لكي نتجنبها لما نرى من آثارها في الشرق ، اثار العبودية والذل والتوكل على الآلهة والخضوع لأولي الأمر ظالمين أو عادلين

ولست أجهل أن آسيا قد حكمت مصر نحو الف عام و بسطت عليها حضارتها وثقافتها بل دست دمها في دماء ابنائها . ولكننا نحمد الأقدار على اننا مازلنا في السحنة والنزعة اوربيين، اذ نحن أقرب في

هيئة الوجه ونزعة الفكر الى الانجليزي أو الايطالي منا الى أهل الصين أو جاوه. وكذلك الحال في سوريا وشمال افريقا العربي فان سكان هذه الأقطار اوربيون سحنةً ونزعةً. فلماذا اذن لا نصطنع جميعنا الثقافة والحضارة الاوربيتين ونخلع عنا ما تقمصناه من ثياب آسيا ؟

أجل، يجب أن نكون اوربيين بل اوربيين صالحين نعمل لسلام العالم. نشترك في عصبة الأمم ونعمل لتقدم العلوم. نخترع ونكتشف ونقدم مواهبنا لخدمة الانسان ورقيه ونعيش عيشة حرة بعيدة عن التعصب أو الجمود بحيث ينتفع منا العالم كما ننتفع به

هذا هو مذهبي الذي أعمل له طول حياتي سراً وجهرة، فأنا كافر بالشرق مؤمن بالغرب. وفي كل ما اكتب احاول أن أغرس في ذهن القارىء تلك النزعات التي اتسمت بها اوربا في العصر الحديث وأن أجعل قرائي يولون وجوههم نحو الغرب ويتنصلون من الشرق لأني أعتقد ان لا رجاء لنا بالنجاح في العالم، بل لا رجاء لنا بأن نعيش عيشة، اذا لم تكن سعيدة فلا أقل من أن تكون غير شقية، إلا اذا تملصنا مما اكتسبناه من العادات الشرقية في نظام العائلة، ونظام الحكومة، والنظر للمرأة، والنظر للأدب، حتى في النظر للصناعات والمعايش

وهذه المقالات التالية هي وفق هذه النزعة. كتبت اثنتان منها بين سنة ١٩١٠ وسنة ١٩١٤. أما سائر المقالات فقد كتبت في سنتي ١٩٢٥ و١٩٢٦. ولم انقح شيئاً فيها إلا المقالة الاولى

« مقدمة السبرمان » فاني كنت قد كتبتها سنة ١٩١٠ وسني إذ ذاك لا يتجاوز العشرين ، فلما أردت اثباتها هنا رأيت في تعابيرها ما لا أعذر عليه الآن ، واحتجت لذلك الى اعادة كتابتها كلها ولم ابدل شيئاً في الآراء وانما بدلت في الاسلوب والتعبير ».

سلامه موسى

مصر في ٥ مارس سنة ١٩٢٧





مقدمة السبرمان

كتبت وطبعت على حدة أولا سنة ١٩١٠

وهنا معادة بعد مراجعة وتنقيح

١ – روح جديدة في الآداب الاوربية

ليس من السهل أن نصف القرن التاسع عشر وربع القرن العشرين من حيث نزعاتهما الفكرية بكلمة أو بتعريف مختصر يميزهما عما قبلهما من القرون الوسطى مثلاً. وربما كان وصفهما بحرية التفكير أقرب الاوصاف الى الصواب. فحرية التفكير هي الاصل في النزعات العديدة التي نزع اليها المفكرون في عصرنا الحديث. ولكن ما هي هذه النزعات ؟

وربما كان أعم هذه النزعات هي النزعة العلمانية باطلاق المدارس والحكومات من القيود الدينية. فالناس في القرن الماضي أخذوا يميزون بين ما يقوله الدين وبين ما يقوله العلم. واستقر رأيهم على أن مايقوله العلم أثبت مما يقوله الدين وانتهوا على ذلك. فأقرت الدول التعليم العلماني في المدارس وصار التلاميذ يتعلمون الجيولوجية بدلا من «سفر التكوين». وانفصلت بعض الحكومات عن الدين وصارت هي أيضاً علمانية. ونتج من ذلك شيئان هما :

١ – ان العقول كما تجرأت على الدين ورفضت الايمان الاعمى به تجرأت أيضاً على سائر الامور الاجتماعية فصارت تفكر فيها تفكيراً موضوعياً حراً ليس للتقاليد سلطان عليه. فصار الناس يفكرون مثلا

في الطلاق والزواج ، والعائلة ، والامتلاك ، وأصل العالم ، بدون أن يحسبوا حساباً لسلطة إلهية تدبر هذه الاشياء

٢ – ان روح التجربة فشت على أثر التفكير الحر . فالناس لا يجربون التجارب في الكيمياء والطب فقط ، بل في الأشياء الاجتماعية ايضاً ، واكبر تجربة اجتماعية رآها العالم هي الشيوعية الروسية الحديثة . وظهور الشيوعية هو بمثابة حاجز بين الماضي والمستقبل ، فهي تفصل الاثنين فصلا واضحاً . وهي على مافيها من نقائص اليوم وعلى ماينال الناس البعيدين عنها من الرعب منها ستكون بذرة لجملة أنظمة اجتماعية في المستقبل

فالعلمانية نزعة أوربية تشمل جميع الامم المتمدينة تقريباً . وهي تشمل الصحف والكتب كما تشمل المدارس والجامعات . وهذه النزعة هي علة نزعات أخرى :

منها نزعة الاشتراكية التي انتهت في أقصى شرق أوربا بالشيوعية . وليس في العالم قطر متمدين الا و به حركة اشتراكية قوية مصبوغة بصبغة الوسط الذي نشأت فيه . وكل الدلائل تدل على أن العالم يتجه نحو نظام اشتراكي ان لم يكن في جميع صناعاته ففي نحو النصف أو الثلثين

ونزعة أخرى أيضاً ترجع الى انتشار العلمانيـة وحرية الفكر هي مذهب داروين الذي يقول بأن أصل الانسان حيوان . فان هذا المذهب فتح للانسان أبواباً للدرس والامل . فان عالم الحيوان

كان الى ظهور هذه النظرية في حكم المجهول فما هو ان ظهرت حتى آخذ العلماء في الاكباب على درسه وبيان الظروف التي تؤثر فيه ان خيراً وان شراً

ونتج عن هذا المذهب نظرية التطور التي عمت جميع العلوم والفنون الانسانية وصبغت التفكير السياسي والاجتماعي ، كما نتج عنه أيضاً ظهور علم جديد هو علم اليوجنية . لانه لما كان مذهب داروين يقول بأن أصل الانسان حيوان ثم ارتقى الى الانسانية ، لم يكن بد من أن يظهر علم جديد يقول بأن الانسان يمكنه في المستقبل أن يكون اكثر من انسان . وهذا العلم هو اليوجنية وان كانت آماله الآن متواضعة

لكن للروح العلمانية أثراً آخر في الاخلاق هو النظر اليها وتقويمها بقيمتها الاجتماعية . فنحن الآن لا نسلّم بأن البر فضيلة حتى نقدر ربح الامة وخسارتها من بقاء ضعفائها الذين تتصدق عليهم .

والخلاصة ان القرن الماضي حافل بجملة نزعات هي الحرية الفكرية والحركة العلمانية ،والروح الاشتراكية،والاستضاءة بالتطور ، وبحث الاخلاق بحثاً موضوعياً ، ومحاوله تحقيق علم اليوجنية ، ووضع التجارب فوق العقائد

٢ — الانسان حيوان

تمتاز نظرية التطور من الكتب المقدسة من حيث نظرها

للانسان نظراً عالياً شريفاً . فالكتب المقدسة جميعها تقول ان الانسان كان إنساناً وسيبقى انساناً كما هو الآن الى يوم البعث . فهو بذلك لن يرتقي على هذه الارض وانما رقيه المنشود سيكون في العالم الآخر بعد موته وبعثه . ولكن نظرية التطور تقول ان الانسان كان حيواناً دنيئاً دميم الوجه أشعر الجسم سافل الغرائز أبله العقل ثم ارتقى حتى صار انساناً . ولذلك فهناك أمل بأن يرتقي حتى يكون «سبرماناً» جميل الوجه والقامة كبير العقل حلو الغرائز على هذه الارض . فنظرية التطور نظرية علمية ولكنها ذات نتائج اجتماعية

وما عبرة التطور لنا الآن ؟

لنا منه عبرتان : الاولى ان نسل كل حيوان يفيض على ما يحتاج اليه بقاء نوع هذا الحيوان . والثانية ان هذا النسل لا يقوى على البقاء منه سوى الاقوى الانسب للوسط الذي يعيش فيه . فنفهم من ذلك ان الرقي الذي نجده في كفايات الحيوان انما يقوم بموت الضعيف أولا بأول . فلا يبقى غير الاقوى الذي ينسل نسلا على غراره حاصلا على كفاياته

والانسان حيوان ولكنه يختلف عنه من حيث أن نسله العاجز يعيش . فالغزال الاعرج يموت والاسد البطيء يهلك جوعاً في الغابة ولكن الانسان الاعرج يعيش بالصدقة . والانسان البطيء يعيش أيضاً بأي عمل هين . ثم الحيوان يعيش بكده لا يستعين على ذكاء غيره أو قوته . ولكن الانسان يستعين بالمخترعات والمكتشفات التي

تسهل العيش لجميع الناس مع أنهـا من عمل أحد الافراد فقط . ثم لا ينسل في الحيوان الا القوي القادر على امتلاك الأنثى . أما الانسان فلكل فرد من نوعه الحق في الزواج .

وليس في مقـدورنا أن نعود بالانسان الى توحش الطبيعة في الغابة . وانما نعرف انه يمكن أن نقصر الزواج على الفئات السليمة في الامة . ونعرف أيضاً ان أهم مخترعات القرن التاسع عشر وأخطرها لمستقبل الانسان – هو كما قال شو – التعقيم الاختياري . فمنع بعض الناس من التناسل لا يضطرنا الى منعهم من الزواج ولا الى الرجوع بهم الى شريعة الغابة اذ يكفينا منهم أن يزاولوا التعقيم الاختياري

٣ – هل رقي الانسان خرافة ؟

اذا قال لنا أحد هواة الخيل ان خيوله أعتق من خيول أحد الهواة الآخرين لم يعن بذلك ان الاصطبل الذي تعيش فيه خيوله نقي نظيف فخم أو أن لها من الخدم ما ليس لغيرها أو انها تأكل أجود الشعير وانما يعني انها أسبق من غيرها في المضامير وان هيئتها شريفة وحركتها رشيقة . وكذلك لو قال لنا راعي الغنم ان قطيعه خير من قطيع آخر لم يعن بذلك ان المرج الذي يجول فيـه ممرع اكثر من غيره ولا أنه يستقي من عين طاهرة نقية بينما القطعان الاخرى تستقي من ماء كدر . وانما يعني ان خرافه أسمن وأثقل وزناً أو ان صوفها أغزر أو أنها ولود ونحو ذلك

ومعنى هذا بعبارة أخرى أن رقي الوسط الذي يعيش فيه الحيوان بما فيه من مسكن ومأكل ومشرب لا يعني رقي الحيوان نفسه . ومثل هذا يقال عن الانسان أيضاً . فرقيه يختلف عن رقى حضارته . فأدوات الحضارة التي نستعملها الآن من تلفون ، وتلغراف، وسكك حديدية ، وصناعات ميكانيكية متعددة ، ومدارس، وجامعات، ودساتير ، لا تميزنا من حيث الرقي عن أسلافنا قبل عشرة آلاف أو عشرين الف عام . وانما الرقي الحقيقي ينبغي أن يكون في أجسامنا وعقولنا . بمعنى أنه يجب أن نكون أقوى على مكافحة المرض وأصمد للكد والعمل من أجسام أسلافنا . وتكون غرائزنا وعواطفنا أصلح للحياة الطيبة مما هما عندهم . واذا نحن حققنا المقابلة بيننا وبين أسلافنا قبل عشرين أو ثلاثين الف عام لم نجد أننا أرقى منهم بل هناك ما يحمل على الظن بأنهم كانوا أرقى منا . وذلك لأن الحضارة التي عشنا فيها منذ نحو ١٠٠٠٠ سنة قد بسطت حمايتها على الضعيف ومهدت له سبل التناسل . لأنه منذ ان ظهرت الزراعة صار يمكن عدداً كبيراً جداً من الناس أن يعيشوا ويتناسلوا لوفرة ما تنتجه الزراعة . في حين ان الغابة كانت من الشح بحيث لا تسمح بالعيش الا للاقوياء الاذكياء . وحضارتنا الحديثة اكثر حماية للضعيف من الحضارة القديمة لان بها مستشفيات تعالج المرضى وبها فن الطب الذي يتقدم كل يوم في قهر المرض وبها ضروب البر المختلفة التي ليس لها غاية

سوى حماية الضعيف. ونحن اذا قابلنا ضخامة رؤوسنا بضخامة رؤوس أسلافنا قبل آلاف السنين لم نجد فرقاً يدل على أننا زدنا ذكاء

٤ — نيتشه والمسيحية

المسيح ونيتشه كلاهما قطب يقابل الواحد الآخر على الكرة. فالمسيح يقول برحمة الضعيف، ونيتشه يقول بابادته. والمنطق لاول نظرة يتساوق مع نيتشه الذي يقول بأفصح عبارة وأخصرها ان نوع الحيوان أو الانسان يرتقي بابادة الضعاف والعجزه منه. فاذا كان كل مريض الجسم أو مأفون العقل أو مختل الغرائز أو ناقص العواطف يموت أولا بأول فان نوع الانسان يرتقي لانه يتخلص بذلك مما فيه من ضعف وخلل وعجز. وتطرد بذلك قوته جيلا بعد جيل. ولذلك يجب ألا نشفق على ضعيف وأن نكف عن ممارسة البر. ويجب أن نذكر أن الانانية هى غريزة الانسان الاولى فلا يجب أن نغالطه فيها بل نتركه يمارسها كما تملي عليه طبيعته لان هذه الانانية هي التي رفعته من الحيوان الى الانسان وهي التي سترفعه من الانسان الى السبرمان. فدعونا اذن من الرحمة والشفقة وتقديم الخد الايسر لمن يضربنا على الخد الايمن، لان من يقول هذه الاقوال ضعيف تدعوه أنانيته الى أن يسوم جميع الناس أخلاقه حتى ينتفع بهم. والمسيحيون انما بسطوا على الناس الآداب التي تحمي الضعفاء

لأنهم هم أنفسهم كانوا ضعفاء أمام الرومانيين الاقوياء عند أول ظهور المسيحية في فلسطين

وليس أحد يشك في أن الانانية هي احد اصول الاخلاق ، حتى ان لفظة « الرحمة » قد اشتقت من « الرحم » اي القرابة . فالانسان عرف الرحمة من المعاملة التي كان يعامل بها ذوي رحمه اي اسرته . فالرحمة التي هي صفة الايثار الآن كانت في الاصل صفة الأثرة العائلية. ولكن ألا يدلنا تطورهذه اللفظة نفسها على أننا قد خرجنا من شريعة الغابة الى شريعة أخرى أعلا وأنظم منها ؟

فيبدو للمتأمل أن أنانية الفرد ليست الاصل الوحيد لجميع الاخلاق . فان أنانية الجماعة أصل ثان . والا فما معنى التضحية الذاتية بالاستشهاد في سبيل الوطن أو الرأي أو العرض أو نحو ذلك ؟ فان الانسان الذي يقدم نفسه للقتل من أجل وطنه أو من أجل رأيه لا يمكن أن يقال أنه هو نفسه ينتفع بذلك . بل المنتفع هو الامة التي ينتسب اليها في حين أنه هو ينقرض . فلو كان « تنازع البقاء » و«بقاء الانسب» هو كل شيء في نظرية التطور لكان «الاستشهاد» في سبيل الرأي أو الوطن ضرب من الجنون ليس بعده جنون في العالم، لان المستشهد يبيد نفسه ويحذف نفسه من الامة . وقد استشهد المسيح في سبيل رأيه ومع ذلك كان هو أصلح الناس للبقاء

والحقيقة أن نيتشه يريد أن يعود بنا الى شريعة الغابة، يأ كل قوينا ضعيفنا ويقتل صقرنا عصفورنا . ولكننا قد عدونا هذا الطور

وخرجنا من أنانية الفرد الى أنانية الجماعة . ومن الاعتماد على الغريزة الى الاعتماد على العقل ومن فوضى تنازع البقاء الى نظام الانتخاب . فليس في مقـدور أحد منـا أن يترك مسكيناً يتضور من الجوع حتى يموت. ومن البلاهة أن نظن أننا نستطيع ان نستغني عن المستشفيات والا نعمـل لمكافحة الامراض بالطب . وغريزة الاستشهاد نفسها برهان على اننا نضع احياناً مصلحة الجماعة فوق مصلحة الفرد. ولذلك يمكن ان نستبدل بشريعة الغابة انظمة خاصة بعيدة عن قسوة الطبيعة فننال غرضنا من الرقي بدون ان نقهر في نفوسنا عواطف الرحمة والتعاون والبر

٥ — داروين وشو

لما قال جاليل الايطالي ان الارض كوكب مثل سائر الكواكب اخذ الناس يتساءلون كما لا نزال نحن نتساءل : وماذا يمنع ان يكون في الكواكب ناس مثلنا ؟

وكذلك عندما نشر داروين سنة ١٨٥٩ نظريته عن اصل الانواع وقال ان جميع انواع الحيوان قد انحدرت من اصل واحد وانها ارتقت لتنازعها البقاء وانقراض السيء منها وبقاء الحسن ، تساءل الناس كما نتساءل الآن : اذا كان الانسان قد انحدر من الحيوان فلم لا ينحدر منه سبرمان تكون نسبته الينا كنسبتنا نحن الى الحيوان ؟

وقد تساءل نيتشه هذا السؤال واجاب عنه بالرجوع الى شريعة

الغابة . وتساءل شو هذا السؤال ايضاً واجاب عنه بكتاب من امتع كتب القرن العشرين وهو : « الانسان والسبرمان » وهو لا يرتأي فيه رأياً يقصد العمل به وانما يقترح فيه اقتراحات على سبيل طرح الفكرة للدرس والمناقشة لاننا لم نبلغ بعد طور ارتياء الآراء للعمل بها في موضوع شائك كهذا الموضوع : فهو يقول مثلاً ان نظام العائلة الذي يرخص لكل انسان بالزواج و بترك نسل له يرث صفاته ، يلحق ضرراً كبيراً بالامة لانه يحول دون تطورها وانتقالها من درجة الى أخرى في معارج الرقي . لان معنى الرقي هو كما قلنا يجب ألا يكون في الوسط الذي تعيش فيه من حيث استكمال وسائل الحضارة بل ينبغي أن يكون في رؤوسنا وأجسامنا . ولن يتحقق هذا الرقي ما دام كل انسان يتزوج و ينسل و يترك صفاته في أبنائه بحكم الوراثة . فقد كانت الطبيعة تعمل لرقينا ، ونحن بعد في طور الحيوان ، بالانتخاب الطبيعي ، تبقي على القادر وتبيد العاجز . فلم لا نعمل نحن انتخاباً صناعياً نلغي العائلة كما هي الآن ولا نرخص بالتناسل الا لمن نبغي تخليد صفاته

ولكن نقص معارفنا في ما يجب تخليده وايراثه من الصفات لابناء المستقبل يجعلنا الآن نقصر مجهودنا على درس هذه الصفات دون التهور في البحث عن الغاء العائلة . فالعائلة كما هي الآن هي وليدة الحضارة الراهنة وكل إخلال بها يخل بهذه الحضارة وهذا ظاهر من

أن تلك الامم التي أخلت بنظام العائلة الاوربي لم تستطع اصطناع الحضارة الاوربية .

٦ — كيف يكون السپرمان

اذا نحن استضأنا بضوء التطور في الماضي لم نتمالك الاعتقاد بأن التطور في المستقبل يجب أن يتمشى على النحو الذي مشي عليه في الماضي . فقد سار في الماضي نحو ضخامة الرأس وكثرة تلافيف الدماغ فيجب أن يتمشى أيضاً في المستقبل على هذا النمط . ولا عبرة بما يقال بأن هناك ناساً ضخام الرؤوس ضعاف الذكاء . فان أفراداً معدودين من نوع الانسان لا تنهض شهادتهم حجة على الطبيعة وما فيها من ملايين الحيوان وكلها حاصلة على مقدار من الذكاء متناسب مع مقدار ضخامة رؤوسها . وكذلك ينبغي ألا نغفل أمراً واضحاً وهو أن تسعة أعشار البله صغار الرؤوس . ثم ان دقة الحواس ميزة أخرى لا يجوز أن تغفل . واذا نحن لم نبال بمحاسة الشم فان حاسة النظر ستكون من اكبر عوامل الرقي في الانسان في المستقبل كما كانت في الماضي . وأغلب الظن ان الانسان كان يعيش في الماضي نحو ٤٠ أو ٤٥ سنة بدليل ان نساءه الآن لا يحملن بعد هذا السن . وبدليل أن نظره يبدأ في الضعف أيضاً فيه . وسيعيش الانسان في المستقبل القريب اكثر منماية سنة، فاذا لم تبق حاسة النظر سليمة الى يوم وفاته فانه يشق عندئذ بعينيه أو بدونهما

فضخامة الرأس وصحة الجسم وقدرته على الدأب في العمل ومكافحته للامراض كل هذه صفات يجب أن يحصل عليها سبرمان المستقبل . وهناك صفات أخرى نبصر بها عن بعد وهي أضعاف العواطف التي نشقى بها الآن ، كالغضب والحقد والحسد ، بل الحب الجنسي أيضاً . فان الشهوة الجنسية تعدو حدود الحاجة للنسل وتتجاوز كل تقدير معقول وكثيراً ما كانت سبباً للشقاء . فسبرمان المستقبل سيكون ضعيف العواطف ، لا يغضب ولا يحقد ، بل لا يحب الا عن عقل ، ويكون النسل هو الغاية من الحب . أما طرب العاطفة الذي يتملكه الآن ويحس به نوعاً من السعادة فانه سيقوم مقامه طرب الذهن بحيث يجد من اكتشاف حقيقة علمية أو دينية أو فلسفية مايجد الآن من الشهوة الجنسية

لقد كان الانسان لعبة في يد الطبيعة والاقدار ولكن ها هو ذا قد استوى وأخذ في يده مفاتيح هذه الطبيعة وليس الآن ما يمنعه من أن يتسلط بها على هذه الاقدار نفسها

٧ — اليوجنية

اليوجنية هي مبادىء الهجاء نحو السبرمان . فالسبرمان خيال نتحسس طريقنا نحوه باليوجنية التي هي علم اصلاح الذريات القادمة. وليس في العالم أحد يجرؤ على تقرير ماهية السبرمان وانما هو يقترح ويفكر ويناقش دون ان يجزم . وعلة ذلك أننا اذا أردنا استيلاد جيل جديد

من الحمام أو الدجاج أو الخراف عرفنا ما نقصد اليه وسرنا نحوه بقدم ثابتة ونية صادقة فلا يمضي القليل من الزمن حتى نحقق ما أردناه . فقد نطلب جواداً سريع العدو فلا نزال ننتقي من بين الجياد أسرعها عدواً ونستولده حتى نحصل على مطلوبنا . وقد نطلب حمامة ببعض الريش الزاهي في العنق أو الظهر فلا ننفك عن ملاقحة أقرب الجنسين الى هذه الاوصاف حتى يتحقق الجيل الذي رغبنا في وجوده ، وهلم جرا

ولكن الانسان ليس كذلك فاننا وان كنا نبالي ويجب أن نبالي بجماله فان هناك صفات ذهنية وعاطفية أخرى لا نحسن تقديرها وقد نتخبط فيها اذا شرعنا في الجزم لان معارفنا عن هذه الأشياء ناقصة . ولكن مع كل جهلنا نجد أن هناك صفات واضحه لا يتناقش فيها اثنان كالبله مثلاً فانك تجد في القاهرة على أبواب الكنائس وفي الطرق أناساً قد انمسخت فيهم الهيئة الانسانية وتضاءل الرأس وسال اللعاب ومع ذلك يؤذن لهؤلاء الناس بالزواج فينتشر نسلهم حتى يدخل دمهم في جميع افراد الامة بعد ٤٠٠ أو ٥٠٠ سنة . فاليوجنية السلبية تقول بمنع أمثال هؤلاء من الزواج وبمنع سائر المرضى الذين يثبت أن أمراضهم وراثية تجري في الاسرة . واذا لم يمكن منع الزواج فيمكن التعقيم بأن يتعهد الزوجان بعدم التناسل . وهناك اليوجنية الايجابية التي تقول بوجوب تشجيع الزواج بين صحيحي البدن سليمي الذهن . وهناك أيضاً البر بالاقوياء . فقد نشأنا على أن نتصدق على الضعفاء والعجزة ولكن لماذا لا نبر الاقوياء كما نبر الضعفاء . فقد يكون

البر بالضعيف داعية الى زواجه والى نشر ضعفه في الأمة ولكن البر بالقوي القادر يتيح له الفرصة بالتبكير في الزواج فتنتفع منهُ بكثرة نسله . ولمثل هذا البر ضروب عديدة كالنزول عن بعض الضرائب اذا بلغ عدد الاولاد حداً معيناً تتطلبهُ الدولة من العائلات التي تحكم بأفضليتها ، وكانشاء جائزة يتعلم بها الاوائل في المدارس بالمجان

وقد تنبهت بعض الحكومات لليوجنية . ففي اسوج مثلاً مصلحة يوجنية تبحث عن كل ما يختص بترقية أجسام الأمة وعقولها . وفي الولايات المتحدة مصالح عديدة خاصة بالكشف الطبي عن الزوجين حتى اذا لم يكونا أهلاً للزواج لم ترخص لهما فيهِ

٨ — الحرية الاخلاقية

اذا خرج الدين من دائرة علاقة الانسان بالكون وأخذ يقرر أصول المعاملة بين الناس من تجارة وزواج وامتلاك وحكومة ونحو ذلك فانهُ عندئذ يقرر الموت لكل من يؤمن بهِ . فالدين ضروري لكل أمة ولكل فرد ،ولا يمكن أن يعيش انسان بلا دين ،لانهُ مادام قدشرع يفكر في الكون زمانا ومكاناً فقد شرع يفكر في الدين . ومن ينظر الى السماء في ليلة صافية ويتأمل في أبعاد النجوم والكواكب يعجب كيف يمكن انساناً أن يجزم بهذا المذهب أو بذاك عن أصل هذا الكون ونهايته . ولكن الاديان الراهنة تتدخل في أمور العالم وتعرقل سير الرقي . لان الرقي يقتضي التغيير .

ولا تغيير بدون بدعة جديدة . ولكن الاديان للصفة المقدسة التي تتصف بها تقف جامدة لا تقبل تغييراً فتعمل بذلك لجمود الامة . والاديان تتفاوت في دخولها في شئون الناس ، وربما كانت المسيحية أقلها من هذا الوجه . وقد يعزي بعض الرقي في الاوربيين الى ذلك لأنها لا تدخل الا في الاخلاق وليس لها « شريعة » خاصة بالمعاملات . فالاوربي حر في تطوره من هذه الناحية .

ولكن الاخلاق أيضاً يجب أن تكون حرة لأن حرية الاخلاق تدعو الى انقراض الفاسد منها وبقاء الصالح . وليس من مصلحة الانسان أن يعيش في قفص من الواجبات الاخلاقية يقال له : هذا حسن فاتبعه وهذا سيء فاجتنبه . لأنه عندئذ يكون بمثابة الوحش نضعه في قفص فلا يؤذي أحداً لا لأنه قد استأنس بل لأنه محبوس . وانما الاخلاق السامية أن يكون الرجل صادقاً لانه يحب الصدق ويأتيه عفواً ، لا لأن الصدق فضيلة يجب عليه وجوباً أن يمارسها .

ولن نصل الى ذلك حتى ننطلق من القيود الاخلاقية ويكون كل منا دستور نفسه فيها لأن من طبيعة الاخلاق الفاسدة انها تقتل صاحبها . فلنترك السكير يسكر كما يشاء لأن سكره ينتهي بموته المبكر . ولنترك النهم يشره الى كل طعام فأن معدته تسوقه الى قبره بأسرع مما نتصور . ولنترك الشهواني يمارس شهواته لأنها في النهاية قاضية عليه . فهؤلاء وأمثالهم يجب ألا نقيدهم بقيود أخلاقية نصنع لهم منها ما يشبه القفص فيعيشون فيها وحوشاً بهيئة الفضلاء وهم ليسوا

فضلاء . لأننا نريد من انسان المستقبل أن يكون حسن الشهوات لا يتجنب الرزيلة خوفاً منها بل كراهة لها . وهو لن يبلغ ذلك حتى تقلع من الامة البذور الخسيسة . بل قد يكون من مصلحة الامة أن يكون بها جملة مصايد أخلاقية يقع فيها ضعفاء الارادة ويقل بذلك نسلهم أو يمتنع امتناعاً تاماً في حالة عدم استطاعتهم الزواج . وقد قيل ان الفرنسيين الآن أقل الناس اكباباً على الشراب لأنهم كانوا في الماضي اكثر ادماناً عليه . ثم مات المدمنون وانقرضوا لادمانهم ولم تتح لهم الفرصة بالتناسل وتنشر صفاتهم في الامة . فلم يبق سوى المعتدلين بطبعهم الذين لا يحتاجون الى الوعظ عن سوء فعال الخمر

٩ — الحكومة الجائرة

لقد كان للحكومات الجائرة والاضطهادات الدينية أثر كبير في نقص ذكاء الأمم وشجاعتها . ففي مصر حكم الاتراك البلاد نحو الف عام فكانوا في كل سنة يقمعون أية فتنة تقع في البلاد . ولا يقوم بالفتنة في ذلك الوقت سوى الوطنيين كبار العقول ذوي القلوب الجريئة . فكان حكم الاجانب لمصر بمثابة استئصال مستمر لكفايات الامة . ومثل هذا الأثر نتج من حمل السلطان سليم لألفي صانع مصري ، ربما كانوا صفوة الامة في الذكاء ، الى الاستانة . ولأعمال اسماعيل حين جمع شباب الامة من الفلاحين وسخرهم في حفر قناة السويس مثل هذا الأثر أيضاً . إذ قد حرم الامة من قوتهم ونشاطهم ، لأنه بالطبع

كان يجمع أقوى الفتيان ولا يترك في القرى سوى الضعفاء . فكان الضعيف يقعد بالقرية ويتناسل ، والقوي يموت في طين القناة بلا نسل، فينحط بذلك مستوى الامة في القوة والنشاط . ومثل هذا الأثر تجده ايضاً في الجيوش والحروب . فأنها تخلف الضعفاء للنسل وتقضي على الاقوياء وتشتت كفاياتهم في ميادين القتال وتقلل نسلهم

وللاضطهاد الديني مثل هذه الآثار أيضاً . لأن ذلك الذي يضطهده رجال الدين هو عادة الرجل المفكر الجريء الذي تدفعه كرامته الى الدفاع عن رأيه والثبات فيه . وقد يعزي انحطاط اسبانيا الى العدد الكبير الذي قتلته محكمة التفتيش . ولمقتلة البروتستانت في فرنسا المعروفة في سان برتلوميه أثر كبير في الذكاء الفرنسي ، فأن رجال الدين حرموا الامة من قسط كبير من النشاط والذكاء اللذين كان يتصف بهما الهوغنوت أي الفرنسيون البروتستانت

١٠ — امتزاج الشعوب

الفرس العتيق هو الذي ينحدر من اباء لا هجنة فيها . وكذلك الأمة العتيقة هي تلك التي تخشى الهجنة وتتوق الزواج بالاجانب الذين دونها في الكفاية . فالمصري يكتسب اذا تزوج من الاوربيين ولكنه ينحط كل الانحطاط اذا مزج دمه بدم الزنوج . وقد كان الرق البشري من أهم أسباب انحطاط العرب لأنه هجن دماءهم بما أدخله فيهم من دماء الزنوج ، لأن اكثر العبيد والاماء كانوا بالطبع من الزنوج .

وما زلنا في مصر نجد من الناس من تسقط كرامته فيزوج بناته لمن هم دونهن في الكفايات الذهنية والجسمية من الشعوب الاخرى. وهذا مما يؤسف له جد الاسف. وهو أثر باق من الفوضى الاجتماعية التي عشنا فيها في الالف السنة الماضية حين تزعزعت جميع المعايير الاجتماعية والجأنا جور الحكام الى الا نفكر الا في الطعام. وفي مصر اليوم نحو ربع مليون اوربي لو اندغموا في جسم الأمة لاكتسبنا بهم نشاطاً وذكاء وجمالا. وهم ليسوا أجانب عنا الا في اللغة لاننا آريون مثلهم

١١ — المساواة في الفرصة

مما يساعد على رقي الامة ان نجعل ناموس تنازع البقاء يجري بلا اجحاف بين الناس. ولا يكون ذلك الا اذا استوت أمامهم الفرص المعيشية بحيث لا يمتاز أحدهم من الآخر الا بكفايته الذهنية أو الجسمية. فيجب أن يتساوى الناس في فرصة الاثراء. وذلك باصطناع نظام اشتراكي أو شبيه بالاشتراكي حتى لا يولد واحد غني وآخر فقير. وقد يكون الغني أحط ذهناً وجسماً من الفقير ولكن امتيازه بالمال الموروث يعينه على نسله في الامة في حين أن فقد ذلك يمنعه من الزواج

وفرصة التعليم أيضاً يجب أن تتاح للجميع على حد سواء. لأن المتعلم يمتاز من الجاهل في ميدان الحياة وقد يتيح له تعليمه من الفرص لنشر نوعه ما لا يتاح لجاهل.

فكلا هذين الشرطين : المساواة في فرصة التعليم وفي فرصة الأثراء لا بد منهما لتهيئة الظروف الموافقة لتحسين النسل

١٢ – المرأة المصرية

لم تنكب امة في العالم بمثل ما نكبنا به من حجاب المرأة . فلو أن زلزالا حدث في مصر وقتل نحو عشرة ملايين نفس ولم يترك سوى مليون لكان اثره في الامة من حيث ذكائها ونشاطها اقل جدا من اثر الحجاب .

فقد نزل الحجاب بالمرأة من مستوى الانسان الى حضيض الحيوان . أجل ، وحيوان المغاور الذي يعيش في الظلام مع ذاك

لقد مضي على المرأة المصرية اكثر من الف عام وهي محبوسة في المنازل لا تسعى لمعاش ولا تسير في الشارع الا محروسة كما يسير القاصر . ومن البلاهة البالغة أن نظن أن هذه الحياة لم تؤثر في ذهنها وجسمها واعصابها . فان الحيوانات التي تعيش في المغاور تفقد قوة النظر للاستغناء عنه . والانسان الذي يمضي عليه الف عام لا يفكر الا في تنظيف البيت وطبخ الطعام وتهيئة الفراش لابد أن كفاياته تنقص . لأن العضو الذي لا يستعمل ينقرض .

وانما نحمد الاقدار على أن نظام الحجاب لم ينفذ قط تنفيذاً صحيحاً في الامة . فهو في المدن على اقساه ولكنه فى الريف فى الطبقات الوضيعة لا اثر له الا في الاسم . فالمرأة تخرج وتعمل في الحقل كما يعمل

زوجها. فعضلات جسمها تتحرك وذهنها ينشط لرؤية النور والنبات والحيوان وأن كان ذكاؤها لا يزال مخمداً لانها محرومة من الحديث والكلام الا في دائرة ضيقة من عائلتها

والحق اننا الآن بواسطة هذا الحجاب نعيش في العالم وكأننا في محجر بمثابة المجذومين لا يمسهم احـد . نتجنب الناس والناس يتجنبوننا. فالعالم المتمدين يجري مع نسائه على قواعد الحريه والمساواة، الا نحن، فاننا نحبسهن فنعطل فيهن كفاياتهن ونقف امام الاوربيين موقف المتوحشين

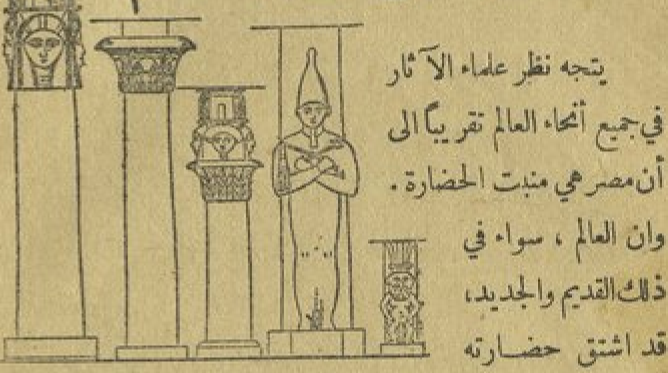
وللحجاب اثر اخر وهو أنه يحمي المرأة البلهاء من أن يكشف نقصها أمام خطيبها، فتتزوج وتنسل نسلا عجيباً، له نصف بلاهتها، في حين أنه لو كان هناك سفور لما اتيح لمثلها الزواج لأن الحديث المتكرر مع خطيبها يقفه على مدى فهمها فيتجنبها . فاذا كان مستوانا الذهني احط مما هو عنـد غيرنا من الامم فان هذا يعزى اكثره الى حجاب المرأة . كما يعزى بعضه الى ظلم الحكام الاتراك

وهذا الحجاب لم يخلق لبيئتنا ولا عذر لنا في أن نبقيه في بلادنا دقيقة واحدة

* * *

وخلاصة القول أن في العالم روحا جديدة غايتها الانطلاق من قيود التقاليد ، وتحسين نسل الانسان والسير به نحو السبرمان ، وازالة جميع العراقيل التي تقف في طريقه سواء اكانت اجتماعية أم دينية

مصر أصل حضارة العالم



يتجه نظر علماء الآثار في جميع أنحاء العالم تقريباً الى أن مصر هي منبت الحضارة . وان العالم ، سواء في ذلك القديم والجديد، قد اشتق حضارته منها . وليس ذلك لان المصريين كانوا أذكى من سائر الامم حتى استنبطوا آلات الحضارة ومؤسساتها حين كان غيرهم من البشر لا يزالون يجوبون الغابات والبوادي ، وانما يرجع الفضل في ذلك الى وادي النيل الذي هداهم الى الزراعة . والزراعة هي أصل الحضارة

وقد ضرب العلماء في بيداء التخمين عن أصل اهتداء الناس الى الزراعة حتى وقعوا فيما يشبه السخافات . فقد قال بعضهم مثلا ، ان الانسان عرف الزراعة لانه عند ما كان يدفن موتاه كان يضع بعض الحبوب مع الميت حتى يأكلها . فكانت هذه الحبوب تنمو لسقوط المطر عليها فيعتقد أقارب الميت انه كافأهم بهذا النبات النامي لانهم خدموه بتزويده في العالم الآخر بالطعام . وانه بتوالي هذا العمل فقه الانسان الزراعة

ولكن يعترض على هذا الفرض بأن الدفن والعالم الآخر كليهما من مقتضيات الحضارة ، وان الرجل الذي يعيش في الغابة لا يدفن ولا يعرف عالماً آخر

وانما عرفت الزراعة في وادي النيل . وكان النيل نفسه هو المعلم الذي علم المصريين هذه الصناعة . لأنه يأتي كل عام في فيضانه بما يشبه التقويم الفلكي دقة ونظاماً . فكان اذا فاض نبتت الحبوب نباتاً طيباً وأثمرت بلا حاجة الى ان ينفق المصري مجهوداً في الري أو الحرث أو أية عناية أخرى . وكان هذا العمل يتكرر كل سنة فكان لا بد للمصريين من أن يتنبهوا الى أن الماء هو أصل الزراعة. ولا يمكن أي نهر آخر في العالم ان يتعلم الناس منه الزراعة لانه لا يفيض بالنظام والمواظبة اللذين نراهما في النيل . وغلات الحبوب كالقمح والشعير والذرة يكفى لنباتها الفيضان دون الحاجة الى ري صناعي

ومتى عرف الانسان الزراعة وهدأ في مكان وترك التجوال في الغابات والبوادي شرع يؤسس مؤسسات الحضارة . لان هدوءه في مكان يحتاج الى حكومة تحرس له حقله وتمنع اعتداء غيره عليه والى بيت يقيم فيه. ثم ان العائلة يتوطد بنيانها لان التجوال السابق كان يفككها ويرخي روابطها . ثم ان صناعة البناء تظهر ويليها صناعة الآنية من فخار أوخزف . وأيضاً تُستأنس الحيوانات المتوحشة وتعرف رعاية الماشية وصناعة الالبان

وكما ان الطبيعة انعمت على المصري بالنيل يعلمهُ الزراعة ويفقههُ في علاقة الماء بهما ، كذلك جفاف المناخ المصري علمهُ الدين . لأنهُ كان يترك جثث الموتى فتجف أحياناً دون أن تبلى ففطن من ذلك الى ان الموت لا يختم الحياة ، وشرع يساعد الطبيعة على بقاء الجثة بالتحنيط . ومن التحنيط نشأ الاعتقاد بالعالم الثاني وظهرت طبقة الكهنة . وكان للنيل دخل آخر في الدين وهو انهُ جعل المصري يقدس الماء ويعتقد انهُ أصل كل شيء حي وانهُ يطهر كل شيء . وليست قصة الفيضان ونجاة نوح منهُ الا احدى نتائج الاعتقاد بفيضان النيل وانهُ أصل الحياة كما أثبت ذلك اليوت سمث

هذه هي النظرية التي يقول بها علماء الآثار عن حضارة العالم وانها مشتقة من مصر . فهل التاريخ يؤيدها ؟

لقد أتيح لكاتب هذه السطور أن يقرأ كتاباً ضخماً للاستاذ بري يبلغ ٥٥١ صفحة حاول فيهِ اثبات هذه النظرية من تاريخ مصر والعالم . واعتقادنا أنه نجح في هذه المحاولة . ولسنا نميل الى رأيه ونقتنع به لبواعث وطنية ، فانه وان كان يجري في عروقنا دماء الفراعنة فاننا قد انقطعت بيننا وبينهم صلة اللغة والثقافة وهما أهم ما يعمل للتعصب

وليس من السهل تلخيص كتاب بري فانه يستقرىء الحضارات المختلفة التي ظهرت في العالم ويتتبعها من مصر شرقاً الى سوريا فالعراق فالهند فالصين فجنوب آسيا فاستراليا فأميركا ويستخرج منها تلك السمات المصرية التى اتسم بها التاريخ المصري القديم من لدن

فراعنة الاسرة الخامسة . وهو في استقرائه يثبت أن التدرج الجغرافي في اتجاه الحضارة المصرية الى الشرق يسير مع التدرج الزمني . فآخر ماظهر من آثار الثقافة المصرية مثلاً كان من حيث الزمن في أميركا وهي أنأى الاقاليم عن مصر

وقبل الكلام عن سمات الحضارة المصرية التي نجدها في سائر حضارات العالم يجب أن نذكر ان العالم منذ داروين صار يثق اكثر مما يجب بالوسط . فان ركناً كبيراً من نظرية داروين قائم على أن الوسط يؤثر في الحي . وقد تأثر علماء الآثار بهذا الرأي فكانوا يردون الحضارات المتشابهة في الصين ومصر مثلاً الى أن الوسط في كلا القطرين متشابه وان عوامل المناخ المتشابهة فيهما كانت كافية لأن تتشابها في الحضارة والثقافة

ولكن هذا الرأي قد تقبل الآن بالشواهد العديدة التي تنقضه. ففي أميركا مثلاً نجد في عصر الفتح الاوربي في اقليم واحد على خط عرض واحد أمتين أمة : متحضرة وأخرى متبدية لا تزال تعيش في الغابات وتقتات بالصيد والجذور . وكذلك الحال في آسيا . وليس الفرق بين الطائفة المتحضرة والاخرى المتوحشة يرجع الى اختلاف المناخ وانما مرجعه الى تقاليد في الثقافة والحضارة تسلمتها الامة المتحضرة اما عن غزو واما عن طريق آخر

ولننظر الآن في سمات الحضارة المصرية الاولى التي انتشرت في العالم وجعلته ما هو الآن . فالمصريون عرفوا الذهب ولم يكونوا

في الاصل يحملونه للزينة وانمـا نقبوا عنه وصاغوه في هيئة الودع كما يرى الآن في المتحف المصري اعتقاداً منهم بأنه يطيل الحياة أو هو اكسير الحياة . ولا يخفى ان هـذه الفكرة لم تمت الا حديثاً . فان المصريين لما شرعوا يدرسون العالم وأذهانهم لا تزال بكراً من الغابة لم تلوث بعد بعقيدة أو ثقافة مركبة ، أخذوا ينظرون الى حبة الشعير وهي أقدم ما عرف من الغلات فرأوها على هيئة عضو التناسـل في المرأة . وهما يشتركان أيضاً في أنهما مبعث الحياة . ذلك يخرج منـه الاطفال وهذه تنمو وتخرج منها السنبلة . فجعلوا الشعيرة رمزاً للحياة أو لطول الحياة . ثم وجدوا الودعة تشبه الشعيرة فصارت هي أيضاً رمزاً للحياة .وهي لاتزال كذلك للآن عند الزنوج. ثم عرفوا الذهب فصاغوه ودعاً لهـذه الغاية أيضاً . وشرعوا من ذلك الوقت ينقبون بهمة عن الذهب فخرجوا من مصر وولوا وجوههم شطر الشرق للبحث عن الذهب وغرسوا في أذهان الشرقيين قيمة الذهب في إطالة الحياة وفي الزينة أيضاً . ولمعظم الامم المتأخرة فى آسيا تقاليد وتواريخ مأثورة تثبت مجيء « أبناء الشمس » الى أقطارهم لاستخراج الذهب .

هـذه واحدة . ثم التحنيط فشا في مصر اولاً والغاية منه ايضاً اطالة الحياة . لان المصري القديم وهو كما قلنا قد خرج من الغابة وذهنه خلو من اية ثقافة او اية فكرة علمية ، كان يعتقد في سذاجة ان الجسم ما دام يحتفظ بشكله الخارجي فانه حي حياةً قـد تختلف عن

حياتنا ولكنها مع ذلك حياةٌ ما . فنشأ من ذلك الاعتقاد بعالم ثان . وما هذا الاعتقاد في الاصل الا ايمان بطول الحياة او هو محاولة لاطالتها . ونحن نجد التحنيط قد خرج من مصر حتي بلغ اميركا

فعقيدة العالم الثاني وعقيدة الطوفان كلتاهما نشأت من عقائد المصريين الاولى . نشأت الاولى من رغبة المصري في اطالة الحياة ونشأت الثانية من فيضان النيل . وقد عقد اليوت سمث فصلاً وافياً في تطور هذه العقيدة الثانية حتى انتهت بما نراه في رواية التوراة

وقد قلنا ان حضارة مصر التي فشت في العالم هي حضارة الاسرة الخامسة . وهي الاسرة التي ظهرت فيها عبادة « را » إله الشمس على عبادة امون . وانقسمت الامة المصرية قسمين : امارة دينية ووزارة سياسية . اى ان الحكومة ازدوجت وصار فيها رئيسان احدهما ديني والآخر مدني . وهذا الازدواج فشا في جميع انحاء العالم وهو لايزال الى الآن قائماً في بعض الامم . ولعلنا هنا لا نخطىء اذا قلنا ان الخلاف بين قريش والانصار حين قال هؤلاء على أثر وفاة النبي : « منكم الامارة ومنا الوزارة » يرجع الى هذه الثقافة المصرية التي فشت في الاسرة الخامسة

وعلى كل حال نحن نجد بالاستقراء التاريخي والجغرافي ان « أبناء الشمس » أي المصريين الذين خرجوا من مصر أو غيرهم الذين تسلموا منهم ثقافتهم قد انتشروا في آسيا ونقبوا عن الذهب اكسير الحياة وانهم افشوا بين الناس الاعتقاد بالعالم الثاني وأشاعوا نظام

الحكومة المزدوجة : امارة دينية ووزارة سياسية . كما انهم علموهم صناعة التحنيط

ومما يثبت هذا القول اننا نجد درجات التطور في مصر ظاهرة ولكننا لانجدها كذلك عند الامم التي اقترضت منها حضارتها وثقافتها. فنحن نعرف مثلا ان الآلة البخارية توجد في مصر وفي انجلترا الان . فاذا نحن فقدنا الوثائق التاريخية وادعى مصري ان مصر هي التي اخترعت القاطرة لم يشق على انجليزي ان يثبت ضد ذلك بان يرجع الى تطورات القاطرة في بلاده من عهد انشاء الآلات البخارية التي صنعها سافري الى واط ثم الى ستيفنسون، ويوضح ان هذه الآلات كانت ناقصة فتحسنت بالتدريج وتطورت حتى بلغت حالتها الحاضرة التي نراها في مصر وانجلترا معاً . اما نحن فلا نستطيع ان نظهر تطوراً للآلة البخارية في مصر . فنفهم من ذلك ان القاطرة اخترعت في انجلترا

وكذلك الحال في مصر ازاء العالم كله . فنحن نجد الهرم كاملا في امريكا ، ظهر في العصر المسيحي ،ولكننا نجده في مصر قبل المسيح باربعة آلاف سنة ولانجده كاملاً بل ناقصاً نشأ أولا مصطبة ثم هرماً مدرجاً أي مصطبة ثم فوق مصطبة هرماً كاملا في الاسرة الرابعة . فمن المعقول انه اذ خرجت حضارة مصر وقت الاسرة الخامسة وتفشت في العالم شيدت الامم التي تلبست بالحضارة المصرية اهرامها على النمط الاخير . وكذلك الحال أيضا في التحنيط نشأ في مصر

تحنيطاً بسيطاً ثم ارتقى . ونحن نرى تدرج ارتقائه في قبور المصريين القدماء . ولكننا نجد التحنيط كاملا في اميركا . بل اغرب من ذلك انه ابتدأ كاملا في اميركا ثم انحط بعكس مانرى في مصر ممايدل على ان القائمين بامر التحنيط انقرضوا فزالت صناعتهم في اميركا . ونرى مثل ذلك أيضا في التنقيب عن الذهب فان « أبناء الشمس » الذين ذهبوا الى جنوب آسيا انقرضوا فذهبت معهم ثقافتهم وكف الاهالي عن البحث عن الذهب ولم يبق عندهم سوى تقاليد وأساطير عن ابناء الشمس الذين يطيلون الحياة

وكذلك الحال في الكتابة اخترعها المصريون اولا ، لانهم لما كانوا أمة زراعية كانوا يحتاجون الى تقويم دقيق مازلنا نحن المصريين نعمل به في الزراعة التي تجري للآن على التقويم القبطي . وفي هذا التقويم شهران هما توت وهاتور ، وكلاهما من ارباب آبائنا . فهذه الكتابة خرجت من مصر واتجهت الى الشرق حتى بلغت اميركا . وذلك لان الثقافة التي خرجت من مصر كانت على تنوعها وحدة مؤتلفة . فالكتابة كانت معروفة في مصر منذ اكثر من ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد . ولم تظهر في الهند الا حوالي سنة ٧٠٠ ق . م . وحضارة اميركا ابتدأت حوالي الميلاد المسيحي وعرفت في هذا الوقت الكتابة عند الامركيين القدماء

فليس شك الآن أن حضارات العالم كله اشتقت من مصر. ومما يشرح القلب أن دعاة هذه النظرية ليسوا مصريين بل انجليزاً



الحرية الفكرية

الانسان أسير وسطه ينطبع فيه أثر بيئته وينفعل هو بما يحيط به من العادات والاقوال والنظم الاجتماعية والسياسية. ينشأ صغيراً فتؤثر فيه مبادىء التربية التي يتلقنها الى حين يشيخ ويهرم . ويخالط من الاصدقاء من يكتسب منه القدوة الرديئة أو المثل الحسن . ويقرأ من الكتب ما يستهوى فؤاده على الرغم منه أو يكرّهه في أشياء قد كان لا يكرهها لو لم يقرأها . ثم هو يجد نفسه فرداً في وسط مجموع يضطره الى السير على غراره يقسره على أن يلبس لباسه ويستطيب طعامه ويتكلم لغتهُ ويحد ذهنه بحدود معانيها

فمهما ادعى احدنا أنه حر الضمير طليق الفكر نزيه الرأي فهو في الواقع وفي اغلب افعاله قد أُوعز الى ضميره وأُوحى الى فكره وقد تسرب الغرض على غير وعي منه الى جميع آرائه .

فقد يسير احدنا في الشارع ليس في نيته أن يشتري صحيفة فيأخذ باعة الصحف في الصياح أمامه باسماء صحفهم . فلا يأبه لصياحهم أول مرة ولكنه ينتبه المرة الثانية . فاذا كانت المرة الثالثة أو الرابعة لم يجد بدّاً من أن يشترى الصحيفة

وهكذا الشأن في سائر اعمالنا . حتى لقـد ، قال لوبون أن خير طرق الاقناع ليس البرهان وانما هو التكرار

فنحن ننفعل بالوسط الذي نعيش فيه لكثرة ماتتكرر أمامنا أحواله وتعاودنا آثاره . فالحرية الذهنية قلما توجد مطلقة كاملة عند أي فرد وأنما مقدارها نسبي يتناسب وذكاء المرء . فاكثر الناس ذكاء ابعدهم عن الانفعال بالوسط وأقلهم لذلك تقليداً واكثرهم ابتكاراً في شؤون حياته وتفكيره واضعف الناس ذكاء أميلهم الى التقليد والتأثر بالبيئة والجرى على السنن الموضوعة والعرف الفاشي

ثم أن الابتكار يجهد الفكر ويكد الذهن اكثر من التقليد . ولذلك نجد كثيرين من الناس يكرهون الحرية الفكرية لما يشعرون بالجهد المضني الذي تتطلبه

فالتقليد راحة ودعة وخمول . في حين أن الحرية جهد ونشاط و بلاء

ولم يتقدم الانسان في العلوم هذا التقدم الهائل إلا لانه تناولها بشيء من الحرية ساعدته على الابتكار في طرقها وترقيتها . وليس ذلك الا أن الاغراض التي كانت تؤثر في العلوم كانت قليلة . وكان النقد مباحاً لانه لم يكن لاحد مصلحة في ترويج نظرية دون أخرى أو إيثار طريقة على أخرى

فتقدم العلوم الكيمائية والطبيعية هذا التقدم الرائع انما يعزى الى انبساط علماء هذه العلوم في الحرية وانطلاقهم في بحبوحتها وهم لم يكونوا في ذلك احراراً تمام الحرية فقد ورثوا عبئاً من النظريات لم يتخلصوا

منها الا بالجهد . بل هم لم يتخلصوا منها الى الان تماماً . ولكن علماء العلوم المادية مع ذلك اكثر العلماء حرية فكر ونزاهة رأي

وسبب ذلك أن العلوم لا تمس عواطفنا فلسنا نبالي ما يحدث فيها من التغيير والتبديل. فقد حدث مثلا منذ سنوات قليلة أن وقف اينشتين وقال أن نظرية نيوطن في الجاذبية خطأ . فلم يشعر أحد منا بالحنق عليه أو الطرب له . ولم تضطهده حكومة ولم تعاقبه محكمة ولم يخسر قرشاً من ماله في ذلك

والناس يقولون الآن ان العلوم الطبيعية قد تقدمت بينما العلوم الاجتماعية لم تتقدم . وهكذا الشأن في الحالة الروحية في الانسان وفي الآداب الخلقية والآداب الثقافية

وهذا حق . ففي الحرب الكبرى مثلا كانت الجنود تقاتل بوسائل جهنمية أحدثها العلم . ففنيت ملايين من الناس بهذه الوسائل التي لم يعرفها العالم قبلا . والفرق بينها وبين ما كان يستعمل من الوسائل الحربية منذ الف عام هو فرق مابين الرمح والسيف وبين المدفع والغازات السامة . ولكن عند ماقعد رجال السياسة الى مائدة الصلح تبين للناس أنه ليس هناك فرق بينهم وبين رجال السياسة منذ الف عام

وعلة ذلك ان العلوم الكيمائية تقدمت لان المشتغلين فيها احرار في انتقادها لا تشوب اذهانهم الاغراض . في حين ان العلوم السياسية تشوبها الاغراض من كل ناحية والحرية فيها غير مطلقة

فالتقدم فيها يسير أو ليس فيها تقدم البتة . ونتيجة ذلك انا نحارب بوسائل القرن العشرين ولكنا يسالم بعضنا بعضاً بوسائل القرن العاشر

فلو وضع أحدنا كتابا يفضل فيه الاساطيل الهوائية على أساطيل البحار لما اغتاظ احد منه ولما انعقدت له محكمة لمحاكمته ولكن لو وضع احدنا كتابا في ذم الاستعمار أو في ايثار نظام الاشتراكية على غيره أوفي تفضيل نظام الولايات المتحدة المستقلة على النظام الجمهوري المتمركز اوفي نقد الدستور أو نحو ذلك لوجد من الناس حنقاً . وقد تنعقد محكمة لمحاكمته على هذه الوقاحة

فبدهي من ذلك ان العلوم الحربية تتقدم بينما العلوم السياسية تركد

وكذا الحال في الاداب الثقافية . فهي متصلة بتاريخ الامة وبها تنعقد نخوتها وعزتها . فما هو ان يبدأ الانسان في نقد هذه الاداب حتى يرى هياج العواطف وتأثر النفوس . ولكن الاداب مثل العلوم لاتتقدم الا اذا تجردنا أو حاولنا ان نتجرد من هذه العواطف .

ثم هـذه الحالة الروحية في الانسان ليس ينكر أحد انها قد تاخرت تأخراً هائلا . وكيف لاتتأخر اذا كنا نمنع الناس من انتقاد الاديان ونعاقبهم بالحبس والتشنيع من اجل ذلك . وهل كان علم الكيمياء يتقدم لو كنا نمنع الناس من انتقاده كما نمنعهم من انتقاد الاديان ؟

وهذه الآداب الخلقية في الناس قد أحيطت بسياج يحول دون

نقدها أيضاً . فلو أخذ أحدنا في نقد تركيب العائلة الراهن أو سلطة الاباء على الابناء أو نحو ذلك لاقام حوله قيامة من السب والتشهير

وقل مثل ذلك في الحال الاجتماعية أو الاقتصادية . فان الثابت المعروف الان بين العلماء انه لم يوجد الى الآن « علم اجتماعي » أو « علم اقتصادي » وذلك انه ليس فى العالم طبقة من الاحرار تستطيع ان تبحث هذين العلمين وتستقريء نواميسهما . لان للناس مصالح في الحال الحاضرة وهم يمنعون بقوة الرأى العام وقوة المحاكم أية محاولة من أي أحد في البحث الحر الصادق لهذه الموضوعات

وخلاصة القول ان الانسان مهما ظن نفسه حراً فهو أسير الوسط الذي يعيش فيه. فحريته في أحسن أوقاتها هى حرية مشوبة بالرق لما تركبَ فى النفس البشرية من الانطباع والتأثر بالبيئة الاجتماعية وبالتاريخ الماضي وبحدود اللغة وأثر المناخ وما الى ذلك

فيجب أن لانزيد هذه القيود التي تقيد حرية الانسان عفواً وعلى الرغم منه بقيود أخرى نضعها عمداً أو نوكل المحاكم في تنفيذها وامضائها ونثير عواطف الناس عند كل مخالفة لهم فى الرأى أو العادة

فانما التقدم منوط بنزاهة الرأي والجرأة على ارتياء الآراء . وقد كانت هذه ميزة الاغريق علينا . فان أفلاطون مثلا يتكلم في كتابه : « الجمهورية » بنزاهة وصراحة وجرأة لانجد مثلها الان إلا فيمن يتكلمون في العلوم الطبيعية . فقد كان ينتقد العائلة والحكومة والزواج وما اليها دون أن يخشى سخط الناس أو حكم محكمة

فما لم نفعل نحن ذلك وننظر الى الآداب والعلوم الاجتماعية والسياسية والدينية كما ننظر الى الكيمياء فاننا لن نتقدم . ولست أقول أن هذا سهل هين وأنه يكفي أن نطلبه حتى نجده . وانما أقول أولا انه يجب أن نمنع المحاكم من أن تستعمل سطوتها فى هدم الآراء الجديدة الدينية أو الاجتماعية، وأن نربي الجمهور على المياسرة والتسامح في وجود ما يصدم عواطفه الموروثة من الآراء . فعلومنا المادية هي الآن علوم القرن العشرين بينما سياستنا وعمراننا وآدابنا يعود بعضها الى الوراء نحو الفي أو ثلاثة آلاف عام





التقليد
في الانسان والحيوان

التقليد صفة أو غريزة عامة في الحيوانات العليا . و بمقدار ارتقاء الحيوان في سلم التطور تكون قدرته على التقليد . فارق الحيوانات هو الانسان ويليه القرد وكلاهما يفوق العالم الحيواني في حب التقليد

ولا تكاد الحيوانات الدنيا تفهم معنى التقليد. فالحشرات والعناكب والاسماك وما يلي هذه الحيوانات نزولا في سلم التطور لا تكاد تُبين في حركاتها وخلقها العام ما يدل على انها تقلد في سلوكها

فيتضح من ذلك أن التقليد صفة راقية اخترعته الطبيعة للحيوانات سلاحاً حديثا تستعين به في مهام حياتها . وكأننا بذلك نثبت فائدة التقليد للحيوان . فما هذه الفائدة ؟

من لوازم التقليد أن يكون مصحوباً بالاحساس الذي يحس به الشخص المقلد (بفتح اللام) . فاذا رأينا شخصاً متهيجاً غاضباً وقلدناه في جميع حركاته الواعية وغير الواعية ادى بنا هذا التقليد الى احساس الغضب الذي عند هذا الشخص . واذا رأينا رجلا يضحك فقلدناه

في ضحكه وتضاحكنا ادى بنا هـذا التضاحك الى ضحك حقيقي وسرور فعلي نشعر بهما . واذا رأينا احداً يبكي وتباكينا ادى بنا هذا التباكي المدعى الى بكاء فعلي

هذا ولكل حيوان عواطف لا تزال خافية علينا ما دامت ساكنة فاذا اهتاجت تحركت في جسم الحيوان اعضاء خاصة تدلنا على نوع العاطفه المهتاجة

ولكل عاطفة عضو او اعضاء تخدمها فى تأدية اغراضها وهي في الوقت نفسه تنم عليها

على ان هناك خاصة غريبة في جسم الحيوان وهي ان تنبيه عضو ما او تحريكه بحيث يمثل تادية غرض من اغراض العاطفة الموكلة به والمتسلطة عليه ، يؤدي الى تنبيه هذه العاطفة نفسها

فاذا وقفنا منفردين فى غرفتنا وعقدنا حاجبينا وقبضنا اكفنا واستوينا كاننا نتهيأ لقتال ، اجتمع لنا من هذه الحركات ماينبه فينا غريزة القتال فنشعر للحال بالغضب والغيظ كأننا نقاتل بالفعل وتطفو الى السنتنا الفاظ السباب ويزداد نشاط رئتينا وتتوتر اعصابنا كان هناك قتالا حقيقيا . ومن هنا ندرك السبب الذى من اجله ينتهي مزاح بعض الناس والحيوانات الى قتال حقيقي .فالصراع والمهارشة يؤديان احيانا الى قتال حقيقي

واذا وقفنا بهيئة خليعة تنافي الوقار او الآداب جالت في رؤوسنا للحال افكار سافلة وانتبهت فينا عوطف الدركة السفلى . وهلم جرا .

فالوظيفة تحرك العضو والعضو يحرك الوظيفة . فربما كنا مثلا لا نشعر بالجوع فاذا جلسنا الى المائدة و بسط الطعام كان لنا من تحريك اعضائنا تلك الحركة الآلية التي تسبق الطعام ما ينبه فينا شهوة الجوع . ومن هنا يقول المثل الفرنسي « شهوة الطعام تأتى عند تناوله »

فالتضاحك كما قلنا يؤدى الى الضحك والسرور لأنه يحرك اعضاء عاطفة السرور . والتباكي يؤدي الى البكاء لانه يحرك اعضاء البكاء وبذا ينبه عاطفة الحزن

من هنا كان التقليد سلاحا ينفع ذويه فى الملمات . لاننا اذا راينا خصمنا وهو يزبد اهتياجا وغضبا كان لنا من تلك الخاصة التي تمكننا من تقليد حركاته ان ندرك احساساته نحونا ونستعد لمقاومته ودفعه عنا . فندفعه ونصده لابحكم العقل والروية بل انصياعا لوحى الغرائز والعواطف

وقد صار التقليد غريزة نؤديها على غير إرادة منا وأحيانًا على غير وعي منا . فالطفل الصغير يبكي على الرغم منهُ اذا رأى أمه قد ضربت أخاه فبكى أمامه. واذا رأينا رجلاً على سطح عال قداقترب من حافتهِ حتى أشرف على السقوط دب في قلبنا على غير وعي منا رعب وسرت في جسمنا قشعريرة كأننا نحن على وشك السقوط والهلاك

فالتقليد وسيلة قد ابتكرتها لنا الطبيعة بغية استكناه نيات أخصامنا. ولكن ليس هذا هوالغاية من التقليد فحسب . فقد اخترعت لنا الطبيعة العقل للتمييز والحكم بين غرائزنا ومعرفة النافع والضار

في أحوال معاشنا ونحن الآن نستعمل هذا العقل في ما هو أرقى من ذلك – في درس الفلك والرياضة والفلسفة

وكذلك الحال في التقليد .فنحن نستعمل هذه الخاصة في أشياء لا تتناول معاشنا اليومي . فمن ذلك ان التفاهم العادي بين شخص وآخر لا يتم مع وجود اللغة الا بأن يقلد كل منهما الآخر تقليداً غير واع فيفهم أحدهما احساس الآخر ويستطيع اجابته . وليس العقل أساس التخاطب لان العقل بطيء لا يسعفنا بضالتنا من الالفاظ وانما يقوم التخاطب بالهام الغرائز وهذه تنتبه لاننا نقلد من يخاطبنا فنحرك على الرغم وعلى غير وعي منا أعضاء تماثل ماتحرك منه فنحس إحساسه وندرك موقفه بازائنا ونرد عليه بما يلائم مصلحتنا

واكثر الناس يعزون تقدم الانسان على سائر الحيوانات الى كبر دماغه وقوة عقله ، وهذا خطأ . فاننا لم نصل الى مركزنا الحاضر في سلم النشوء بهذا فقط .فان قدرتنا على النطق وخفة أيدينا ثم قدرتنا على التقليد – كل هذه الخواص قد رفعتنا فوق البهيمية وتعزى اليها انسانيتنا اكثر مما تعزى الى العقل

اذ ماذا ينفع الثور أن يكون له عقل مثل عقلنا ما دامت يداه لا تستطيعان صنع الآلات وما دام لسانه لا ينطق فيقيد المعاني بألفاظ وما دام لا يستطيع التقليد فيسهل عليه التخاطب ؟

وربما لايخرج عن موضوعنا أن نبين ما للتقليد من القيمة الادبية

والتعليمية . فقد ألف أحد القصصيين الروس الذين أتوا بالمعجزات في فن القصص قصة تدل على قيمة التقليد . وبطل هذه القصة طبيب اراد أن يقتل خصما له من غير أن يقع في جريرته فادعى الجنون وقلد حركات المجانين حتى اتقن الحيلة واقنع الناس بجنونه .ثم سنحت له فرصة فقضي لبانته وهو في احدى نوباته المدعاة . فلما قبض عليه وسجن استمر في ادعاء الجنون فنجا بذلك من القصاص ولكنه جن بالفعل . لأن تقليده للجنون ومداومته على محاكاة المجانين في حركاتهم واشاراتهم ادى به في النهاية الى أن يحس احساسهم ويجن

ومن هنا كانت فائدة التعليم . فالطفل البليد الطبع الوانى الحركة ينشط ويتذكى اذا قسر على النشاط والانتباه لانه يحرك اعضاء في جسمه تنبه فيه هذه الصفات . فهو يقلد حركات النشاط اولا فينتهى بان يصير هو نفسه نشيطا . ومن هنا ايضا كانت فائدة القدوة الحسنة والمثل الطيب . فقليل الدين يتورع اذا قسر على الصلاة مع الورعين وينتهى تورعه المدّعى الى ورع حقيقي . ومما يثبت الدين في قلوب اصحابه ان تكون الصلاة جماعة وان تتكرر جملة مرات في اليوم بحركات خاصة بها . فتحريك الاعضاء ينبه العاطفة الدينيه والقدوة الحاصلة بالاجتماع تحرك غريزة التقليد

ويمكننا لو اردنا ان نعم الآداب بين التلاميذ مثلا ان نقسرهم على مراعاة بعض الحركات التي تصحب الرجل المؤدب فينتهى بهم الحال الى ادب حقيقي

واذا شعرنا بالغيظ من احد وثارت عليه عواطفنا امكننا ان نزيل مابانفسنا منه بان نذكر اسمه مبتسمين ثم نمدحه بصوت عال ونحرك اعضاءنا بحركات الوداد نحوه فتنتعش فينا عواطف الميل اليه · وهلم جرا

غير ان في التقليد مضار كما ان فيه منافع . فالقدوة الرديئه تؤثر فينا على الرغم منا وتفت في خلقنا · واذا اتهم احد المغفلين او ضعاف العقول بتهمة ما وكان بريئا ثم اجريت معه مراسم التحقيق ومثل ساعة امام مدير السجن واخرى امام وكيل النيابة ثم بين يدي القضاء أدت به هذه الحركات الى ان يحسب نفسه انه مجرم حقيقي فيعترف بجرم لم يرتكبه . لان تكرار ذكر الجريمة امامه وتقليده لحركات المجرمين في السجن والمحكمة ونحو ذلك ، وضعفه العقلى الاصلى — كل هذه الاشياء تجسم في ذهنه صورة جريمة لم يرتكبها فيتوهم انه ارتكبها

ويمكنك ايضاً ان تقول ان حرية الفكر المزعومة وهم واننا كلنا يحاكي بعضنا بعضا نستعير الافكار والاراء من حيث لاندري . وان الاستقلال في الفكر يحتاج الى جهد عظيم قد لا يطيقه غير القلة





مرآة المزاج الانجليزي

في اللغة الانجليزية

اللغة مرآة الأمة التي تنطق بها وتعرب عن المعاني المستكنة في ضميرها عن سبيلها . وبمقدار شذوذ هـذه المعاني أو عمومها يكون شذوذ الالفاظ وعمومها أيضاً . فجميع اللغات مثلا تشترك في معان عمومية تؤديها بألفاظ يمكن ترجمتها من أية لغة الى أية لغة أخرى . ولكن هناك من المعاني عند بعض الأمم ما لا يمكن ترجمته لأنه خاص بالاقليم الذي نبت فيه أو لأنه نبع من مزاج الامة وقد لا يشترك هذا المزاج وأمزجة الأمم الاخرى

فكلنا مثلاً حاول عبثاً أن يجد لفظة تؤدي معنى الشماتة في اللغة الانجليزية فلم يقدر . وليس منا من يستطيع ترجمة لفظتي خال وخؤولة الى الانجليزية . ولا بد أن كثيرين منا قد تأملوا في أصل معنى السياسة عنـد العرب وعلاقتها بسائس الخيل واللفظة المقابلة لها في اللغات الاوربية وعلاقتها بالمدينة : Politics

ويمكن الانسان بتحليل بعض الالفاظ العربية أن يعرف مزاج

العرب وأحوال البيئة البدوية التي كانوا يعيشون فيها . فالراعي والرعية مشتقان من تربية الغنم والجمال، وسياسة الامة مشتقة من سياسة الخيل، والفراسة مشتقة من الفرس وهلم جراً

وموضوع درسنا الآن ليس البحث في المعاني العربية بل في المعاني الانجليزية ودلالتها على مزاج الامة الأنجليزية وخلقها أو قل عقليتها ونفسيتها

وقد وجدت أن خير طريقة لبلوغ هذه الغاية أن ندرس الالفاظ الانجليزية التي لم يستطع الفرنسيون أن يترجموها الى لغتهم فنقلوها بأعيانها كما هي . فأذا أتممنا هـذا على بعض الالفاظ الانجليزية الاخرى فنظرنا فيها .

فمن هذه الالفاظ لفظة Character التي نترجمها أحياناً ترجمة مخلة ناقصة بالخلق وأقرب منها الى الصحة أن نترجمها بلفظة طبع لان هذا المعنى هو أصل اشتقاقها وبها سميت لذلك حروف الطباعة . والخلق والطبع كلاهما لا يؤدي المعنى الانجليزي على وجه التحقيق . فأن الانجليز يقصدون من هذه اللفظة جملة خصال تتركب في الخلق العظيم أهمها الثبات والاستقامة والدأب في بلوغ الغاية وعدم التقلب مع الاهواء أو الاحوال . ويمكننا أن نفهم المعنى أكثر اذا روينا حكايتين صغيرتين :

الاولى ان الانجليز ينسبون هذه اللفظة الى ستانلي المكتشف الافريقي العظيم لأنه على طول اقامته في غابات افريقا وفيافيها وعلى

كثرة ما كان يشغله من الاخطار وعلى ان الذين كانوا يحيطون به من البشر لم يكونوا إلا من الهمج والمتوحشين ، لم يهمل يوماً واحداً أن يحلق لحيته كما هي العادة الانجليزية . وقد نشأ ستانلى انجليزيا ثم صار بعد ذلك أميركيا . فمواظبته على حلق لحيته دليل متانة خلقه

وللكاتب الانجليزي ولز قصة مشهورة افتتحها بوصف الخلق أو الطبع الانجليزي فعرض للقاري، صورة صانع يصنع المركبات الثقيلة المتينة . ويقوم حوله منافسون يصنعون المركبات الخفيفة و يبيعونها بأثمان رخيصة فتبور تجارته لانه لا يستطيع أن يبيع مركباته الثمينة بالاثمان التي تباع بها هذه المركبات الخفيفة . ولكنه لهذا «الطبع» المركب في مزاجه يأبى أن يغير خطته أو ينزل عن رأيه فهو يعتقد أن المركبة المتينة الغالية أنفع للأمة وأصلح لها من هذه المركبات الرخيصة الخفيفة فهو يدأب فى وضعها غير مبال بكسادها

ولا شك في أن ولز قد غلا في الوصف ولكن غلوه يبين حقيقة ما يعني الانجليز بلفظة Character التي لم نستطع للآن ترجمتها الي لغتنا كما لم يستطع الفرنسيون

وكلمة أخرى لم يمكن الفرنسيين ترجمتها هى لفظة Sport فنقلوها بحروفها الى الفرنسية . وقد اصطلحنا نحن على أن نترجمها بلفظة رياضة وهي في اعتقادي لا تؤدي المعنى الانجليزي كل الاداء . فانها مصبوغة بالجد أكثرمنها باللعب . وهي في الانجليزية مصبوغة باللعب

أكثر منها بالجد وليس بين أمم العالم الآن من يلعب مثل الانجليز حتى دخل لفظ « اللعب » عندهم في جملة معان . فالانصاف والعدل عندهم Fair play أي اللعب النزيه . ومن مات عندهم أو قتل فتحمل للموت أو القتل بجلد وشهامة فقد مات لاعباً To die game

ومن الالفاظ الانجليزية التي اصطنعها الفرنسيون لفظة Humour وهي تعني في العربية شيئاً يقرب من الفكاهة أو قل الفكاهة العالية وهذا يدل على أن الانكليز أكثر الناس في إيراد الفكاهة وحسبك أن تعرف أن أكبر كاتب وفيلسوف انجليزي الآن هو برنارد شو وهو كاتب فكاهي . وكان مارك توين من أكبر كتاب الولايات المتحدة الامريكيــة وهو أيضاً كاتب فكاهي . ولهذين الكاتبين غضبات في الحق ينسيان فيها كل فكاهة

وأيضاً لفظة Home التي تقارب معنى بيت في العربية (وذلك اذا اعتبرنا أن البيت هو المنزل وأهله) ليس لها ما يقابلها في الفرنسية . والرابطة البيتية كبيرة جداً في انجلترا . والبيت بهذا المعنى عبارة عن منزل له حديقة يتسم اثاثه بالرفاهية يوجد بغرفه على الدوام موقد نار للاصطلاء ويشرب فيه الشاي في أي وقت وتجتمع العائلة في احدى غرفه كل ليلة للمسامرة أو المطالعة . وبالحديقة كلب وبالمنزل قط والزوج يعشق زوجته عشقاً صحيحاً لأنه لم يتزوجها لمال أو لجاه

هذا هو الجو الذي اتشممه من لفظة Home ولذلك يشق على الانسان ترجمتها لاية لغة

وقد يمكنك أن تضيف الي هذه الالفاظ الاربعة لفظة خامسة لم يستطع الفرنسيون ولا نحن ترجمتها وهي لفظة Gentleman فان الانجليز انفسهم لا يعرفون جملة المعاني التي تنطوي عليها هذه اللفظة وهي تعني في اعتقادي رجلاً شهما صحيح الجسم مقبول الملامح يعرف آداب اللياقة لا يكثر من الدرس ولا من اللعب ولا يتدنى للربح

ولننظر الآن في بعض الفاظ انجليزية اخرى تدل على المزاج الانجليزي. فالانجليز يحبون اللحم وهم أكثر الامم أكلا للحم والحق يقال أنه ليس في العالم لحم يؤكل مثل ذاك الذي يباع في لندن. فليس عجباً أن يجعلوا لفظة Meat وهي تدل في الاصل على الطعام كله بانواعه مقصورة في المعنى على احسن ما يحبونه في الطعام وهو اللحم

والانجليز مثل الاغريق القدماء يكرهون الاجانب أو قل يحتقرونهم. فقد كان الاغريق يسمون كل أجنبي بربريا. والانجليزي يشعر بهذا الشعور الاغريقي ولكنه يتلطف في التعبير. وكثيراً ما كنت أتعجب للمزاج الانجليزي وأنا بلندن عند ما كنت الاقي احدا من أبناء لندن أذا أراد أن يلاطفني ويؤانسني قال لي اني أشبه الانجليز كأنه من العار علي أن اشبه المصريين..

وفي اللغة الانجليزية ما يدل على ذلك. فان لفظة Outlandish تعني في الاصل «غريب» فقط وهي الآن تدل على شيء غريب بعيد عن الذوق والكياسة

والانجليز أبعد الناس عن التفتح والمؤانسة فاذا جلس اثنان من من الفرنسيين أو الالمان معاً في غرفة وكانا غريبين لم يمض عليهما وقت طويل قبل أن يتكلما . ولكن اذا كان الجالسان انجليزيين فقد ينقضي نهار كامل دون أن يفتح احدهما فاه بحديث للآخر . لذلك يجب الا نستغرب أن يقترض الانجليز لفظة Rapprochement من الفرنسيين لكي تؤدي لهم معنى التقرب والمؤانسة الذي ينافي مزاجهم ولم توجد لمعناه لفظة في لغتهم

ومن خصال الانجليز التحفظ والامساك عن الكلام وكراهة اللغو والمترادفات والتبسط في الالفاظ . فالاسلوب الانجليزي هو بلا شك الاسلوب التلغرافي. ولذلك يجب الا نعجب من أن لفظة Voluble وهى تعنى فى الاصل التدفق فى الكلام قدصارت تعنى الآن الهذر والثرثرة .

فمن هذا البحث الصغير يتبين للقاريء ان اللغة تدل على مزاج الامة التى تتكلم بها واعظم ما يدل فيها على ذلك هو تلك الالفاظ التى لا يمكن ترجمتها لانها تكون عندئذ صورة للخصائص التي اختصت بها الامة وامتازت بها من غيرها . ومن اللغة الانجليزية نفهم ان الانجليز يحبون اللعب كثيراً كما يحبون الثبات والدأب فى العمل الذى يمارسه الانسان ويحبون الفكاهة واللطف فى المعاملة وهم ايضاً يحبون بيوتهم ويستمرئون اللحم اكثر من اي طعام آخر ويحتقرون الاجانب ويتحفظون فى الكلام أو الكتابة ويمسكون عن الاسهاب في الاداء



أظن أن الانجليز على الرغم من خصومتنا معهم وشدة أسفافهم في استغلال ضعفنا أرقى أمة موجودة الآن في العالم

وأقول هذا القول وأنا أتحفظ ببعض الشبه والشكوك. فقد يكون النروجيون أرقى أمة. ولديهم على أي حال دليل قوي من دلائل الرقي فقد جاء في احصاء مطبوعات العالم أن مؤلفاتهم في العام الاسبق أربت في العدد على مؤلفات الألمان. والالمان اكثر أمم العالم تأليفاً، وهذا على الرغم من أن عدد سكان نروج اقل من سدس عدد سكان المانيا

ولكن كثرة مدارسة الكتب ليست سوى دليل واحد من دلائل الرقي وهو مع ذلك دليل ضعيف. فاننا لانعرف ماهية هذه الكتب. وكثيراً ما يكون تأليف الكتاب دليل الغباوة. وحسبك أن تعرف ان احد اهالي دمشق الف كتاباً منذ شهرين يقول فيه بتكفير المسلمين لأنهم لا يلبسون العمائم

فلنترك اذن نروج لجهلنا بها، ولننظر ثانياً في الانجليز. فعند

هؤلاء الناس جملة صنوف من الرقي الاجتماعي . فحكوماتهم في بلادهم أرقى الحكومات في العالم . ولا تنس أن لهم فى بلادهم حكومات لا حكومة واحدة فان مجالسهم البلدية تدير الشئون الداخلية وكل منها مستقل عن الآخر . ومن هذه المجالس يشرف مجلس لندن على مصالح نحو ٧ ملايين نفس ولا تقل ميزانيته عن ميزانية الحكومة المصرية . والبرلمان الانجليزي يسيطر على هذه الحكومات ولكنه لا يمارس هذه السيطرة ولا يعارض نزعة الامة فى هـذا الاستقلال المدني . وقد يقرأ الناس اخبار حكومة فرنسا مثلا ويقرنونها الى اخبار حكومة انجلترا أو يظنون نظام كل منهما مطابقا للآخر : ولكن شتان بين الاثنين . فان باريس تحكم جميع المدن الفرنسية ، تعين لها جميع موظفيها أو أهم موظفيها . أما لندن فلا شأن لها بما تفعله لفربول . لأن فى لفربول مجلساً هو برلمان المدينة يعين شرطتها وينظم مدارسها وينظر فى صياتها ويدبر مستشفياتها وما الى ذاك . وليس للحكومة المركزية فى لندن الا الاشراف الذي لاتزيد قيمته احيانا عن تقديم النصيحة

ثم انظر الى نظام العائلة تجد انه ليس فى العالم كتلة بشرية اكثر تماسكا من هذه العائله الانجليزية . وحسبك ان زوجين أرادا الطلاق من مدة قريبة فى انجلترا فلم يجدا ما يسوغان به هـذا الطلب امام القاضي إلا بان ادعى كل منهما بأن الآخر قد ارتكب جريمة الزنا وقدم كل منهما خطابات مزورة تدل على صحة هذه التهمة

ويمكنك أن تتداول سائر الشئون الاجتماعية في انجلترا أو تقابلها بما يماثلها عند الامم الاخرى تجد تفوق الانجليز أو على الاقل عدم انحطاطهم عن غيرهم فيها

ولكن هذه الشؤون الاجتماعية كلها لاتصح مقياساً للرقي فان مجال الشك فيها واسع . فاننا للآن لا نعرف ما هو اصلح نظام للعائلة وما هو أنفع نظام للحكومة أو للهيئة الاجتماعية . فقد تكون الاشتراكية أرقى من النظم الراهنة . بل هؤلاء الروس يقولون أن الشيوعية أفضل الانظمة . وليس عندنا ما يدل أيضاً على أن تماسك العائلة وعدم تيسير الطلاق أنفع للناس من ترخيص الطلاق

والحقيقة أن علم الاجتماع لا يزال علماً ناقصاً بل هو ليس علماً للآن . فانه لا يزال كثير الاشتباك بالتقاليد الدينية والتاريخية والحكومية بحيث لا يمكن التبسط في شرح احدى نظرياته دون أن تمتد يد القانون وتمنع البحث الطليق . وحسبك أن تعرف أننا لسنا مطلقين في أن نتكلم عن فوائد الشيوعية أو ضررها فأن حكومتنا تمنعنا من ذلك . ولسنا أيضا أحراراً في الكلام عن ضرر التزوج بأربع أو فائدته فان التقاليد الدينية تمنعنا من ذلك . وهلم جرا

ولو كان الناس يتحرجون من البحث في علم الكيمياء أو الطب أو الهندسة مثلما يتحرجون الآن من الكلام في علم الاجتماع لما تقدمت هذه العلوم

فلنترك اذن الشئون الاجتماعية ولننظر فى معيار آخر نعاير به تفوق الانجليز

وأصدق هذه المعايير هو ما ينطبق على شخص الانجليزي بالذات من حيث الجسم والعقل والخلق . ولنذكر انه اذا كان ثم نتيجة حسنة لأي نظام اجتماعي كائنا ما كان فانما تكون هذه النتيجة في الجسم والعقل والخلق . فان بين الحيوان ماهو أصدق اخلاصاً لنظام العائلة منا كما هو الحال بين الحمام . وما هو اقوى في الروح الاجتماعية منا كما هو الحال بين بعض الغزلان . ولكن ليس بينهما ما يفوقنا في العقل أو الخلق أو الجسم

فهل يفوق الانجليزي سائر البشر في هذه الاشياء ؟

لست أشك في ان الخلق الانجليزي يمتاز عن سائر الاخلاق بالثبات في العمل والدأب في بلوغ القصد وحكم الشهوات والتبصر للمستقبل . وكل هذه صفات قد اشتهرت عن الانجليز وهي دليل الاعصاب المتينة . وأساس الاخلاق هو الاعصاب . فاذا قلنا مثلا ان هذا الشخص أو ذاك يثبت في عمله عنينا بذلك أن اعصابه لا تتعب بسرعة بل تتحمل المداومة على الشغل والدأب فيه . واذا قلنا أن هـذا الرجل اهوائي كثير التقلب عنينا بذلك انه ضعيف الاعصاب لا يقوى على تحمل سأم العمل على وتيرة واحدة . وهلم جراً

أما من حيث العقل فقد يفوق الألمانى الانجليزي وقد لا يفوقه ولنذكر أن الانجليز المان أو هم فرع من الجيل الالماني . بل قد

يكونون « جرمانا » اكثر من الالمان فان هؤلاء قد تسرب اليهم دم اسيوي كثير كما هو ظاهر في كثرة ما يرى عندهم من الرؤوس المستديرة المغولية الاصل

أما من حيث الجسم فاننا يمكننا أن نعاير تفوقه بثلاثة اشياء وهي الجمال والصحة والقامة . ولنذكر أولا أن الانجليز اقل الامم في البطون المستكرشة وهم اكره ما يكونون للسمن . وهم أن لم يكونوا اطول الامم قامة فهم من اطولهم واضمرهم بطنا . أما من حيث الجمال فلست اعرف نساء يشبهن في جلال الطلعة وأن لم يكن في الفتنة نساء الانجليز من الطبقة الراقيـة . أما من حيث جمال الوجه والقامة في الرجال فيكفي شهادة على جمال الانجليز أن الخياطين في جميع البـلدان صاروا يقيسون على غرارهم ويرسمون صورهم في نماذج التفصيل

ولو اتبعت غريزتي وبصيرتي لقلت أن عناية الانجليز باجسامهم من اكبر الادلة على رقيهم . فهم اكثر الامم رياضة واستحماما وتنزها . وهم أيضاً من اكثر الامم سياحة وضربا في الارض . فهم بذلك اميل الناس الى اكتساب التجارب . والتجارب هي في النهاية الربح الحقيقي لكل انسان في هـذا العالم وقد صدق نيتشه عندما قال : « كل مالا يقتلني يقويني » ومعنى ذلك بعبارة اخرى أن جميع التجارب مفيدة ما دامت لا تؤذينا اذى يقضي علينا

وميزة اخرى في المزاج الانجليزي هي دليل شيء من التفوق في الاعصاب أو العقل أو اي شيء آخر هي ما نجده من ميله الدائم

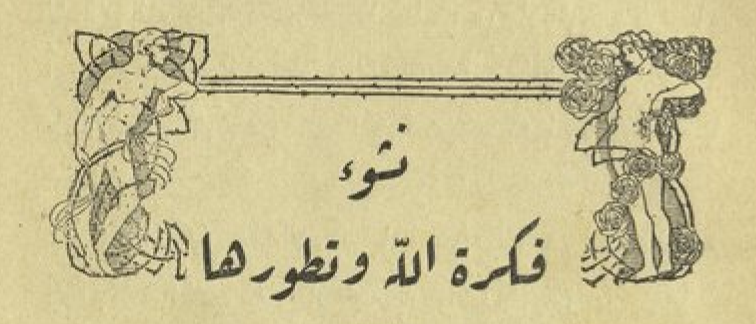
الى الاعتدال والبعد عن الغلو والاسراف فهو دائم التحفظ والاقتصاد. وهو في ذلك يشبه الاغريق القدماء الذين كانوا يتجنبون الغلو

وبعد فقد جالت برأسي هذه الخواطر وانا اقرأ اعلانا في التيمس لاحدى الشركات الانجليزية تطلب فيه: «رجلا انجليزيا طرازيا» أي يعتبر مثالا لهيئة الانجليز. واشترطت فيه أن يكون: «شابا طوالا خفيف اللون» وذلك لكي تستخدمه بتصويره في اعلاناتها المختلفة.

وقد اذكرني هذا الاعلان اعلانا آخر قرأته مدة الحرب لسيدة أيم انجليزية تطلب فيه رجلا انجليزيا طوالا لكي يتزوجها

فالانجليز مثل الاغريق القدماء يطلبون الجمال والصحة ويجهرون بهذا الطلب. وهم لو لم تكن هاتان الصفتان فيهم لصارتا فيهم لانهم يطلبونهما. ومن نشد شيئاً وداوم في طلبه لم يلبث أن يحققه





نشوء فكرة الله وتطورها

رسالة تحتوي على خلاصة كتاب لجرانت الين الكاتب الانجليزي المشهور عن نشوء الاعتقاد بالله وترقي الانسان من الوثنية الى التوحيد الحاضر، مع بيان أصول المسيحية ونشوئها.

نشرت لاول مرة على حدة سنة ١٩١٤

ويحسن بالقاري، ان يقابلها بالمقال المنشور في صفحة ٢٣ بعنوان «مصر اصل حضارة العالم» تصحيحاً لبعض اوهام وقع فيها المؤلف، وخاصة في كلامه عن اصل الزراعة

١ — المسيحية كمقياس ديني

اذا أخذنا المسيحية كنموذج للاديان واعتبرنا نشوءها وجدنا أن كل ما فيها من العقائد والشعائر مأخوذ من الاديان السابقة لها التي كانت منتشرة عند ظهورها . فاله المسيحية — المسيح — كان بشراً كما كانت كل الالهة القديمة عند أول ظهورها . وقد اعتبره المسيحيون الاولون ابناً لأله تنزيها له عن الانسانية كما فعل اليونانيون مع الاسكندر المقدوني. ثم نجد في المسيحية ما يسمى «بالثالوث الاقدس» وهو عبارة عن ادماج ثلاثة آلهة وهم الاب والابن والروح القدس في اله واحد . وهذا على مثال ما كان يعتقد المصريون في الثالوث الالهي المكون من أوزيريس وايسيس وهورس . والمسيحيون يعتقدون أن أم المسيح عذراء . ولا بد أن هذا الاعتقاد قد تسلسل من الاعتقاد المصري القديم الذي كان قائماً على اعتقاد البكارة في ايسيس أم هورس . وكذلك ترى اذا بحثت عن الاصل في رموز المسيحية كالصليب والقبر والكنيسة والهيكل انها مأخوذة من الاديان المصرية القديمة . كما أن نظام القربان والكهانة مأخوذ منها أيضاً

٢ — الاديان والاساطير

الدين عبارة عن الاعتقاد بقوة خارقة لنواميس الطبيعة يحترمها الانسان ويعبدها

وأبسط أشكال الديانات الحاضرة عند المتوحشين لا تحتوي على اكثر من بعض شعائر يقصد بها احترام اشخاص الموتى . فهم لا يميزون بين روح الميت وبين الله الخالق بل يعبرون عن الاثنين بكلمة واحدة . فبعض قبائل الكومبامة في افريقيا يعبدون روح الميت في موضع بالمحل الذي كان يقيم فيه صاحب الروح قبل موته . واذا كان الميت عظيما اعتقدوا أن روحه سكنت جبلاً أو سحابة حتى اذا مرت بهم عبدوه واستمطروه . وهم يترضون الروح بقربان يقدمونه على قبره . ومن هنا تعرف اصل القربان وأصل الصلاة . فالقربان يقدم اعتقاداً بأن الروح تجوع وتطلب طعاماً ، والصلاة تقدم استجلاباً للامطار أو استنصاراً للآلهة على الاعداء . وقد قيل أن الاديان نبتت من الاساطير — أي مجموعة الخرافات التي تتجمع عادة حول كل دين . ولكن هذا خطأ . لأن الاساطير مجرد قصص مبالغ فيها وحكايات حكيت عن الاشخاص الذين ماتوا وعبدت ارواحهم وهي ليست أصيلة ولا هي لازمة في الدين . لأن الفرد من هذه القبيلة التي ذكرناها قد يعبد أباه ولا ينسب اليه اعمالا خارقة للعادة يتعلل بها في عبادته لروحه ، بل يعبده لمجرد موته ليس الا . وقد يشتهر شخص في حياته بفروسيته وشجاعته فاذا مات لم تقتصر عبادتهُ على عائلته بل تمتد الى كل افراد القبيلة ويعتبرون روحه بذلك رئيسة للارواح الاخرى

هذا هو اصل الاديان كلها : يعبد الانسان أباه أو جده المتوفي

ويترضاه بالادعية (الصلاة) والطعام (القربان) فاذا اشتهر ميت عبدته القبيلة كلها وصار إلهاً عمومياً . وما الاساطير التي تتجمع حول اسمه وتحكي عنه الا اعمال كبيرة قام بها في حياته وكبرتها المخيلة في الانسان فبالغ في حكايتها . والانسان ميال بطبيعته للمبالغة حباً في اتيان الغريب الخارق للعادة لما في ذلك من تمييز القاص على أقرانه . واذا تدوولت هذه الاساطير وكثرت حفظها الحفاظ واحترفوها وصاروا بذلك كهنة الدين وأئمته وصارت الاساطير كتب الدين

٣ — حياة الموتى

كثيرون من المتوحشين لا ينظرون الى الموت كأنه حالة طبيعية لابد من حصولها للانسان . والسبب في ذلك أن الموت الطبيعي لا يكاد يوجد عندهم . فانهم أكثر مايموتون قتلاً أو جوعاً أوعطشاً أوترديًا أو غير ذلك ولهذا السبب تجدهم ينسبون الموت الذي لا يمكنهم تعليله بما ذكرناه للقوى السحرية المجهولة . وكثيرون منهم أيضاً لا يميزون بين الموت الصحيح والاغماء الوقتي . فاذا ما غاب احدهم عن الحس وانقطع نَفَسه استرضوا روحه بالرقى وبالادعية ورغبوها في الرجوع . وقد يعود الشخص المغمي عليه الى الحياة فيلحظون من ذلك أن الروح والجسم شيئان منفصلان . ولما كان النَفَس ينقطع في حالتي الاغماء والموت صار النَفَس بمعنى النفْس عندهم كما كان عند اكثر الامم كالعرب واليونان

فاذا مات أحدهم أعتقدوا أن روحه سترجع اليه حتما واجتهدوا في حفظ جسمه بالتحنيط وتقديم الطعام اليه. ومما ساعدهم على الاعتقاد بحياة الموتى كثرة الاحلام التي يرون فيها أشخاص الموتى. فان أسهل تفسير وأقرب لهذه المظاهر الطبيعية هوطبعاً الاعتقاد بوجود روح حية تجول بين أصدقاء الشخص المتوفى الذي كانت تسكن جسمه في حياته وقد أنفصلت عنه في مماته

هذا هو أصل الاعتقاد بوجود الارواح . فان الانسان الاول ظن أنه كما ينقطع نفَس الانسان وقت الاغماء ثم يعود اليه عند الافاقة، كذلك تعود النفْس الى الجسم بعد الموت [1] . وهـذا هو البعث . وما كان تقديم الطعام للميت وتقديم البسته وأسلحته اليه الا لتهيئته لاستقبال الروح. ولم تنشأ عادة احراق الموتى الا بعد أن ارتقى الانسان من فكرة البعث الى فكرة خلود الروح مستقلة عن الجسد منفصلة عنه انفصالاً تاما لا يؤثر فيها البتة احراق الجسم

وقد نشأت عادة الاحراق هذه من الخوف من الموتى ورجوع أرواحهم الى الاحياء لمعاكستهم والاضرار بهم . وقد يرى القاريء تناقضاً بين عادة احراق الموتى خوفاً منهم وتقديم الطعام اليهم حباً فيهم . وسنبين في فصل تال السبب في هذا التناقض غير انا نثبت الان حقيقة الخوف من أشخاص الموتى وأرواحهم بدليل القيود التي

---

(١) يجب ان نلاحظ العلاقه بين الروح والريح ، والنسمة والنسيم، والنفْس والنفَس، فنعرف من ذلك أن الروح أرتقت من الشيء المحسوس الى وهم متخيل

يقيد بها الشخص عند موته أو بتر اعضائه أو دفنه تحت ركامات الاحجار حتى لا يقوى على التحرك . وهي عادات فاشية الان بين المتوحشين،والحرق وسيلة راقية من وسائل تعجيز الميت عن معاكسة الاحياء . وقد أدت عادة احراق الموتى الى اعتقاد انفصال الروح عن الجسم انفصالا تاماً . وتكوّن في مخيلة الانسان ما يسمى « بالعالم » الثاني الروحي الخيالي . واصبح الناس بتوالي الزمن وتقدم الفكر يعتقدون أن الحرق يسهل للروح الخروج من الجسد والانطلاق منه كأنها كانت مقيدة بهِ في حياته . وقد أدت عادة الحرق هذه أيضاً الى توهم الروح جسما اثيريا خيالياً ، حتى انهم كانوا يحرقون مملوكات المتوفى اعتقاداً بأن الروح لا تحتاج في عالمها الثاني الخيالي الى مادة ما

٤ — أصل الالهة

قد رأينا أن متوحشي افريقيا يعبدون موتاهم ، وأن القبيلة كلها تعبد رئيس القبيلة كأنه رئيس الموتى ، كما أن ابنه الحي رئيس الاحياء . وما زال الصينيون يعبدون اسلافهم الى الآن ولايعترفون بوجود خالق ما غيرهم . وقد كان الانسان في البدء يعبد الجسم الميت ذاته لعدم استطاعته معرفة ما اذا كان ميتاً أو حياًمغمى عليه. ثم ارتقى من ذلك الى أن الموت اغماء طويل ، فعبد الروح . وقد ساعد على جعل الروح إلهاً ثلاثة أشياء

أولا : المعابد ، وهي في الاصل القبر حيث كان يقدم الطعام

ثانياً : الاصنام ، وهي في الاصل ذات الشخص المتوفي المحنط . ثم لما كان تحنيط الجسم كله صعباً صاروا يستخرجون أحشاء الانسان ويحشون جوفه بالجوامد التي لا تتعفن كما كانوا يضعون خرزاً وحجارة في مواضع العين حتى يحفظوا صورة الوجه . ثم لما وجدوا أن التحنيط لا يحفظ الجسم تماماً صاروا يرسمون صورة المتوفي على غطاء التابوت أو ينحتون صنما على مثال الميت . وليس أسهل من أن يصير الصنم الخصوصي صنما عمومياً

ثالثا : الكهنة ، وهي الطائفة التي تعيش بخدمة الدين . وهي في الاصل رئيس القبيلة نفسه — وهو ابن الروح الأله ، وجملة الخدم الذين يقدمون القربان الى الروح عند القبر أي المعبد

٥ — الاحجار المقدسة

لم يجر الأنسان الأول المتوحش على اصول المنطق في اختيار عقائده . فأنما هي فكرة خطرت بعمل ما فصارت عادة وتلتها فكرة أخرى في عصر آخر وناقضتها . فلم يرفض عادته القديمة ويتبع الجديدة لأن تلك كان قد أعارها الزمن والتكرار ثوب القداسة وأصبح من الصعب انتزاعها منه مع مناقضتها لافكاره الحاضرة

كان الانسان الاول يعبد شخص الميت ويقدم له الطعام وربما

حفظه في بيته ليتعبده . ولكنه حينما تقدم وميز بين الجسم والروح ظهرت أمامه أشخاص الموتى بهيئة غريبة مخيفة تستطيع أن تحيا في الليل وتقلق باله وتعاكسه . فاحتفر القبور يحبسها فيها وقيدها أو بتر أعضاءها . ولكنه لم ينكف عن تقديم القربان للروح وعبادتها لأن الزمن كان قد قدس هذه العادة عنده

فأصبح يقدم الطعام على القبر. والقبر في ذلك الوقت كومة أحجار مركومة فوق الجثة. وليس من البعيد عن المنطق عند الرجل الذي شب وهو يرى أمه تضع المأكولات على الاحجار أن يقدس هذه الاحجار أيضاً وأن يعتقد ان الروح موجودة بها . فمن هنا نشأت عادة تقديس الاحجار . وقد قلنا قبلاً ان الاصنام نشأت من تحنيط الشخص الميت أوتصويره ونقول الآن انها قد تنشأ أيضاً من أحجار القبر ، فأن الذي يقدم الطعام للحجر يتصور له طبعاً جسماً وبالتالي فماً يأكل به . وعلى هذه الطريقة تنحت الأصنام وترتقي . وقد كان اليونانيون في بدء تاريخهم يعبدون أحجاراً مشوهة لا شكل لها ارتقت الى أصنام جميلة بتقادم الزمن .وقد كان «مناة واللات» حجرين يعبدهما العرب، كما كان « بعل » صنم الفينيقيين حجراً. وقد كان تقديس حجر الكعبة شديداً عند العرب قبل الاسلام « حتى ان النبي زعيم التوحيد اضطر أن يدخله في الدين »

ولما خرج اليهود من مصر حملوا معهم حجراً كانوا يعتقدون

قداسته وانه منجيهم من المصريين وهو أصل فكرة الهم ، فأنهم بارتقائهم جردوا هذا الحجر من مادته واعتبروه خالقاً للعالم كله

٦ ، ٧ — تقديس الاشياء الاخرى

لم يقدس الانسان الاحجار فقط بل قدس أشياء أخرى أيضاً بجانبها كالاشجار والآبار والبحيرات . وكيفية تقديسه لها جرى على مثال تقديسه للاحجار ، فأذا ما عبد شجرة القبر مرة كبر في عينه اعتبار الاشجار الأخرى وقدس بعضها وكذا يفعل في الاشياء الاخرى . وقد كانت العرب تعبد « العزى » وهي ثلاث نخلات

٨ — آلهة مصر

قد استخلصنا في ما سبق من الفصول جملة نظريات عن نشوء الاديان عموماً . ولنأخذ مثالا عن صحة نظرياتنا بتطبيقها على الديانة المصرية . فاننا نرى أن الموميات — أجسام الاموات المحنطة ، كانت أول معبودات المصريين . ولم يكن للأمة آله عمومي تتحد على عبادته بل كان لكل قرية آله خاص أو ربة خاصة يعبدهما سكان القرية مستقلين في عبادتهما عن القرى المجاورة لهم . ونرى أيضاً أن الاصنام نشأت اولاً على مثال الموميات التي كانت توضع معها في تابوت واحد أي كانت خصوصية في بدء اصطناعها لا يقدسها غير أهل الميت ، ثم عم تقديسها بعد ذلك . ونجد أيضاً انهم صنعوا الاصنام على مثال

المومیات لـكي لا تضل الروح اذا أرادت أن تتجسد ووجدت ان الجسم قد طرأ عليه طارىء وأفسده رغم تحنيطه . ونجد ايضاً ان الـكاهن كان في أصل نشوئه خادماً يخدم على قبر الميت،وقد وجد النقابون بعـد الفي سنة من موت الملك خوفو رجلاً كانت مهنته الخدمة على قبر خوفو وكان يعيش بوقف أسسه هذا الملك منذ الفي سنة وتوارثته عائلة هذا الكاهن أباً عن جد . وانا لنستدل على سبق عبادة أرواح الاسلاف لعبادة الآلهة بندرة ذكر الآلهة وخموله في العصور الاولى ، ثم اشتهاره وعظم أهميته في العصور المتأخرة . واذا بحثنا أيضاً عن أصل الإله أوزيريس وهو أشهر آلهة مصر نجد انه كان في أول نشوئه الهـاً صغيراً محلياً في ابيدوس (العرابة) نرجح انهُ كان جداً من جدود حاكمها فلما نبغ من هـذه المدينة مينا أول ملوك مصر وضم امارات مصر المتفرقة الى ملك واحد عمم طبعاً عبادة اله مدينته الخصوصي.وقد قال فلوطرخس المؤرخ ان قبر اوزيريس يري في ابيدوس . ومن هذا يفهم أن الاله العظيم لم يكن في أصله الا شخصاً كبيراً ربما كان اميراً على ابيدوس في وقت ما،فلما توفي عبد روحه كل سكان امارته وعمت بعد ذلك هذه العبادة في جميع انحاء القطر المصري

٩ — آلهة بني اسرائيل

كان اليهود قبل أن يصلوا الى التوحيد يعبدون اصناماً أي تماثيل

موتاهم. فكان لكل اسرة صنم صغير هو في الاصل صورة فقيد من الاسرة منحوت على حجر صغير كانوا يتبركون به ويقدسونه . ولم تتلاش هذه العادة الا مؤخراً عند تغلب التوحيد

وكانوا يعبدون الاحجار كما كان يفعل العرب . وقد بينا السبب في عبادة الاحجار . ونقول الآن أن بعض هذه الاحجار كان ينحت على هيئة اسطوانة مخروطة القمة كالمسلات اذا كان المدفون رجلا ، أو على هيئة الأثداء اذا كان الشخص المدفون امرأة .اي ان الاحجار كانت توضع فى الاصل لتعريف الميت اذا كان ذكراً أو انثى وكان يرمز للذكر بما يشبه عضو التذكير

فلما اكتسبت الاحجار سمة القداسة انتشرت هذه الاساطين وصار ينسب اليها القدرة على ايجاد النسل للمرأة العاقر . فكان يضحى ويصلى لها . وقد كان عند اليهود كثير من هذه الاحجار ولم يكن الرب « بعل » الا حجراً من هذه الاحجار آلهة اليهود (ولعل معنى الزواج العربي الذي في هذه الكلمة مأخوذ من هذا المعنى العبراني القديم)

ولنقل الان أن التوراة قد اقرت بوجود هذه الاحجار كما اقرت ايضاً ابحاث النقابين . ونريد أن نبين الان أن إله العبرانيين « يهوه » الذي تغلب على كل الآلهة المعاصرة له وانفرد بالالوهية دونها لم يكن في الحقيقة الا حجراً من هذه الاحجار أي اسطوانة ترمز الى الذكورة كان يراد بها الدلالة على جنس الشخص المتوفى، ثم تم تقديسها عند

اليهود . والدليل على ذلك أن انبياء التوراة الذين ارادوا أن يجردوا «يهوه» من كل مادة لم يتمالكوا من أن ينسبوا اليه بعض اشياء نمت على اصله . من ذلك انهم كانوا يصفونهُ بأنه «الصخرة القوية» وكانوا ينسبون اليه قوة ايجاد النسل للعواقر ، وكادوا لا ينسبون اليهِ قوة أخرى . وفي الضحية التي كان اليهود يقدمونها له — وهي الولد البكر — دلالة على وظيفته ، كأنهم كانوا يقولون : «بما أنه المنعم علينا باولادنا وفي يده حرماننا من النسل فانه يجب أن نضحي له بيكرنا» وقد استعاضوا عن هذه الضحية فيما بعد بقطع قلفة الذكر وطرحها اليهِ وهو عمل جدير بالالتفات للمعاني الملتفة حوله . وقد ضاعت دلالة هذه العادة الآن وصار الاب «يختن» ابنهِ لغرض صحي أو ديني مجهول . ويهوه اسم من اسماء الله الذي عبده المسيحيون فيما بعد كما سنبين وهو ايضاً الحجر الذي خرج اليهود بهِ من مصر

١٠ — ظهور التوحيد

كان الاسرائيليون يعبدون جملة آلهة لم يكن يهوه الا واحداً منها . وسنبحث في هذا الفصل عن الاسباب التي دعت الى افراد يهوه بالالوهية دون بقية الآلهة وكيفية نشوئه من الاسطوانة الحجرية الحقيرة الى الاله الاثيري العظيم المتجرد من كل صفة مادية

من سمات العقل السامي خلطهُ في مميزات الالهة وصفاتها واشراك الواحد في صفات الآخر . والباحث عن الالهة المصرية يصعب عليه

جداً التمييز بين الالهة وتحديد كل واحد منها في حدود مخصوصة . مثال ذلك انها كلها قد اكتسبت بتقادم العهد صفة « را » أي الشمس المؤلهة . فكانت الآلهة المصرية كلها تتصف بانها مبعث النور مع أن هذه الصفة كانت تقتصر على « را » فقط . وقد يكون هذا الخلط هو السبب في الاهتداء الى الاعتقاد باله واحد، لأن الآلهة اذا تساوت في الصفات وضاعت مميزات الواحد عن الآخر فنيت شخصياتها بعضها في بعض وأصبحت إلهاً واحداً كثير الاسماء عديد الصفات

واذا بحثنا عن الادوار التي ترقى فيها « يهوه » إله اليهود نجد أنه كان في الاصل اسطوانة ترمز الى الذكورة ثم صار عجلاً وبعد ذلك استغنى اليهود عن العجل وأبقوا القرون . وما زالوا يرسمون القرون على الهيا كل الى ما بعد التوحيد . ثم اكتسب يهوه صفات الشمس وكان اليهود يعبدون معهُ سبعة آلهة أخري هي السيارات السبعة . فلما انتهوا الى التوحيد أفردوه بالالوهية وجعلوا السنة مقسمة الى اسابيع كل أسبوع منها سبعة أيام مسماة على اسماء السيارات . وقد كانوا لا يشتغلون يوم السبت خوفاً من غضب أحد الالهة ، فلما تسيطر يهوه على الآلهة واستأثر بالسلطة صاروا « يستريحون » في ذلك اليوم مجاراة ليهوه الذي استراح فيه من خلق الدنيا

وهناك ثلاثة أسباب ساعدت يهوه على التفرد بالالوهية والخروج من الحالة المادية الى الحالة الروحية

السبب الاول هو أهمية وظيفته الاصلية للامة اليهودية وعلو منزلته بذلك في عيون اليهود . نريد بهذه الوظيفة تكثير النسل وتنميته ، وهو عمل عظيم لامة صغيرة كاليهود محفوفة من كل جانب باعداء أقوياء ينتقصون منها عدد رجالها في حروبهم المتتالية . فان اعظم نعمة ينعم بها اله على أمتهِ في مثل هذه الظروف هي زيادة نسلهم

والسبب الثاني هو غيرة يهوه من كل اله آخر حتى أنه حتم في الوصايا العشر عدم عبادة أي آله آخر امامه أو معهُ، وهذه صفة امتاز بها عن أقرانه الألهة . فطفق عبدته يتحاشون ذكر الآلهة الاخرى ويعتقدون بخطيئة من يعبد سواه

السبب الثالث هو كراهة الساميين الغريزية للاعمال الفنية لانهم خياليون بطبعهم يميلون لتصور الاشياء بخيالهم لا لتحقيقها بأيديهم . فهم يكرهون بطبعهم عمل التماثيل واذا صنعوها لم يكن صنعهم لها فنياً جميلا يستهوي القلوب ويستوقف الانظار كتماثيل اليونان . ولما اغار البابليون على أورشليم ودكوا هيكل يهوه وكسروا تمثاله صار اليهود يعبدونهُ الهاً مجرداً من كل مادة

١١ — الانسان المؤله

كثير من القبائل والأمم كقبائل أفريقيا وأمة الصين يعتبرون رئيس قبيلتهم أوملكهم إلهاً مقدساً قادراً على أتيان المعجزات . وتأليه الانسان انما يبني على اعتقاد حلول روح ما من الارواح الخيالية-

في جسم الشخص المؤله . اي أن الروح تهبط وتتجسد في ذلك الجسم وتتسيطر عليه بعد ما تفقده شخصيته الاولى و يصبح آلة في يدها تفعل ما تشاء بهِ . وأصل هـذا الاعتقاد هو غالبا مظاهر الصرع والجنون والاحلام . فان الاشخاص الذين يصابون بهذه العوارض يظهرون امام أهلهم وقبيلتهم كانهم « سكنوا » بروح غريبة أي تجسدت بجسدهم روح هي غير روحهم الاصلية . وما زال بعض العوام في مصر يتبرك بالابله و ينظر لهذيانه كأنه وحي وولاية . أي أنهم يعتقدون بلهه آتيا عن حلول روح في جسمه يجب استرضاءها . والملك أو رئيس القبيلة البق الناس بالتأله لأن أسلافه أرباب القبيلة، وابن الاله إله بالطبع . ومن هنا كانت ملوك مصر ، وما زال ملوك اليابان والصين ، الهة تقدس وتعبد

على ان هناك امراً غريباً قد يلقي القارىء في حيرة لاول وهلة . نريد به قتل الآلهة . فان كثيرين من القبائل بل الامم كانت في قديم الزمان وما زالت تقتل الاله الذي تعبـده وتسترضيه طول حياته بل تقدسه بعد قتله . والسبب في ذلك خوف عبدته من حلول الشيخوخة بمعبودهم لان للشيخوخة نقائص لا تتفق مع عظمة الالوهيـة . وأين الفم الادرد واللعاب السائل والصوت الخافت واليد الراجفة وا كوثداد الشيخوخة مما ينتظر من إله قوي قادر على محق العالم ودك الجبـال وتسيير السحب ؟ فالقبيلة تقتل إلهها تبجيلا لمركزه ورفعة لمقامه فهي تحدد لمن تختاره إلهاً عمراً — خمس عشرة او اثنتي عشر سنة ـ تقتله

عند نهايته تلافياً لظهور آثار الكبر أو انبثاق غرائز الشبوبية .على أن بعض القبائل بتقدمها استنكرت قتل الملك واستعاضت عن ذلك بقتل أحد المجرمين أو بحرق صورته أو بادماء الملك لنفسه . كذا كان يفعل أتيس الملك والكاهن معاً على مملكة فرجيا كما كانت تحرق صورة أدونيس الملك المؤله . وهاتان العادتان كانتا شائعتين وقت ظهور المسيحية

١٢ – اصطناع الآلهة

قد رأينا مبلغ اعتقاد المتوحشين في قوة الارواح وحقيقة العالم الثاني عندهم لدرجة ان رئيس القبيلة فيهم قد يأتي بشخص ما ويقص عليه قصة ثم يخبره بأن يبلغها والده أو لغيره المتوفى. وكيفية هذا التبليغ تكون دائماً بقتل الشخص المبلغ. ومنطق هذا العمل عندهم ان الروح مقيدة بالجسد فاذا قتل الشخص انفكت روحه وانطلقت الى الارواح الأخرى وبلغتها القصة التي اخبرها بها رئيس القبيلة

ومن هنا نشأ اصطناع الآلهة . فقد رأينا ان الاله يكون في الاصل روح رجل عظيم – ملك أو رئيس أو أمير – مات وأصبحت روحه بذلك إلهاً . فاذا أرادت القبيلة تأسيس مدينة أو بناء سور لم تنتظر موت عظيم وتستحمي روحه هذه المدينة أو ذاك السور بل هي تقتل على الفور رجلاً عظيماً لتكون المدينة في كنف روحه ورعايتها. وهذه العادة هي منشأ عادة قتل البشر تحت اسس البيوت وغيرها

من المباني العظيمة . فأن الغرض الاصلى منها كان ايجاد روح – إله – لكي يعبده سكان القرية المستجدة ،ولكن بتقادم الزمن تنوسي هذا الغرض وصاروا يقتلون الاشخاص على الاسس ، حتى بعد انقراض الوثنية وظهور التوحيد

وقد كانت عادة قتل الاشخاص لفك أرواحها شائعة شيوعاً عظيماً في الزمن القديم ، وما زالت شائعة بين المتوحشين فان بعض القبائل في غرب افريقيا يقتلون جملة اشخاص عند بدء القتال ليستنصروا أرواح هذه الاشخاص – التي صارت آلهة – على الاعداء . وكانوا عند بناء سفينة يسفكون دما بشريا عليها ، وما زال أثر هذه العادة باقياً عند الانجليز الذين يسكبون كمية من النبيذ على السفينة قبل انزالها الى البحر . والنبيذ عند النصارى في الكنائس رمز الى الدم

١٣ – آلهة الزراعة

نرانا مضطرين هنا الى الاستطراد الى أصل الزراعة مطلقاً ، لان المتوحش الذي كان يعيش بصيد الاسماك والحيوانات واجتناء الاثمار البرية يصعب عليه جداً أن يعرف أن البذور تنتج الشجيرات والمحاصيل كما نعرف نحن الآن . لان الاعتقاد بان حبة القمح تنبت الى سنبلة هو فى قياسة تماماً كالاعتقاد بنبت حمار من ذنبه

لهذا نظن أن المتوحش اهتدى الى الزراعة بواسطة القبور ومن

هنا نشأت أيضا آلهة الزراعة . فقد رأينا ان المتوحش يدفن مع الميت طعاماً كالذى كان يأ كلهُ في حياته . كاللحم والحبوب والاثمار . وعملية الحفر التي يحتاجها الدفن تفتت التربة وبالتالي تهيئها لنبت البذور

فاذا ما دفن الميت اليوم لا تمضي عدة أيام حتى يرى أهله ان الزرع قد جلل قبره . فيعللون ذلك بأن روحهُ قد رضت عنهم بما قدموه لها من الطعام وكافأتهم بهذه النباتات . ولا يغب عن القارى ان هذه النباتات تنمو قوية فوق القبر — أقوى من نباتات نوعها التي في الغابة — لان لحم الميت وطعامهِ يصيران سماداً لها كما ان تفتيت التربة عند الحفر يزيل الاعشاب القديمة ويسهل تغذية النباتات

لا نعجب بعد ذلك أن نرى المتوحش يعتقد في أن نبات القبر ليس الا معجزة من معجزات روح الميت . فالمزرعة هي في الحقيقة مقبرة . ولهذا السبب ما زال بعض قبائل أمريكا الجنوبية الوطنيين يقتلون شخصاً عند وقت بذر التقاوي . لانهم بذلك يفكون روحه من جسمهِ لتكون إلهاً ينمي الزرع . وقد رأينا منطق هذا العمل في الفصل السابق حيث كان يقتل شخص عند بناء قرية جديدة لكي تكون روحه ربة القرية تحرسها وتبيد أعدائها

فالانسان اهتدى الى الزراعة بواسطة الحبوب التي كان يضعها مع الميت اعتقاداً بانهُ سيأ كلها ، ونشأت آلهة الزراعة من اعتقاد ان

روح الميت هي التي أخرجت الزرع وصار بالتالي ضروري لكل زرع من روح لكي تنبته . وهذه القبيلة التي ذكرناها في جنوب أمريكا اذا قتلت شخصاً عند بذر البذور قطعت جسمه نسائر وأعطت كل مزارع قطعة لكي يدفنها في أرضه وبذلك يضمن مجيء الروح الى مزرعته وانماء زرعها . ولعل حفلة « تبريك الحقول » التي يقوم بها القساوسة في فرنسا حاملين « البرشانة » بين الحقول، بقية أثرية من بقايا تلك العادة القديمة لان البرشانة تمثل عند الكاثوليك جسد المسيح . وقد كان المصريون يذبحون شخصاً أشقر كل سنة لانماء محاصيلهم وكان غيرهم كالرومان يستعيضون عن ذبح البشر بذبح الحيوانات كالقطط وغيرها لهذا الغرض عينه أيضاً . وترى هذه العادة ممسوخة في بعض البلاد الاوربية حيث يستعيضون الان من الذبيحة البشرية أو الحيوانية صورة بشرية يمزقونها ويفرقون أجزاءها بعد أن يزفوها في مهرجان بين الحقول

١٤ — آلهة النبيذ والغلال

رأينا في الفصل السابق أن بعض القبائل كانت وما زالت تذبح شخصاً أو حيوانا عند وقت بذر البذور من كل عام . والسبب في تكرار هذا العمل سنويا هو اعتقادهم أن روح الذبيحة تتجسد في الزرع وتُبعث في المحاصيل فاذا حصد الزارع زرعه من الارض اعتقد أنهُ اقتلع الروح أيضاً من الارض مع الزرع . فهو لذلك يذبح ذبيحة أخرى

عند بذر البذور الثانية لكي تقوم روحها مقام الروح السابقة وتنمي المحصول الجديد

وقد يكون بين هذه الذبائح البشرية من كان شخصه ومركزه عظيمين في حياته — وكلما كبر مقام شخص في الدنيا كبر مقامه في العالم الآخر — فتعتبر روحه في مركز أعلى من مراكز الارواح الاخرى وربما ألهوها وخلدوا ذكرها بخلاف الارواح الاخرى التي لا يزيد عمرها عن عام واحد ، أي مدة نضج المحصول فقط . ومن هنا نشأت الالهة : ديونيس واتيس وأدونيس

وقد كانت الذبائح تقدم لهذه الآلهة سنويا اعتباراً بأنها — الآلهة — تتجسد في الذبيحة وتصير هي والذبيحة كائناً واحداً ، فيأخذ كل من المزارعين قطعة من الذبيحة معتقداً أنها جزء من جسد الآلهة يدفنه في مزرعته لكي ينمي زرعه ولهذا السبب كانت الضحية التي تقدم لهذه الآلهة تسمى باسم الاله الذي تقدم له — لانه تجسد فيها — وكان المضحون يبكون على الضحية لانهم انما يذبحون فيها إلههم .

ويجب ملاحظة ما قلنا هنا لما سنقوله عن المسيحية

١٥ — الضحية والدم

قد رأينا فيما سبق ان للضحية باعثين : الاول هو الاعتقاد بأنها تقدم كطعام للروح أو الإله . والثاني هو الاعتقاد بان الاله ذاته يتجسد فيها وتدفن أجزاؤها في الحقول لكي تنمي الزروع

الى هنا لم نتكلم عن اكل الناس الاحياء للضحية . فقد رأينا الضحية تجزأ وتدفن في الحقول باعتبار أنها إله ، ورأينا القربان أيضاً يوضع للميت اعتباراً بانه سيجوع ويأكله . وسنتكلم الآن عن أصل عادة اكل الناس للضحايا

من الشائع بين عوام مصر ان من اكل قلب ذئب صار قوياً مثل الذئب ، ويعتقدون فى الهند ان من يأكل نمراً يصير شجاعاً جريئاً كالنمر . لهذا لما نشأت عادة ذبح الآلهة المتجسدة فى الضحية ورد على خواطر المضحين ان يأكلوا هم ايضا قطعة من جسم الاله حتى يصيروا مثله في صفاته على نحو ما يفعل آكل الذئب والنمر . فصاروا يضعون جزأ من الضحية المؤلهة في الارض ويأكلون جزءاً آخر منها . وهذا صيد للعصفورين بحجر واحد : مباركة الحقل وتقوية الجسم . كذا تفعل قبائل الغوند . وكذا ايضا كان يفعل المكسيكيون . فانهم كانوا اذا ارادوا التضحية قبضوا على اسير من اسرى حروبهم وعاملوه معاملة الملوك مدة عام ثم يقتلونه في نهايته باحتفال عظيم ويأكلونه . وبمضي الزمن ارتقى الانسان من التضحية البشرية الى التضحية الحيوانيـة الحاضرة في اعياده . وفي طريقة الذبح عند العرب والعبرانيين الآن بقايا اثرية من عوائد التضحية القديمة. فانهم يذبحون الآن « باسم الله » ويتطلبون اراقة الدماء من المذبوح والدم. هو في العادة الجزء الذي يشتهيه الاله لانه – بخلاف اللحم – يجف فيظن الناظر ان الاله قد شربه

قلنا ان الانسان كان يشرب دم الذبيحة او يأكل لحمها اعتقاداً بأنه يأكل ويشرب من لحم الاله ودمه . وقد قلنا انه كان يعتقد بأن روح الضحية روحاً للاله تنحل من الذبيحة عند الذبح وتنتشر في المحاصيل كالكروم والغلال

من هنا نشأت عادة أخرى وهي أن يأكل المتدين خبزاً أو يشرب نبيذاً باعتقاد انه يأكل من لحم الاله ودمه ، لان روح الاله قد تجسدت في محاصيل الغلال والكروم . والخبز والنبيذ هو ما يأخذه المسيحي من قسيسه باعتقاد انه يأكل ويشرب من لحم المسيح ودمه

١٦ — ضحية الافتداء

للضحية كما قلنا اعتباران عند المتوحشين (١) انها تقدم كطعام للروح أو للآله (٢) انها تقدم كانها هي الاله ذاته

وهنا نوع ثالث من الضحايا يقدم باعتبار انه يفدي القبيلة أو الامة من خطاياها . وقد صلب المسيح لكي يفدي الناس من خطاياهم ، أي لكي يكفر عن ذنوبهم

والاصل في هذه الضحية هو الاعتقاد بامكان نقل المرض من شخص لشخص أو لشيء آخر . مثال ذلك أن ملكاً في بتشوانالاند ، أصيب مرة بمرض ما فأحضر ثوراً وتليت عليه الرقيات وأغرق بعد ذلك في النهر . ومنطق هذا العمل عندهم ان المرض قد انتقل الى الثور وذهب معه بعيداً عن الملك . ولا يزال عند المصريين

أثار باقية من هذا الاعتقاد في رقياتهم وذلك عندما تزيل الراقية المرض وتلقيه بعيداً عن المريض بالقائها بعض أشياء كالشب أو غيره تحرقها في النار وقت الرقية

وقد نشأ من اعتقاد امكان نقل المرض اعتقاد امكان نقل الخطيئة. مثال ذلك ان بعض قبائل افريقيا يقتلون كل سنة شخصين رجلاً وامرأة – لكي يكفرا عن خطايا القبيلة . يعتقدون ان خطيئات القبيلة قد انتقلت الى هذين الشخصين وانهم بقتلهما يغسلون القبيلة من أدران خطاياها ويبرونها أمام آلهتها ، كما كان يقتل الأثينيون شخصاً عند وفود وباء ما على بلدهم اعتقاداً بأن الوباء يموت بموته وينجي الامة منه ، وكما تذري الراقية قطعة الشب التي أحرقتها في النار وقت الرقية اعتقاداً بأنها حملت المرض معها وذهبت بعيداً عن المريض

١٧ — العالم قبل المسيح

كان العالم الذي انتشرت فيه المسيحية تابعاً للدولة الرومانية عند بدء انتشار هذه الديانة . وقد كانت هذه الدولة تشمل كل ممالك البحر المتوسط ، ودرجت اللغة الرومانية على ألسن التجار فقربت بين هذه الامم وصبغتهم بالصبغة الرومانية . وقد بعثت التجارة على المهاجرة والنزوح الى الموانئ، فكانت الاسكندرية وورومية وانطاكية ملأى بالسوريين والرومانيين والاسبانيين وغيرهم من الجاليات التي هجرت

مواطنها الاصلية واستعمرت هذه الموانىء للارتزاق . وقد أدى هذا الى انتشار الاديان في أصقاع الامبراطورية وخروجها من أوطانها الاصلية . فكانت الآلهة المصرية تعبد في انجلترا ورومية بسبب النزلاء المصريين ، كما كان يعبد الاله يهوه في الاسكندرية ومرسيليا بواسطة اليهود . وقد كانت بعض الآلهة تتحد في الصفات فيعبدها الناس وان كانت أجنبية عنهم وذلك لانها تتفق في صفاتها مع أحد آلهتهم . أو كانت الظروف تقتضي عبادة الآلهة الغريبة كما حدث مع البطالسة ، فانهم حينما تولوا حكم مصر عبدوا الآلهة المصرية مع أنهم كانوا يونانيين ، وقبيل ظهور المسيحية كانت الاديان الوثنية قد ضعفت امام الفلاسفة وحصل بذلك اشتياق في النفوس للتوحيد اليهودي . ولو لم يكن يهوه إله اليهود وطنياً متعصباً في ألوهيته يكاد لا يعترف بأمة حقيقة بالجنة غير اليهود لعمت عبادته . لهذا تحول الناس الى العبادة المسيحية لانها في الحقيقة عبادة للآلهة كلها . لان المسيحية اشتقت مناسكها وسننها وشعائرها من آلهة مصر وسوريا ورومية وفرنسا وانجلترا وغيرها فكانت كل الامم تعرف شيئاً عنها وتعتقد بصحة بعض سننها وأساطيرها . ومما زاد في الاقبال عليها سهولة طريقة التدين بها وصعوبته عند اليهود

١٨ — نمو المسيحية

إنا نشك في ان المسيح كان انساناً موجوداً . على اننا اذا صدقنا

رواية وجوده كشخص ما فانما نعتقد ذلك باعتبار أنهُ وجد وقتل كضحيه مؤلهة . وهي الضحية التي قلنا انها كانت تقدم لآلهة الغلال والنبيذ . فقـد كان السوريون المجاورون لليهود يعبدون أتيس إله الغلال وكان من عادتهم أن يقدموا له ضحية سنوية . ولعل الاشاعة التي فشت بعد ظهور المسيحية عن ذبح اليهود للاطفال قد نشأت عن هـذه التضحية وعندنا سبعة أشياء ترجح ان المسيح كان ضحية مؤلهة . وهي :

(١) اذا فحصت عظات بولس في رسائله الى القورنثيين تجده يصف المسيح كأنهُ يصف أحد آلهة الغلال تماماً

(٢) أكل تلاميذ المسيح و بعض المسيحيين الآن الخبز والنبيذ باعتبار انهما من جسد المسيح ودمه . وهذا ما كان يفعله تماماً عبدة أدونيس وأتيس آلهي الغلال . لان الآله يتجسد في المحصولات

(٣) قول المسيح « أنا خبز الحياة » . « خذوا . كلوا من دمي » وقد وصفوه بانهُ قمحي الوجه وان لون شعره كلون النبيذ

(٤) انهُ دخل أورشليم بهيئة ملك مثل ضحايا أتيس وادونيس لان الاعتقاد كان فاشياً بان هذين الالهين يتجسدان في الضحية التي تقدم لهما فيجب اذن اكرامهما ما داما على قيد الحياة . وقد جاء في الأنجيل انهم وهم يقتلون المسيح ركعوا ، وهـذا يماثل ما كان يفعله كهنة أتيس بالضحايا

(٥) ولما دخل المسيح أورشليم كان ممتطياً حماراً وقد نثرت

اغصان الاشجار على الارض وهو عين ما كانوا يفعلونه مع ضحية أتيس . وما زال في « أحد السعف » الذي يسبق العيد الكبير عند النصارى بقية من بقايا أعياد آلهة الغلال

(٦) لما قتل المسيح بكت عليهِ النساء مثلما كان يحدث في ضحايا أتيس لانهم كانوا يعتقدون بأن الإله يتجسد فيها و بالتالي يبكون عليه لانهم قتلوه

(٧) بعثه بعد ثلاثه أيام . مثل أتيس وأدونيس بالضبط

فالمسيح قتل لغرضين : انه ضحية مؤلهة ، ولكى يفدي الشعب من خطاياه (وقد عرفنا أصل الفداء ومعناه)

أما الثالوث فقد جاء للمسيحية من مصر ونشأ أولا عند الاقباط لأن أديانهم الوثنية السابقة كانت تحتم هذا الاعتقاد

أما الصليب فقد أتى أيضاً من مصر وتراه للآن على الجعلان . وقد اختلط الموضوع على بطريرك مصر مرة فقال فى أحد كتبهِ عن المسيح انهُ « جعل الله » أي انه ظن الصليب والمسيح شيئاً واحداً لان الجعل كان يرسم عليه الصليب

١٩ — بقايا أثرية في المسيحية

ما زال المسيحيون للآن يعبدون الموتى . وقد كانت الكنائس عند أول تشييدها قبوراً ليس إلا . ومركز القديس الآن بين النصارى وقيمته عندهم كمركز رئيس القبيلة المتوفى بين قبيلته بالضبط .

لأن النصراني يحترم القديس ويتهيبه ويتقرب منه كأنه يعبده عبادة ولو أنكر ذلك . وقد كانت القرون الوسطى العصر الذهبي لعبادة الموتى والارواح . فانهم كانوا لا يبنون كنيسة الا اذا أحضروا لها شهيداً أو قديساً دفنوه في هيكلها . وقد تفانوا في هذا العمل حتى ان البندقيين نقلوا جثة مرقس الرسول من الاسكندرية الى البندقية لكي يضعوها فى الكنيسة المسماة باسمه هناك

ودين الاسلام التوحيدي العظيم لم يتمالك عن تقديس الموتى واعتبارهم . فالمسلمون مازالوا للآن يتمسحون بقبور الاولياء ويتبركون بها ويبنون لهم – للاولياء – المساجد على قبورهم

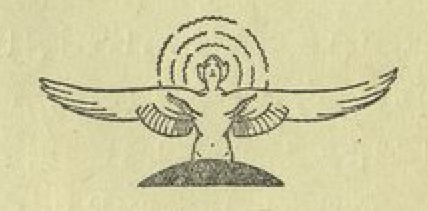
نريد بذلك ان الانسان الذي تشبع بالتوحيد ما زال يحن الى ميوله الوحشية القديمة وتبعثه غريزة التدين الاصلية الى العبادة الاولى: عبادة الجثث والارواح

وترى للآن عند المسلمين أثراً من آثار العبادات القديمة في مشهد قتل الحسين اذ يسيرون به في الشوارع باكين ومترحمين عليه كما كان يفعل السوريون في البكاء على أدونيس سنوياً

٢٠ — الخاتمة

أقول بالاختصار اني أعتقد بأن عبادة الجثث هي أصل لكل العبادات الحاضرة . وأعتقد أيضاً أن الارواح هي أصل الآلهة

الحاضرة ، ولكني مع ذلك لا أجزم بصحة استنتاجاتي ، وقد يأتي البحث بعكسها في المستقبل . غير أنى أقول ان الشواهد التي أتيت بها اثباتاً لنظرياتي هي جزء صغير من مجموعة الشواهد التي عندي والتي تحاشيت ذكرها منعاً للتطويل



بعض الرذائل فى ضوء التطور

نظرية التطور مفتاح سحري نفتح به مايستغلق علينا من نزوات الطبيعة البشرية ونزغاتها . ففي كل منا عرق بل عروق مستسرة تمت الى أبائنا الوحوش القديمة التي عاشت القرون الطويلة في ظلام الغابة تحوطها الضواري والافاعي فتأوي منها الى الاشجار أو الكهوف

وما زلنا في أحلامنا وسرائر نفوسنا نحمل قلوب هذه الوحوش القديمة في صدورنا . فنحن نخاف الظلام ونحس كأنه يخبىء لنا الجن والعفاريت . وما هـذه الجن والعفاريت سوى الضواري والافاعي التي كانت تكمن لابائنا وتفترسهم في جنح الظلام

وما زلنا نحلم أو بالاحرى يحلم صغارنا انهم يهوون من علٍ ويوشكون أن يهلكوا ولكنهم قبيل الصدمة الاخيرة يستيقظون وقد أفاقوا من هذه الغشية . وليس هذا الحلم سوى الذاكرة القديمة حين كان أباؤنا يأوون الى أغصان الاشجار فينامون حريصين على ألا يقعوا . ولعلهم كانوا يقعون ولكن اليقظة كانت تعاودهم قبل ساعة الخطر فكانوا يتعلقون بغصن ينجيهم . وانطبعت هـذه الذكريات المؤلمة في عقولهم الباطنة حتى أورثوها لنا فى أحلامنا

وليس شك في أن أحلامنا تمثل يقظة أبائنا . فنحن في الحلم تتكلم بلغة الاباء ونستعمل رموزهم لان العقل الباطن هو أداة الاحلام وهو عقل الجدود القدماء

ولكننا ذكرنا مثالين من تراث هؤلاء الجدود يجب أن نقف عندهما لنرى عبرتهما في التطور . فقد قلنا أننا نخاف الظلام وأننا نحلم بالسقوط . ولكن مما يجب الانتباه له أن الصبيان بل الاطفال اكثر تعرضاً لهذا الحلم ولهذا الخوف من البالغين. وهذه الحقيقة تتسق ونظرية التطور فالجنين يختصر في الاشهر التسعة التي يقضيها في الرحم تطور الانسان من عهد ظهور الحياة على الارض الى أن يصير انساناً سوياً. فيكون أولا خلية فردة ثم يكبر الى أن تصير له خياشيم كالسمك ثم يتخذ هيئة البرمائيات كالضفادع ثم يقف هنيهة بين الزواحف واللبونات فيكون له ذنب وشعر ثم يدخل في طور الانسانية . وهو انما يسلك هذه السبيل لان له ذاكرة خفية أو عقل باطن يحتفظ بتاريخ الانسان منذ بدء نشوئه الى الآن .

ولكن اذا كان للجنين ذاكرة تلهمه بأن ينمو على طريقة بعينها فان للطفل أو للصبي ذاكرة خفية تبعث في نفسه غرائز الجدود الاقربين عادة والابعدين أحياناً . فالطفل يمشي على أربع ويولد وذراعاه في طول ساقيه شأن الحيوان القديم الذي خرجنا منه ثم يخرج من هذا الطور ويستوي على ساقيه وتتأخر ذراعاه عن النمو بالنسبة الى ساقيه. وهو يبقى مدة غير قصيرة يحب التعلق والتسلق ويلذ له السير على

الحافات الدقيقة ونحو ذلك مما يرجع به الى غرائز الآباء الاقدمين الذين كانوا يتحصنون أغلب وقتهم على الاشجار

وبعد هذه المقدمة الصغيرة ندخل في موضوع هذا الفصل وهو البحث عن أصل رذيلة اللواط التي نراها فاشية بين بعض الناس ونريد أن ننظر اليها في ضوء التطور

فليس شك في أن الصبيان بل الاطفال يشعرون أحياناً بدافع الغريزة الجنسية قبـــل سن البلوغ بأعوام كثيرة . وأحياناً نحتاج الى أن نضرب الطفل لنكفه عن العبث بأعضائه التناسلية . أما الصبيان فليس ينكر أنهم يفكرون كثيراً في أعضائهم التناسلية بل هم يشعرون بعض اللذة في ايقاظ هذه الغريزة وهم أحياناً في ما بينهم يختلطون اختلاطاً يقصدون منه اللذة ويجدون هذه اللذة في مانسميه اللواط .

فكيف نشأت هذه الغريزة المجنونة ؟

اذا نحن رجعنا الى نظرية التطور وتذكرنا أن الطفل ثم الصبي كل منهما يختصر في نفســه طوراً أو أطواراً مرت بأسلاف الانسان القدماء جاز لنا أن نفتش عن أصل هذه الغريزة في هؤلاء الاسلاف

ولكن قبل ذلك يجب أن نذكر أنه ليس كل صبي يفعل ذلك لأنه وان كانت بذور الغريزة كامنة في نفس جميع الصبيان الا أنها قوية فى بعضهم ضعيفة في آخرين . فقد يجتاز الصبي بهذا الطور من حياته ويدخل في طور الشباب دون أن يشعر بها الا ضعيفة لايأبه لها ولا تبلغ من نفسه سوى الاستحسان لجمال صبي آخر يلعب معه

ولا بد أن القارىء قد لحظ ان خصيتي الديك تبقيان داخل جسمه ولا تخرجان منه وتتدليان على نحو ما نرى في الحيوان اللبون. ولا بد ايضاً انه لحظ ان للدجاجة فتحة واحدة من خلف وان التلاقح يتم بينها وبين الديك عن سبيل هذه الفتحة بحيث يلي بطن الديك ظهر الدجاجة. والآن اذا قلنا ان بعض الاطفال يولدون واحدى خصيتيهم لا تزال داخل اجسامهم بل احياناً تبقى الخصيتان كلتاهما داخل الجسم، افلسنا نفهم من ذلك ان هؤلاء الاطفال قد ساروا سيرة الجدود القدماء من برمائيات وزواحف؟

فهذه ردة حدثت في تكوين الخصيتين رجع فيهما الطفل الى الوراء بمعنى ان ذاكرة الجدود القدماء كانت أقوي فيه من ذاكرة التطور الجديد الذى قضي ان تخرج الخصيتان وتتدليان من الجسم على نحو ما نرى في اللبونات. وهذه الردة كثيرة الحدوث في الانسان ربما كان اكثرها شيوعاً ذلك الشعر الكثيف الذي يكسو ابدان الرجال والنساء احياناً. ونحن نسمي السمات القديمة اذا ظهرت شاذة في الانسان « ردة » كالشعر مثلا. ولكنها اذا ظهرت فيه وعمت جميع الافراد تقريباً لم نطلق عليها اسم الردة. ففي كل منا مثلاً « زائدة دودية » تظهر في جميع الناس وهي اثر حيواني قديم لافائدة لنا منه فهى لذلك ليست شاذة وليست « ردة »

ولكن الردة كما تحدث في اعضاء الجسم كذلك تحدث في غرائز النفس. فالطفل الذي يولد وخصيتاه في باطنه على طريقة الطيور

والزواحف والبرمائيات قد نجد بازائه طفلا يولد فاذا صار صبياً استيقظت فيه غرائز هذه الحيوانات القديمة التي يمت اليها كل منا بنسب في نسيج عقله وجسمه معاً . فالصبي يستحسن الاختلاط من خلف بقوة هذه الذاكرة القديمة وهذه الغريزة المماتة . فهو يوقظ في نفسه غريزة كان يجب ان تموت ولكنه يحييها فاذا عاونته الظروف استحيت وطاوعته وقويت وصار لها في الاعصاب مسالك تتأدى بها وفيها تلك الشهوة التي دمغناها بصفة البهيمية لانها هي في الحقيقة كذلك ردة بهيمية الى البهائم القديمة التي خرجنا منها

والعادة انه اذا كان الوسط الذي يعيش فيه الصبي يسمح له بالزواج عند سن البلوغ او بُعيده فان تلك الغريزة البهيمية التي كانت قد انتبهت فيه تُكبت وتُكتم حيث تطغى عليها الغريزة الانسانية باستحسان المرأة . ولكن اذا كانت الظروف لا تؤاتي الفرد على الزواج او التعارف الجنسي الصحيح فان تلك الغريزة تبقى الى طور الشباب بل قد تتعداه الى الكهولة فتتأصل عندئذ في النفس وتصبغها بصبغة حيوانية قديمة يعسر تغليب الصبغة الانسانية عليها

وذلك لان الغريزة الجنسية عندما لاتجد مخرجاً انسانياً لها تعود الى مخارجها القديمة فتنكفىء الى اللواط . ومن هنا انتشار هذه العادة بين جميع من يحرمون من النساء كالرهبان والجنود . فالانسان وهو ينتقل من الطفل الى الصبي الى الشاب تتجدد عاداته ينسخ منها الجديدُ القديم واذا لم يكن جديد بقي القديم . فاذا لم يجد الشاب المرأة

رجع الى عادته وهو صبي فيستحسن الصبيان امثاله فاذا بقي على ذلك مدة تأصلت فيه العادة فيشق عليه عندئذ الاقلاع عنها . فالشاب الذي ينغمس في اللواط هو كالصبي الذي يروح ويغدو وهو لايزال عالقا بثدي امه يرضعه . فان الصبي قد عدا طور الرضاع ولكنه وجد تشجيعاً عليه فثبت فيه . والشاب عدا هذا الطور الصبياني ولكنه لما حرم من الاختلاط الجنسي الصحيح استبقى لنفسه هذه الغريزة القديمة ينفس بها عن الشهوة الجنسية الملحّة

فكيف اذن نعالج الرجل او الشاب من هذه العادة الصبيانية ؟ نعالجه بان نظهره على حقائق غرائزه ونخبره بان غريزة الصبي هي غريزة الحيوانات السابقة ذوات المخرج الفرد كالزواحف والبرمائيات. فكما ان الجنين يمثل السمكة في أحد اطواره وكما ان الطفل يمشي على اربع كذلك الصبي يمثل تلك الحيوانات القديمة في طريقة التلاقح . ولكنه مادام قد دخل في طور الشباب فقد استكمل انسانيته ويجب ان يسلك المسلك الانساني لهذه الغريزة

ان الجسم الانساني بازاء كفاياته القديمة المنسوخة منها والجديدة الطارئة عليه اشبه شيء برجل قد تعلم في صباه الطعن بالحراب ثم سمع عن القوس فتعلمه . ثم جدّ اختراع البندقية فتعلم تسديدها . فهو اذا قاتل عمد الى آخر اسلحته واقواها وهي البندقية . فاذا تلفت هذه

انكفأ الى القوس ، فاذا تلفت هـذه ايضا انكفأ اخيرا الى الحربة . فالرجل الذي يحرم من النساء يعود صبياً في غريزته الجنسية فيحب الصبيان لأن اللواط سلاح قديم كان الجسم يدفع به عنـه الحاح الشهوة . ولكن ثم اعتباراً آخر يتسق مع تشبيهنا . وهو انه اذا كان هذا الرجل الذي فرضناه قد طالت مدة استعماله للقوس دون الحربة او البندقية فانه في القتال يؤثرها على كلا هذين السلاحين لأن طول الممارسة يورث العادة التي هي اشبه بطبيعة ثانية . فاذا شب الصبي الى المراهقـة وهو يستحسن الصبيان والف عادة اللواط واكب عليها شق عليه عندئذ ان يخرج منها ولو عرضت له النساء

ولننظر الآن الى « جلد عميرة » في ضوء الشرح السابق . فاننا نلاحظ ان الاطفال والصبيان يلذ لهم مس اعضائهم التناسلية ومسحها ونرى من واجبنا ان نزجرهم ونكفهم عن ذلك . فاذا صار الصبي الى سن المراهقة ووجد للشهوة سبيلا طبيعياً تنفرج اليه فذاك ، والا فهو عائد الى الطريقة التي الهمته اياها غريزته وهو صبي . فيعود عندئذ الى المس والمسح ويعرف من ذلك « جلد عميرة » وتنتظم له من ذلك عادة ملحة لها اوقاتها

وانما الانسان في غرائزه شبيه بالبصلة تتراكب الغرائز عليه طبقة بعد طبقة فالطبقات العليا هي الحديثة والسفلى هي القديمة . والحديثة تتغلب على القديمة مادامت الظروف عادية . ولكن اذا عوكس الفرد في غرائزه الجديدة انكفأ الى غرائزه القديمة . لان في الجسم قوة تندفع

الى الخروج فاذا وجدت ابواب الغرائز الجديدة مقفلة دونها عمدت الى الابواب القديمة ففتحتها . وبعبارة اخرى نقول : اذا وجد الفرد ان باب التعارف الجنسي بالطريقة الانسانية مقفل عمد الى باب الطريقة البهيمية طريقة الزواحف وهي اللواط . وايضاً اذا وجد الشاب ان هذه الطريقة القديمة قد اقفلت دونه ايضاً عمد الى طريقة الصبا طريقة المس والمسح وهي جلد عميرة





الأديب : امير ام عبد؟

لما زال استقلال الاغريق وتسلط الرومانيون عليهم نزل الادب من مركز الامارة الى مركز العبودية . فقد كان ادباء الاغريق اصحاب الفلسفات وواضعو الدرامات ينظرون الى الشعب نظر الملك الى رعيته يبحثون في طرق اصلاحه وتنظيم حكوماته ورفع مستوى اخلاقه والسير به نحو الرقي . تقرأ ارسطوطاليس او افلاطون فتجد اميراً مهموما بهموم رعيته يريد ان تسمو اخلاقهم وتنتظم حكوماتهم ولست تجد فيهما العبد الذي يتملقهم ويخدعهم و يمتدح نقائصهم

فلما تسلط الرومانيون على الاغريق اخـذوا يستطرفون اللغة الاغريقية ويتنافسون في تعليمها لاولادهم فصاروا يكثرون من اقتناء عبيد الاغريق لهذا الغرض و يسلمونهم اولادهم . فكان العبد الاغريقي يقف من هؤلاء الاولاد موقف المعلم يستمعون لاقواله وينتصحون بنصائحه ولكن كما نسمع نحن لنصائح السائق حين يختار الطريق القريب او حين نسترشد برأي الحمال الذي يحمل حقائبنا

للقطار نطيعهما كليهما طاعة وقتية وفى سريرة نفوسنا اننا ارفع منهما.
وكان لهذه الحالة اثرها في المعلم نفسه لانه وجد انه يجب عليه ان يسر ويقف من اسياده موقف المهرج الذي يضحكهم لاموقف الاستاذ الذي يعلمهم ويؤنبهم

ثم جاءت القرون الوسطى التي استوى فيها العرب والافرنج او كادوا يستوون من حيث نظام الحكومة الاستبدادية التي يسيطر عليها رئيس دينى هو البابا او الخليفة ومن حيث الادب ايضاً. فقد انقسم الادب قسمين عظيمين احدهما يعالج الدين والآخر يعالج الحياة

فاما هذا الذي يعالج الحياة فانه لم يرتفع الى مركز الامارة الذي كان لادباء الاغريق القدماء بل نزل الى مركز العبودية الذي انحدر ليه الموالي الاغريق حين كانوا يعلمون صبيان الرومانيين

ففي بغداد نجد ايام الدولة العباسية عدداً كبيراً من الموالي اي العبيد اصطنعوا الادب وقضوا اعمارهم في امتداح أمرائهم واطراء مافيهم من صفات، كما تجد ذلك ايضاً عند امراء ايطاليا حين كان لكل امير شاعر يشيد بذكره وينوه بمناقبه. ومضي الادباء على ذلك يعتقدون ان مهمتهم مقصورة على سرور الامراء حتى اذا تخلص الادب من رعاية الامير بعض التخلص صار الاديب يشغل نفسه بغير امتداح الامراء والاغنياء ولكنه بقى مع ذلك يحسب ان مهمته هي سرور القارىء ولذته وليست فائدته، يجري في ذلك على مأثور الادباء من الموالي قبله. فنشأت طبقة من المهرجين مثل الحريري والهمذانى

يعملون بالالفاظ ما يعمله المشعوذ والمهرج بالحركات حين يطيف بهما
الناس ويضحكون من تهريجهما

ثم قامت النهضة الاوربية تستوحي أمراء الادب القدماء وتنفض
عن نفسها غبار العبيد حتى صار الادب الاوربي الحديث يتسم بسمة
الامارة لايحبو اليك المؤلف على اربع يتصاغر لك او يهرج امامك
لكي تضحك وانما هو يسومك درس هـذا العالم بما يوجعك احيانا
وقد تجد انت لذتك في هـذا الايجاع لانه بذلك يفتح بصيرتك
ويبسط مدى وعيك لهذا الكون

ونحن هنا في مصر بل في العالم العربي لايزال بيننا طبقة من
الادباء يؤثرون مركز العبيد على مركز الامراء يتظرفون احيانا مثل
الرافعي والمازني وأحيانا يهرجون قصاراهم ان يقولوا « فحسب » في
مكان « فقط » او ان ينقلوا عبارة فخمـة من الجرجاني أو من غير
الجرجاني يدسونها في ثنايا الفاظهم يحسبون ان مهمتهم مقصورة على
سرور القارىء

ولست في ذلك انكر فائدة التأنق أحيانا وان كنت أعرف ان
الكأس من الذهب اجمل ما يكون اذا لم يكن عليه نقش وان
الجسم الجميل افتن ما يكون اذا تجرد من الثياب وان الثوب الحريري
لايحتاج الى توشية وتطريز. وذلك لاني لا اجهل أن الذهب والحرير
ليسا في وسع كل احد اقتناؤهما وانه ليس بين النساء من نستجملها
عارية الا واحدة او اثنتان في المائة . فنحن في حاجة من وقت لاخر

الى التأنق لأننا لانطيق البساطة. فان الشيء البسيط لا يكون جميلا الا اذا كان من أرفع مادة ومن أعلى طراز وليست تسعفنا اللغة على الدوام بالمادة الحسنة والطراز العالي . ولكني انكر ان يكون هم المؤلف مقصوراً على التأنق في اللفظ والتظرف في العبارة حتى يقف من القارىء موقف العبد من سيده يقنع بسروره ورضاه عنه . كلا . انما احب من المؤلف ان يقف موقف الامير يقصد الى فائدة القارىء وتعليمه وتنويره . وهو لن يستطيع ذلك حتى يمد بصره وبصيرته في هذا العالم بل في هذا الكون ، ولا يكون ذلك الا بالدرس المتواصل للانسان تاريخه وأصله ومستقبله وحاضره ومؤسساته وما ارتكب من جهالات وأساطير وما حقق من علوم وآداب

هذا هو موضوع الاديب درساً لنفسه وبسطاً للقارىء حتى يكون ادبه ادب الامارة لا ادب العبودية





ادب الفقاقيع

لفقاقيع الماء أو نفاخاته التي تعلوه ملاحة لا تنكر وخاصة اذا ضربتها الشمس فازدهت وسطعت تعكس على العين الوانها العديدة ولكنها مع ذلك فقاقيع سرعان ما تتفقأ اذا مر عليها النسيم

وكذلك الحال في ادباء الصنعة يكتبون وكل همهم محصور في تأليف استعارة خلابة أو مجاز جميل أو كناية بارعة او غير ذلك من الفقاقيع . فاذا اراد احدهم أن يؤلف كتاباً أو يضع مقالة لم يعن اقل عناية بالموضوع الذي يكتب عنه وانما هو يعمد الى الفقاقيع فيؤلف منها عبارته اذا استطاع او يذهب الى احد القدماء فيجمع منه بعد الكد والعناء جملة عبارات خلابة يتوبل بها انشاءه او يرصها رصاً اذ كثيراً ما يعجز امثاله عن تأليف عبارة من انشائه الخاص

وهكذا يعيش كتاب الصنعة هـذه الايام بما خلفه لهم القدماء يتداولون الصيغ القديمة في الاداء ويجترونها اجتراراً كما تجتر البهيمة طعامها طول حياتهم . او يقضون وقتهم في العبث واللهو بتأليف

السجعات والاستعارات والتشبيهات . ولست انكر ان لهذه الاشياء جمالا ولكنه جمال الفقاقيع والزبد الذي يذهب جفاء عند ما تسطو عليه أشعة الشمس أو تهفو به ريح

فقد قرأنا كلنا مقامات الحريري ورسائل الهمذاني واستملحناها ولهونا بها وتشدقنا بالفاظها وللآن لا نزال نستملحها كما نستملح فقاقيع الزبد . ولكن لا يخطر في بالنا أن نقلد هذين الكاتبين . لأن اسلوبهما لا يتفق والانشاء الرصين في الموضوع الجدي أو الانشاء الدقيق في الموضوع الفلسفي أو العلمي

ولكن كتاب الصنعة يكرهون الفلسفة والعلوم . وقد قال احدهم وهو المنفلوطي (وربما كان أقلهم صنعة) . « ما دخلت الفلسفة ايا كان نوعها على عمل من اعمال الفطرة الا أفسدته »

وهذه نزعة خطرة نطلب أن يعمد رجال الذهن في جميع البلاد العربية الى وقفها بكل الوسائل فيجب أن نحبب لتلاميذنا الفلسفة والعلوم ونكره لهم فقاقيع الاستعارات والكنايات أو بعبارة أخرى يجب أن نحبب اليهم الجد ونباعدهم من اللهو ونكبر لهم من قيمة المعنى والغاية ونصغر لهم من شأن الزخارف اللفظية

وهذه الزخارف اللفظية كثيراً ما يعشقها الشباب الذي تستهوي اسماعه رناتها الموسيقية فيسترسل فيها ويعني بتنميقها فيذهب وقته في تفكير ركيك وعبارات مزخرفة . وبدلا من أن يعمد الى الدرس الجدي المفيد يأخذ في استظهار عبارات والفاظ خلابة كتبها الجاحظ

او رواها الاغاني او دبجها الحريري . ونحن نعيش فى زمن لا يتسع الآن للاساليب المزخرفة في الكتابة لان علينا ان ندرس الافا من الشؤون التي لم يعرفها القدماء

وحسبك دليلا على الخطر الذي ينال الشبان مما يبثه كتاب الصنعة من التعلق بالالفاظ ما يكتبه اكثرهم الآن فى الصحف غير مبالين الا بتنميق الالفاظ . وهاك مثلا ما كتبه احدهم عن الاتفاق :

« الاتفاق وما ادراكما الاتفاق ؟ الاتفاق هو حمامة بيضاء تحمل بفمها غصن زيتون لتبشر القوم بنجاتهم من الطوفان

« هو بلبل غريد يطرب بانغامه البديعة قلوب من لمستهم الاحزان

« هو عندليب يرتفع في الفضاء ومن هناك يرسل لنا بنغماته الشجية ممزوجة بنسيم الجنان

« هو ملك سماوي يرفرف باجنحته النورانية فوق ارواح الشجعان

« الله أكبر من انت وما اسمك بماذا اصفك وبمن اسمك ؟ أأصفك بجمال الطبيعة في يوم من ايام الربيع قد صفا أديمه ورق نسيمه وتلالا زهره وغردت عنادله وشدت بلابله وسجعت حمامته وتميلت اغصانه وفاح عبيره وترنحت انفاسه الخ . الخ . »

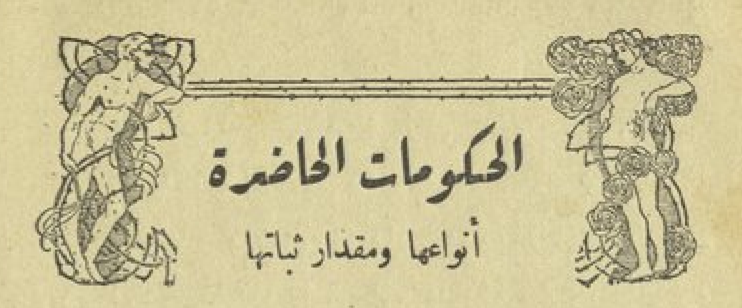
فاعتبر هذا الشاب يطلب اليه ان يكتب عن فوائد الاتفاق والاتحاد فلا يجد سوى هذه الالفاظ المرصوصة وهذا اللغو السخيف يملأ به أربع صفحات كبيرة . وهو شاب شرقي عاش في بلاد عرفت ما جره عليها الاختلاف المذهبي والطائفي من الخراب . فيترك امثلة التاريخ وعظاته ويكتب عن البلابل وأجنحتها والحمائم وأسجاعها .

وليس ذلك الا لانه نشأ يحب الفقاقيع من الالفاظ الرنانة ويؤثرها على الدرس الصحيح

وهذا كاتب آخر هو مصطفى الرافعي يضع كتاباً عن الحب والجمال . ويبدأ الفصل الاول منه بوصف « فقاعة » هي نصاب قلم مصنوع من زجاج ويحتوي على مداد احمر ويباع بالقاهرة بنصف قرش . فيكتب عن هـذا النصاب عدة صفحات ويستوحي منه التأملات والخواطر في الحب والجمال . فهو كاتب صنعة لا يبالي الا برنين الفاظه وخلابة استعاراته

وهذا لعمري هو اللهو واللعب . فان للادب غاية وغايته هي صلاح الناس وهديهم وكشف حقائق هذا الكون والتمتع بجمال هذه الحقائق والسكون اليها . وهذا لا يكون الا بالدرس المتواصل والنية الحسنة لهذا العالم الذي هو وطننا الاكبر والبعد عن غرور اللفظ وزهوه وخلابته





الحكومات الحاضرة

أنواعها ومقدار ثباتها

لما عرف الانسان الزراعة واستقر في مكان لا يريم عنه احتاج بطبيعة حاله الى حكومة تحرس له حقله وتمنع عنه عدوان جاره . أما قبل ذلك فأنه في تجواله في الغابة وضربه في البوادي لم يكن في حاجة الى حكومة . ولا يزال البدو حتى الآن بلا حكومة أو ليس لهم من الحكومة الا مقدار ما اكتسبوه من أهل الريف والزراعة

وترجع حكومة الانسان الأول الى أصلين نشأت منهما الملوكية أو الأمارة الاولى . فقد كان الملك الأول اما كاهناً عظيما واما قائداً منصوراً وكان لا يستمد قوته في كلتا الحالتين من الشعب المحكوم وانما كان له من وجاهة الدين والسحر أو من قوة الجيش ما يجعله يستبد في أساليب حكمه وينسب نفسه وسلطانه الى الآلهة . ومن هنا نجـد ان معظم الملوك الاقدمين كانوا مقدسين بل مؤلهين حتى الاسكندر المقدوني نفسه اعتزى الى الآلهة عندما جاء مصر . وامبراطور اليابان حتى الآن لا يزال إلهـاً له حرمة الآلهة القديمة

هذا هوحال الأمم القديمة.انما يجب مع ذلك أن نميز بين مبدأين

في الحكم يختلفان في الشرق والغرب وهما ان حكم الشرق كان على الدوام حكم استبداد في حين ان حكم الغرب كان حتى في عصوره القديمة قائماً على مبدأ النيابة . وليست علة ذلك راجعة الى استعداد الشرقي لقبول الاستبداد واباء الغربي إياه ، بل ذلك كله راجع الى وفرة الطعام في الشرق حيث الحرارة والضوء يسرعان في نمو الزراعة . وكثرة غلات الزراعة تؤدي الى كثرة السكان ثم ان كثرة السكان تضع من مقام العامل لأن الاجور عندما يكثر طلابها تنزل الى أحط قيمة يطلبها أحط عامل . وبعبارة أخرى نقول ان الوسط الزراعي الشرقي يعمل لأيجاد فقر دائم بين العمال والفقر مدعاة عجز العامل واستبداد الحاكم به

وفي العالم المتمدين أو الشبيه بالمتمدين خمسة أنواع من الحكومات.

وأول هذه الانواع وأقدمها وأقربها الى الزوال هو الحكومة الملوكية المطلقة حيث يحكم الملك مستبداً برأيه دون التقيد برأي الأمة . وقد كان هذا شأن معظم الحكومات قبل القرن التاسع عشر وأقربها الى عهدنا حكومة قيصر روسيا وعبد الحميد وشاه الفرس . وكلها قد زالت ولكن ما زال الحكم المطلق قائماً في سيام من جنوب آسيا وفي بعض امارات الهند

والنوع الثاني هو الملوكية الدستورية المقيدة وأقدمها في العالم الآن حكومة انجلترا . بل يمكن ان نقول ان دستور انجلترا هو ابو الدساتير التي في العالم أجمع وكفى الانجليز فخراً هذا الفضل الذي

اسدوه الى الحضارة الحديثة . فاذا أنت فتشت عن دستور أي قطر في العالم سواء أكان في الشرق أم في الغرب الفيته يهتدي بهدى الدستور الانجليزي ويستنير بضوئه إذ ليس للدساتير الحديثة أية علاقة بأنظمة الحكم في رومية أو أثينا القديمتين . وقد هدمت الحرب الاوربية اكثر من عشرة عروش كان ملوكها دستوريين اسما ولكنهم لم يسيروا على رأي الأمة التي كانوا يتولون أمرها فلم يحمهم الدستور لهذا السبب . وانما بقي الملوك الدستوريون بالفعل وهؤلاء ما زالت عروشهم ثابتة لم تتزعزع

والنوع الثالث من الحكومات هو الحكومة الجمهورية . وجميع الحكومات الجمهورية ديموقراطية أي ان الرأي القاطع فيها للامة بل لدهماء الامة . واكبر مثال لهذه الحكومة هو الجمهورية الفرنسية وهي ليست في ثبات الملوكية الدستورية التي في شمال أوربا مثل حكومات دنماركا وأسوج ونروج وهولندا وانجلترا

والنوع الرابع للحكومات هو الحكومة الاتحادية مثل سويسرا والولايات المتحدة والمانيا . وتختلف الاتحادية عن الجمهورية من هذا الاعتبار التالي : ففي الجمهورية لايوجد سوى دولة واحدة هي صاحبة الحق في سن القوانين لجميع سكان الدولة . فالفرنسي في أي بلدة كانت من بلاد فرنسا يخضع للقوانين التي يسنها برلمان الدولة في باريس وهذا بخلاف الحال في الاتحادية حيث توجد عدة دول متحدة كل دولة منها مستقلة في تشريعها لها قوانينها الخاصة بها . وانما لها حكومة

مركزية قد اتفقت هذه الدول المتحدة على إعطائها بعض الحقوق .
وهذا هو السبب في أن في فرنسا شرعة واحدة للزواج يخضع لها جميع السكان ، أما الولايات المتحدة ففيها من الشرع للزواج بقدر ما فيها من الولايات . وكذلك الحال في المانيا فقوانين بروسيا غير قوانين بافاريا وقوانين همبرج تختلف عن قوانين ساكسونيا

أما النوع الخامس فهو الحكومة السوفيتية أي القائمة على مجالس العمال كما هو الحال فى روسيا ولا يمكن البت في ماهية نظامهم . فالاحقاد والاغراض لا تزال تحول دون معرفة أحوالهم على وجه التحقيق، وانما يبدو من ارتباك روسيا الذي لا ينتهي ان نظام الحكم عندهم لا يمكن أن يحمد كثيراً

ويبدو من التجارب الجارية في أنواع الحكومات ومن تاريخ القرن الماضي والحاضر ان أثبت الحكومات هي الحكومة الانجليزية . وهذه الحكومة لا توصف بكلمة وانما كال وصفها أن يقال : انها ملوكية دستورية ديمقراطية أرستقراطية . وربما كان احتواؤها على جميع هـذه العناصر هو سبب استقرارها في الحوادث المدلهمة التي زعزعت غيرها . فهي لا تمثـل الدهماء بواسطة مجلس العموم فقط بل تمثل الاشراف والاغنياء ايضا بواسطة مجلس اللوردات ، وفوق هذين المجلسين نجـد عنصر الاستقرار المكين وهو الملك فانه من اكبر عوامل التوفيق بمكانتـه لا بسعيه . فان الاشراف والاغنياء يلتفون حول العرش فاذا نازعهم النواب وتفاقم النزاع نزلوا هم عن

بعض مطالبهم محافظة على العرش . ومن السنن التي تتبعها الاسرة المالكة في انجلترا في زواج أبنائها انها تصاهر أشراف الانجليز بدلاً من مصاهرة الاسر الملوكية في اوربا . وهذا يجعل الاشراف يلتفون حولها

ولايعرف مصير الحكومات في المستقبل، فان الرأي العام في أوربا اذا قيست ميوله المقبلة بميوله في العشر السنوات الاخيرة رأيته يتجه نحو الحكومة الجمهورية والاتحادية . ومن الانجليز من يطلب الغاء الملوكية ويصرح بذلك على صفحات الجرائد الآن





حدث في الشهر الماضي حادثان عظيمان يجب أن يبالي بهما كل مفكر سواء في الغرب أو في الشرق . أولهما ان المدرس سكوبس اخبر تلاميذه ان قصة آدم وحواء في أصل البشر كما روتها التوراة غير صحيحة بحرفها . وان الصحيح ان الانسان والقرد من أصل واحد ، وقد حكمت عليه محكمة ولايته (احدى الولايات المتحدة) بغرامة قدرها عشرون جنيهاً لمخالفته تعليم التوراة . وحدث في مصر حادث شبيه بهذا . فان الاستاذ علي عبد الرازق وضع كتاباً قال فيه ان الخلافة ليست أصلا من أصول الاسلام فحكم عليه العلماء باخراجه من زمرتهم

والحادثان يتعلقان كما يرى القارىء باثمن شيء عرف في هذا العالم وهو حرية الفكر والرأي . وليست المسألة صحة نظرية التطور أو فسادها ولا هي صواب القول بان الخلافة مبدأ ديني أو مبدأ مدني

فقد تكون نظرية التطور خطأ وقد يكون كتاب الشيخ علي عبد الرازق كله سفسطة ولكن المسألة المهمة في هذا النزاع هي ان كلا من المستر سكوبس والاستاذ علي عبد الرازق له الحق في أن يكون حراً يرتأي ما يشاء من الآراء دون ان يقيد باي قيد سوى الاخلاص

وحرية الرأي هذه هي آخر ما انتهت اليه الحضارة الراهنة . وانما انتهت اليها بعد تجارب اثبتت لها ان كل تقييد يؤذي الامة ويعود بالضرر في النهاية على المجموع . وليس يشك في ان حرية الرأي تغضب كثيرين من الناس . ولكن الشرط الاساسي للحضارة هو التسامح فما لم يرض الناس بأن يسمعوا الآراء المخالفة لهم ولو كان ذلك على مضض منهم لما تقدموا ولما ارتقت الامم . فالارتقاء يستدعي ابتداع البدع واصطناع العادات والمخترعات الجديدة فان لم يتسامح الناس في هذه التغييرات ولو آلمتهم بعض الالم لما اتيحت الفرصة لهم بأن يتقدموا

اني أؤمن بنظرية التطور وربما كان اكبر ما يدفعني الى الايمان بها انها ليست من الحقائق العلمية فقط بل انها نظرية الرجاء والتواضع: ومعنى ذلك اني أؤمن بها للغريزة الدينية التي في نفسي . ففي نفسي عطش الى الابدية ولست أرتاح الى أن يكون هذا الانسان الراهن على ما في جسمه وعقله من خلل ونقص خالداً . ولا الى أن أرضنا مركز للكون . وانما ارتاح الى الرجاء بأن الانسان في المستقبل سيكون ضخم الرأس جميل الجسم فيلسوفاً بطبعه لا ينظر الينا نحن آباءه الا

كما ننظر نحن الى الحيوان . فهذا النظر يملأني رجاء ويحثني على الصلاح والتقوى . ثم أن معرفتي بتطور المادة والعوالم يملأني تواضعاً وخشوعاً في هذا الكون بدل ذلك الصلف المؤذي الذى يملأ رؤوس أولئك الذين يحسبون الارض مركزاً للكون . وقد اكون مخطئاً في نظري ولكني أجد الراحة في هذا الايمان فيجب ان أترك حراً في ان اعتقد صحته وان أدعو اليه غيري الذي قد يجد فيه مثلما أجد فيه من الراحــة . فان كان فيه شيء من الخطأ ففي الدعوة اليه والجدل فيه تمحيص له من هذا الخطأ

نحن نعيش الآن في زمن قد تقدمت فيه العلوم المادية كالطبيعة والكيمياء والميكانيكيات والفلك وتأخرت فيه العلوم المعنوية كالاداب والدين والسياسة . ونتج من ذلك تفاوت عظيم بينهما . ففي الحرب الكبرى الاخيرة مثلا كان التقاتل بالغازات والطيارات وكان الناس يبادون بالملايين لتقدم العلوم المادية . ولكن عندما قعد رجال السياسة يتفاوضون في الصلح بعد عقــد الهدنة كانت لغتهم وتعابيرهم ونياتهم ووسائلهم لا تختلف عما كانت عليه هذه الاشياء عنــد ساسة القرون الوسطى بل عند ساسة الرومانيين . ومن هنا نجد الاستعمار قائماً حياً كما كان في عهد الاسكندر المقدوني . وكذلك الحال في الدين . فان الحالة الروحية في الانسان لم تتقدم الآن عما كانت عليه منذ الفي عام وكذلك الادب فان الياذة هوميروس ليس لها المقام السامي الذي تشغله الآن في اذهان الادباء الا لأن الادب لم يرتق منذ اكثر من الفي عام

والعلة في ذلك أن الحرية الفكرية مطلقة لا يحدها حد في العلوم المادية . فلو قال انسان أن الحديد ليس عنصراً بل هو مركب لما عارضه آخر الا بالحسنى واذا هو تحداه فانما يتحداه بالتجربة . ولكن اذا دعا داع الى البولشفية أو قال بان الخلافة خطأ أو صواب أو ان الجمهورية خير من الملوكية أو ان الزواج باثنتين خير من الزواج بواحدة أو ان أدب العرب سخيف وأدب المصريين أسخف منه ، فأنه يجد استنكاراً من بعض الناس بل ربما يجد من الحكومة والقوانين تحفزاً أو هجوماً قد يقضي على وجوده المعنوي أو المادي . لهذا السبب جمدت الاديان والآداب والسياسة وبقيت كما كانت منذ الفي عام تقريباً في حين ارتقت العلوم المادية حتى صار كثيرون يخشون من رقيها لعظم التفاوت بينها وبين العلوم المعنوية

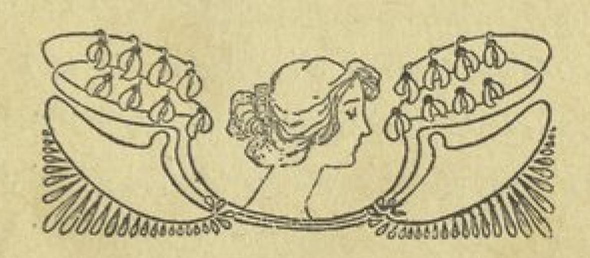
ولن ترتقي السياسة أو الاجتماع أو الدين حتى تشملها الحرية شمولا تاماً كما شملت العلوم المادية . وتجارب الامم تدل على ان الانسان روحاني بطبعه بدليل أنه ليست تخلو أمة راقية على وجه الارض من دين . ومن البلاهة ان نظن ان انساناً يمكنه ان يكون كافراً معطلا لا يؤمن بشيء ، ففي كل منا عطش الى الخلود والى الاتصال بهذا الكون بل بروحه وهذا في اعتقادي هو الدين بل هو لب الدين وهو اكبر ما يحبب الي نظرية التطور . فاني أحب الخلود لا بجسمي وعقلي هذين بل بما ينشأ منهما في المستقبل ويكون ارقى منهما

وخلاصة القول اننا يجب أن نتحمل بعض المضض مما يصدمنا

من الآراء الجديدة في الدين والسياسة والاجتماع . لان شرط الحضارة الاساسي هو التسامح . والتسامح هو الرضا بما يقوله الاخرون وان آلم نفوسنا بعض الالم . والعلوم المادية انما تقدمت بحرية الفكر . فالعلوم المعنوية كالدين والسياسة والاجتماع والاداب لن تتقدم أيضاً الا بحرية الفكر ولو آلمت هذه الحرية بعض الناس . ويمكن بعبارة أخرى ان نقول ان العلوم المادية تطورت وارتقت لان الذين عالجوها نظروا اليها بنزاهة وحرية نحن في حاجة الى أن نعالج بهما العلوم المعنوية. ومن الغفلة الهائلة أن يبحث علماؤنا الان عن أصل المادة ويكادوا يلمسون سر الكون المادي بينما يدافع آخرون عن اتوقراطية تشبه اتوقراطية حكومات الفراعنة او عن عقائد في الدين أو الاجتماع قد مضى عليها آلاف السنين ويطلبون منا الايمان بها بقوة المحاكم وصولة القانون

ثم يجب ان لا نخشى البدع لان كل تقدم يتطلب الايمان ببدعة أو على الاقل التسامح فيها . وتنازع البقاء يعمل في البدع كما يعمل في اي شيء آخر يبقي على الحسن ويبيد منها السيء . والانسان جامد بطبيعة عمرانه فهو ليس في حاجة الى قوانين تحرسه من البدع . فان الوسط والتربية واللغة والثقافة والعادة كلها تعمل للجمود لانها كلها تلفت نظر الانسان الى الماضي وتبسط حوله قيوداً من حيث لا يشعر تربطه بالاساليب القديمة وربما كان اكبر مايعمل للجمود هو اللغة فانها بألفاظها الموضوعة تسومنا التفكير في طرق خاصة لا سبيل

للخروج منها الا للاقلين . ولغة الامة وتاريخها وثقافتها الماضية وتقاليدها هي لها بمثابة ناموس الوراثة للجسم الحي لايستطيع أن يخرج عنه الا خروجاً يسيراً هو اصل التطور والرقي . ومعنى كلامنا ان نظام الامة الاجتماعي يعمل للجمود ويساعد عليه فهي اي الامة ليست في حاجة الى قوانين تدافع عن هذا الجمود فيجب لذلك أن نترك الناس يبتدعون في السياسة والاجتماع والاداب والاديان، فلعل في ابتداعهم مايرقيها الى صف الكيمياء والفلك والميكانيكيات التي توشك أن تبيد الحضارة . ومن البلاهة أن يقال ان روحانية الانسان غير قابلة للتطور والرقي، فهذا الحكم لو كان صحيحاً لوجب أن نتوهم ونوهم الناس كذلك عدم صحته لمصلحة النوع البشري



خصلتان في الادب العربي

حب القديم وكثرة الصنعة

للقديم حرمة في الشرق اكثر مما له في الغرب . فبلاد الشرق هي بلاد السلف يحكمونها وهم في قبورهم بآدابهم وتقاليدهم وشرائعهم وليس للخلف الراهن سوى الاذعان . وهذا هو ما نراه على أقصاه في الصين حيث للسلف حرمة تشبه العبادة . ثم نرى هذه الحرمة تضعف بالتدريج الى أن تصل الى تخوم أوربا فتكون على أضعفها . وللسلف حرمة عند العرب نرى أثرها في الآداب العربية . وهي وان لم تبلغ عندنا ما بلغته في الصين فان أثرها لا يزال بيّناً في تطورنا البطيء الراهن بل في تطور الامم العربية الماضية التي كانت تقدس سِيَرَ أسلافها . ولست في حاجة الى ذكر صنوف الجمود التي طرأت على الحكومة والهيئة الاجتماعية والاخلاق عند الامم العربية الماضية للزومها السنن التي استنها لها السلف وانما أذكر هنا بعض ما أصاب الآداب العربية من الجمود لهذه الخصلة . فقد قال ابن قتيبة يصف ما يجب على الاديب المتأخر أن يتوخاه في أدبه فقال :

« ليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين فيقف على منزل عامر ويبكي عند مشيد البنيان ، لان المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم

العافي . او يرحل على حمار او بغل فيصفهما ، لان المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير . أو يرد على المياه العذبة الجواري ، لان المتقدمين وردوا على الاواجن الطوامي . أو يقطع الى الممدوح منابت النرجس والورد والآس ، لان المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرار »

فمن هذه القطعة المقتبسة يدرك القارىء احدى خصائص الادب العربي وهى نزعته الى القديم واحترامه للسلف بما يكاد يبلغ حد العبادة . ولذلك تجد الان من أدبائنا من يترك خياله الشخصي ويقترض خيالات القدماء فيضمنها قصائده . بل منا من يبدأ مديحه بالتغزل الكاذب بطيف الحبيب على نحو ما كان يفعل قدماء العرب ، ثم منا أيضا من يقصر شعره على المقاصد التى قصد اليها العرب من مدح وهجاء ووصف لايخلو من ذكر العيس والبيد وقد يكون الكاتب قد عاش طول حياته في مدينة لم ير فيها العيس أو البيد . وربما كانت هذه الخصلة هى سبب كراهة أدباء العرب لآداب الاغريق فقد كان فيها اشياء يمكن اصطناعها ولكن نزعة الجمود — أى ماللقديم من حرمة — منعت هؤلاء الادباء من استنان اية سنة جديدة في عالم الادب العربي . ولذلك بقي الشعر في أيام الدول الاسلامية المتقدمة والمتأخرة كما كان ايام الجاهلية على الرغم مما طرأ عليه من ترقيق الحضارة

وخصلة أخرى في الادب العربي هي الاغراق في الصنعة . وهذه الخصلة بحكم ما ذكرناه آنفا من احترام القديم لاتزال حية بين أدبائنا . فالمنفلوطي لم يبلغ من الشهرة ذلك المدى البعيد الا لجمال صنعته

وتوخيه دس العبارات القديمة في ثنايا انشائه . والرافعي والمازني كلاهما لايبالي بشيء بمقدار ما يبالي بالصنعة . ولو كانت هذه الصنعة في توخي الدقة لما كان يمكن الاعتراض عليها . فان دقة التعبير هي في اعتقادي غاية الغايات في اللغة . وهي هم كل كاتب مخلص يود أن يفضي الى القارىء بحقيقة فكره ويتعمل لهذا الافضاء وقلما يبلغ غرضه . وانما كان القصد من الاغراق في الصنعة ، وهو لايزال للآن ، قائما على الزينة والبهرجة . وليس من شأن هذه الصنعة أن تزيد الدقة في المعنى أو تقربه للقارىء بل هي تؤدي الى نقيض ذلك اذ تشوش ذهنه بألفاظ لالزوم لها

وهاك ما يقوله ابو هلال العسكري :

« وليس الشأن في ايراد المعاني . لان المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي وانما هو في جودة اللفظ وصفائه ، وحسنه وبهائه ، ونزاهته ونقائه ، وكثرة طلاوته ومائه ، مع صحة السبك والتركيب ، والخلو من أود النظم والتأليف ، وليس يطلب من المعنى الا أن يكون صوابا ، ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وصفناه من نعوته التي تقدمت »

وقال أيضاً :

« المعاني مشتركة بين العقلاء فربما وقع المعنى الجديد للسوقي والنبطي والزنجي وانما تتفاضل الناس في الالفاظ ورصفها وتأليفها ونظمها »

وقال الآمدي في كتابه الموازنة :

« وليس الشعر عند اهل العلم به الا حسن التأني وقرب المأخذ واختيار الكلام ووضع الالفاظ في مواضعها ، وان يورد المعنى باللفظ المعتاد فيه المستعمل

في مثله وأن تكون الاستعارات والتمثيلات لائقة بما استعيرت له وغير منافرة لمعناه فان الكلام لايكتسي البهاء والرونق الا اذا كان بهذا الوصف »

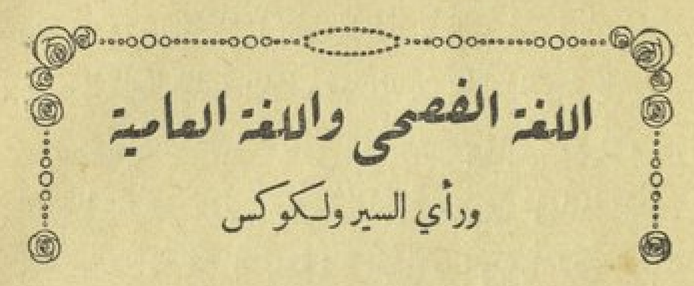
الى ان قال :

« فان اتفق مع هذا معنى لطيف أو حكمة غريبة أو أدب حسن فذلك زائد في بهاء الكلام وأن لم يتفق فقد قام الكلام بنفسه ، واستغنى عما سواه »

ومن هذه الاقتباسات يرى القارىء أن الآمدي وأباهلال العسكري يعنيان باللفظ أكثر من عنايتهما بالمعنى . وقد صار هذا من تقليد الادب العربي حتى جاء وقت غمرت فيه الصنعة كل شيء واصبح الادب مجموعة ألفاظ عالية الرنين سخيفة المغزى والمعنى

فهاتان اذن هما خصلتان اتسم بهما الادب العربي من قديم ولهما كلتاهما أثر في أدبنا الحديث . فاحداهما تمنع الادب من التجدد وتجعل الاديب يتلفت على الدوام الى الوراء يستوحي الماضي بدلا من أن ينظر بعين الرجاء الى المستقبل او بعين الثقة الى نفسه . والاخرى تدفعه الى بعثرة قواه في تحفظ الالفاظ الفخمة والعبارات الجزلة وفي اصطناع أسلوب مقترض غير أسلوبه الشخصي فيذهب المعنى والمغزى فداء لبهرجة سخيفة تؤذي القارىء والكاتب معاً وتضعف في كل منهما ملكة التفكير الصريح النير

هذه بعض خواطر عنت لي بعد قراءة رسالة مفيدة لخليل مردم عن شعراء الشام في القرن الثالث وعنايتهم بالالفاظ



اللغة الفصحى واللغة العامية

ورأي السير ولكوكس

السير وليم ولكوكس أحد أولئك الاجانب القلائل الذين تقر مصر بفضلهم وولائهم . فقد احدث من مشاريع الري ما عاد على الفلاح من الثروة بما لا يقل عما عاد عليه من استنتاج المسيو سكلاريدس للبذرة المسماة باسمه . فكلا الرجلين ذو فضل علينا لا ينسى وحق يجب أن يرعى . ولكن السير وليم ولكوكس ليس مهندساً فقط يفكر في الطين والحجر ويعمل بالمسطرة والبركار بل هو أيضاً رجل خيال ورؤى وأحلام يفكر في مستقبل الناس ولعل له « طوبى » ينشرها على الناس يوماً ما فيرسم لهم فيها نظاماً جديداً للحكومة والتربية والزواج وغير ذلك من المثل العليا للهيئة الاجتماعية التي يحلم بها . واعتقادي أن السير ولكوكس من عظماء الهندسة لانه يجمع بين صوفية الاديب ودقة العالم

وهموم السير ولكوكس مصرية اكثر مما هي انجليزية. فهو يقيم في مصر ويفكر في مصالح مصر لان مصر هي وطنه الثاني ولأنها كانت أيضاً الواسطة التي تمكن فيها من استغلال مواهبه في خدمة الناس

وزيادة رفاهم . والهم الكبير الذي يشغل بال السير ولكوكس بل يقلقه هو هذه اللغة التي نكتبها ولا نتكلمها فهو يرغب في أن نهجرها ونعود الى لغتنا العامية فنؤلف فيها وندون بها آدابنا وعلومنا

والتأفف من اللغة الفصحي التي نكتب بها ليس حديثاً اذ هو يرجع الى ما قبل ثلاثين سنة حين نعى قاسم أمين على اللغة الفصحي صعوبتها وقال كلمته المشهورة : « أن الاوربي يقرأ لكي يفهم أما نحن فنفهم لكي نقرأ » أو ما معناه ذلك . وقد اقترح أن يلغى الاعراب فتسكن اواخر الكلمات كما يفعــل الاتراك . وقام على اثره منشيء الوطنية المصرية الحديثة أحمد لطفي السيد فأشار باستعمال العامية أي لغة العامة. ولكن هؤلاء العامة الذين انتصر للغتهم كانوا من سوء القدر لانفسهم بحيث تألبوا عليه وجازوه جزاء لا يأتى الا من العامة الذين لا يدرون مصالحهم . وفي العام الماضي حدثت في سوريا مثل هذه الحركة فألف فاضل رسالتين دعا فيهما الى اصطناع العامية السورية بدلا من اللغة الفصحى واستند في دعوته الى أن اللغة العامية أوفى تعبيراً وأدق معاني واحلى الفاظاً من اللغة الفصحى . وقد هبت الصحف السورية والفلسطينية حتى العراقية تقبح رأيه وتنسبه الى ضعف الحمية الوطنية مع أن للنطق أحرى بأن ينسبه الى قوة هذه الحمية التي غلبته حتى اخرجته من شيوعية القومية العربية وحصرته في حدود الوطنية السورية

ولست انقم على اللغة الفصحى الا شيئين . أولها صعوبة تعلمها

وثانيهما عجزها عن تأدية أغراضنا الادبية . أما من حيث الصعوبة فانه يكفي أن نقول اننا نتعلمها كما نتعلم لغة اجنبية وأن احسن كتابنا يخطيء فيها لا اقول عشرات الاغلاط وانما أقول مئات الاغلاط واننا مهما تعنينا وتوخينا الصحة فاننا لعدم اشرابنا روحها و بعدنا عن قياسها لا نزال نرتكب الهفوات فيها . وفي العام الماضي اتهمني واحد ممن يعدون اللغة والقرآن وحدة لا تنقسم بأني لا أحسن الكتابة بها فأجبته بأن هذه التهمة حجة على اللغة وليست هي بالحجة علي . فاني الآن في العقد الرابع من عمري احترف الكتابة منذ عشر سنوات وأقرأ من كتب الادب مهجورها ومنشورها فاذا كنت بعد ذلك أعجز عن الاداء بها فهي اذن أحق باللوم مني ونحن جديرون بأن نبحث عن لغة أخرى نؤدي بها أغراضنا بدلا من هذه اللغة التي تقتضي من الدرس عشرات السنين ثم لا يحسن بعد ذلك دارسها كتابتها . ولكن الواقع الذي لا أناقش فيه أن اللغة العربية يشق على الطالب تعلمها . وطلبتنا مكدودون في المدارس يكدحون لفهم المئات من قواعدها ويخرجون بعد ذلك منها وهم يكرهونها لأنهم لا يرون طائلا وراءها

ثم هي أيضاً لا تؤدي أغراضنا . وقد كانوا يعلمون العلوم في مدارسنا الى عهد قريب بالفرنسية أو الانجليزية ولا يزال الطب يعلم بالانجليزية . ولكن الاغراض العلمية يسهل اداؤها بأي لغة بل يمكن اداؤها بالرموز أحياناً . ويكفي أن نعرّب الاسم الاوربي بلا ترجمة

فنبلغ غايتنا من فهمه . ولكن نكبتنا الحقيقية هي أن اللغة العربية لا تخدم الادب المصري ولا تنهض به . لان الادب هو مجهود الامة وثمرة ذكائها وابن تربتها ووليد بيئتها فهو لا يزكو الا اذا كانت اداته لغة هذه البيئة التي نبت فيها . « فالدرامة » مثلا لا يمكن بأية حال من الاحوال أن تنشأ مالم تستخدم اللغة العامية . وكذلك القصص بل الادب الاوربي كله يبتدىء تاريخه من الوقت الذي عمد فيه الادباء كل الى لغته فكتب بها وهجر اللاتينية التي كانت لغة أوربا جمعاء

ومما يمكن أن ينقم على اللغة الفصحي أيضاً انها تبعثر وطنيتنا المصرية وتجعلها شائعة في القومية العربية . فالمتعمق في اللغة الفصحي يشرب روح العرب ويعجب بابطال بغداد القدماء بدلا من أن يشرب الروح المصرية ويدرس تاريخ مصر . فنظره متجه أبداً نحو الشرق وثقافته كلها عربية شرقية مع اننا في كثير من الاحيان نحتاج الى الاتجاه نحو الغرب . والثقافة تقرر الذوق والنزعة وليس من مصلحة الامة المصرية أن ينزع شبابها نحو الشرق . وانه لانفع لنا وللشرق أن ينزع هو الينا لا أن ننزع نحن اليه

وربما كان مما ينقم أيضاً على اللغة الفصحي تلك الرنة العالية التي تجدها في الفاظها والتي كثيراً ما تطوح بسببها الكتاب حتى وقعوا في الاسجاع . وبعض كتابنا يستهويه للآن رنين الالفاظ فيكد ذهنه عند استهلال المقال في ايجاد جملة سجعات وينثر في غضون مقاله فقرات مسجعة محفوظة من الهمذاني أو الحريري أو

غيرهما ممن نكب بهم الادب العربي، يعتقد أن هذا اللعب السخيف يظهر الناس على تفوقه في الانشاء . ولكن الحقيقة أنه في ذلك يزنى على ذهنه ويبيع قلبه لمن لا يحبه . ومنذ اعوام قلت أن أفضل أساليب البلاغة هو الاسلوب التلغرافي لأنه يمنع المنشيء من التهتك بالالفاظ والانغماس في طربها الوحشي الذي يشبه طرب الجمال بالحداء ، فعاب علي هذا الرأي بعض كتابنا وابو الا الاستمساك بالاساليب القديمة والاقتداء بالجاحظ والجرجانى والخوارزمى يرطنون مثلهم رطانة عربية

ولكني الآن بعد اختمار الرأي لا ارى أن نهضتنا تقوم الا باتباع آراء قاسم امين ولطفي السيد والسير ولكوكس باتخاذ اللغة المصرية العامية أو بايجاد ما يشبه « التسوية » بينها وبين اللغة الفصحى بحيث تمصر هذه اللغة فتصطبغ بالوان بلادنا وتتأقلم في حقولنا ومدننا

والسير ولكوكس لا يقول بهذا التسوية انما يدعونا الى هجرة اللغة الفصحى هجرة تامة واصطناع العامية. وقد ترجم هو نفسه الانجيل الى اللغة العامية المصرية فوفق فيه الى ترجمة حية يقرؤها المصري فيلذ له الاسلوب ويرى فيه جواً مألوفاً يشم منه النكهة البلدية . وهو في اعتقادي أوقع في النفس من الانجيل المترجم الى اللغة الفصحى

وقد خطب منذ أشهر خطبة عن هذه اللغة جمع فيها اختباراته عنها وارتأى فيها ان هذه العامية التي نتكلمها في مصر ليس لها علاقة بالعربية الفصحى . فكل منهما لغة متميزة عن الاخرى . ونحن لم نكتسبها عن العرب وانما نزلت الينا من الهكسوس الذين أقاموا في

مصر نحو ٥٠٠ سنة وان طريقة النفي المزدوج حين تقول : « أنا ما عملتش » هي طريقة لا يعرفها العرب وانما جاءتنا من الهكسوس الذين انتشرت لغتهم في أقطار عديدة حول مصر حتى بلغت مالطة . وهذه اللغة تعبر الآن عن مزاجنا وتقوم بالمعاني التي تختلج في اذهاننا . أما اللغة الفصحى فهي « الهيروغليفية » التي يترجم كتابنا وطلبتنا اليها خواطرهم وافكارهم كما ينقلونها احياناً الى الانجليزية أو الفرنسية ويرطنون بالفاظها المحفوظة من الكتب

قال السير ولكوكس : « يسهل علينا ان نرى الاثر المخدر الذي تحدثه الالفاظ الرنانة التي لا تفهم منها لفظة واحدة في نفس السامع . وسماع مثل هذه الالفاظ يقتل في الذهن كل ابتكار بين أولئك الذين لايقرؤون كما تقتله ايضاً في نفس الطالب تلك الدروس التى تلقى عليه باللغة الفصحى المصطنعة التي تبلغ الرأس دون القلب فتمنع من يتسمون العلماء في هذه البلاد من التفكير البكر . فقد عشت في مصر اربعين سنة فلم أجد فيها مصرياً يفكر فيها تفكيراً حراً . فان قوة المصريين الذهنية يستنفدها على الدوام جهدهم في أن يترجموا ما يقرؤونه باللغة الفصحى الى اللغة المصرية المألوفة ثم هم عند الكتابة يترجمون ما فهموه بهذه اللغة الى اللغة الفصحى . وهذا العمل ضرب من التسخر الذهني . . . »

وأيضاً : « قضيت عشر سنوات حين كنت في خدمة الحكومة المصرية وأنا أشرف على مدرسة الهندسة وأمتحن طلبتها وكنت

أجد بين الطلبة من يعدون حقاً من الاذكياء ولكنهم كانوا يسيرون في دروسهم ببلادة لانهم كانوا يقرأونها باللغة الفصحى المصطنعة وليس باللغة المصرية الحية . وكانوا لا يجدون أدنى مشقة في فهم الرياضة النظرية ، فاذا طولبوا بالتطبيق عادت اليهم روح التسخر الذهني . وكان ذوو الذكاء الواعد ينتهون في الآخر الى لا شيء . .
وأقول هذا عن أصدقاء ومعارف كان يمكنهم أن يتبوأوا مراكزهم بين مهندسي العالم في الاقطار الاخرى لولا انهم كانوا يفكرون بلغة ويكتبون بأخرى . اجل أن اللحم والدم لا يستطيعان كل هذا المجهود . وربما كانا يستطيعانه لوكان لكل منا رأسان ولكن الواقع أن لكل منا رأساً واحداً وهذا الرأس المسكين لا يجد له مجالا في مصر . فلقد عرفت في هذه البلاد طالبين ذكيين كان في وسعهما أن يظهرا في هذا العالم ويتركا طابعيهما فيه لو انه قدر لهما أن يكتبا باللغة التي كانا يتكلمان بها كما نفعل نحن الغربيين ولله الحمد في غرب أوربا ووسطها وفي امريكا وفي سائر الاقطار حيث يفكر الناس ويبتكرون ويؤدون عمل الله على هذه الارض »

وأيضاً : « في السنين الاولى للاحتلال الانجليزي حدث خطأ في قراءة خطاب انتهى بحدوث انبثاق في قناة من قنوات الري . وعند التحقيق قال مهندس المركز ان رئيسه أرسل اليه خطاباً لم يستطع

أحد في البلاد قراءته . ولما سئل الرئيس أجاب ان مدارس الحكومة تجعل من الطلبة مواشي حتى انهم لا يفهمون العربية الخالصة التي يكتب بها خطاباته . فالى هذا المدى المؤسف يبلغ بالناس حب اللغة في هذه البلاد »

ولست في حاجة الى ايراد اكثر من ذلك من خطبة السير ولكوكس . فما وجده هو وهو اجنبي يجده الوطني المصري ويشعر به اكثر منهما الاديب المصري . ولست اشك في ان اللغة العامية تفضل اللغة الفصحى وانها تؤدي اغراضنا الادبية اكثر منها . ولكننا لم نبلغ بعد الطور الذي يمكننا فيه ان نطفر هذه الطفرة ، الا ان هذا لا ينبغي ان يمنعنا من ايجاد تسوية بين اللغتين الفصحى والعامية بالغاء الاعراب مثلاً واستعمال بعض الالفاظ العامية

وهذه التسوية لا ترضي بالطبع السير ولكوكس وامثاله ولا هي ترضي ايضاً معظم ادبائنا . وانا اقول للفريق الاول انه لم يظهر بعد بيننا اديب يستطيع ان يسوم الامة اللغة العامية كما فعل رابليه حين الف كتاباً لاول مرة في اللغة الفرنسية سنة ١٥٣٢ وهدم بذلك مأثور اوربا الذي عاش اكثر من الف عام . واقول للفريق الثاني اني لا اعرف لغة عاشت كما هي منذ الازل . واللغة العربية لن تشذ عن ذلك وقد آن لها ان تتطور . واقول للقراء اننا للآن نرطن اللغة الفصحى رطانة ولم تُشربها بعد نفوسنا ولا امل في ان تُشربها لانها غريبة عن مزاجنا . وقد عانيت الترجمة الى اللغة الفصحى عدة سنوات

فما رضيت مرة عن نفسي وارتضيت الترجمة · فانما نحن نؤلف ونعتقد او ندعي اننا نترجم وذلك لان هذه اللغة الفصحى هي لغة بدوية . والثقافة هي بنت الحضارة وليست بنت البداوة، فلهذا يشق علينا جداً أن نضع معاني الثقافة في هذه اللغة سواء بالترجمة أم بالتأليف .





فى فلسفة اللباس

فكر بعض أفراد الشبيبة المصرية حديثاً فى اختراع زي مصري خاص لنا يصنع من منسوجات وطنية . وقد رأيت بهذه المناسبة أن أدلي بهذه الملحوظات

فاما ترقية الصناعة من منسوجات وغير منسوجات فهذا ما يجب أن يوافق عليه كل مصري ويدعو الى ترويجه ولو كان في ذلك بعض الخسارة عليه . وأما تغيير الزي الافرنجي الحديث فهذا مالا يمكن احداً عاقلا متمديناً متهذباً أن يوافق عليه

وذلك لأن اللباس الذي نلبسه الآن والزي الذي نتزيا به هما ثمرة الحضارة الراهنة التي غمرتنا فى سبيلها واكتسحت امامها تقاليدنا القديمة ، فاثبتت بذلك جدتها وبلى هـذه التقاليد . ونقول بعبارة أخرى انه قد حدث « تنازع بقاء » بين هذه الحضارة الحديثة وهذه التقاليد العتيقة فانهزمت التقاليد وفازت الحضارة . وكان فوزها دليلا على صلاحيتها

واللباس يتمشى مع العمارة والاثاث . فاذا فشا شكل جديد في

العمارة رأيت اثره في اللباس وفي اثاث المنازل . وسبب ذلك أن الذوق الذي يستحسن شكلا خاصاً فى العمارة هو نفسه الذى يستحسن مثل هذا الشكل في الاثاث أو اللباس

فاذا كنا نستسحن المنارة الدقيقة الرفيعة فاننا لا شك نستحسن الرجل الطويل النحيف . فاذا صار هو مثلنا الاعلى صرنا نلبس من الالبسة مايقربنا الى شكله من صدرية تحزق الوسط الى رداء محبوك

واذا كنا نستجمل الدار القوراء يتوسطها صحن رحب صرنا نستجمل الرداء الفضفاض كالجبة أو ما شابهها

واذا كنا نحب سذاجة الاغريق في تماثيلهم صرنا نطلب مايشبه هذه السذاجة فى نسائنا

وكذا الحال في اثاث المنازل نصنعه لكي يشاكل عمارتنا ولباسنا فاذا كان البناء ضخماً كان الاثاث ضخماً . وهلم جراً

فالعبرة بالذوق. فاذا كنا نستجمل الضخامة في اللباس استجملناها أيضاً في العمارة وفي الاثاث . واذا كنا نهوى الدقة والسذاجة في العمارة فاننا لن نفقدهما في اللباس والاثاث

وكل هــذا ينعكس اثره على الانسان نفسه . فاذا كان رجال الفن من مثالين ورسامين و بنائين في أمة يعمدون الى الدقة والسذاجة في بناء البيوت وصنع التماثيل ورسم الصور انعكس هذا الذوق على الامة باجمعها فصارت تطلبه فى ملابسها واثاثها بل في اجسامها . لانها حينئذ لا تستحسن من الاشخاص رجالا كانوا أم نساء إلا من

نحفت اجسامهم ولا تهوى من اللباس إلا الساذج المحبوك على الجسم ولا تهوى من الاثاث إلا ما خلا من ضروب التعمل والتكلف

ومن هنا فائدة الاديب كائناً ما كان فنه الذي يمارسه فاذا كان هو رفيعاً رسم للامة مثلا عليا تنعكس عليها وتطبعها بذوقه . ففنه عندئذ يرفعها

ومن هنا يمكن القارىء أن يستنتج الاثر الذى يحدثه اللباس الشرقي الرحب الذى يلبسه الصينيون والهنود و بعض العرب و يقرنه الى العمارة الفاشية في بلاد هؤلاء . ثم يقابل كل هذا باللباس الغربي المحبوك الذي يحزق البطن و يقرنه الى العمارة الفاشية عند الغربيين . فعند الشرقيين الذين ذكرناهم منازل قصيرة قوراء واجسام سمينة . وعند الغربيين منازل عالية ضيقة واجسام نحيفة طويلة

واللباس ايضاً كالعمارة دليل الحالة الاجتماعيــة . فاذا كانت الامة ديمقراطية كانت أجور عمالها عظيمة ولذلك لا يمكن أن نجد التطعيم في اوربا لا في العمارة ولا في اللباس ولا في الاثاث . لأن التطعيم يحتاج الى كد كبير دون الحاجة الى مهارة كبيرة، فعامله يشتغل كثيراً ولا يحصل إلا على اجر صغير . ونحن هنا في مصر نكلف ارخص عمالنا (في الصعيد) بتطعيم اللباس بالتلي للسيدات كما نطعم أيضاً بعض الاثاث . وقد رأيت في بعض دور طنجة في مراكش أنهم يطعمون سقوف منازلهم، ولا بدع فانه لا يزال عندهم عبيد ارقاء، وقد وجدت في مدفن توت اخ آمون اثواب مطعمة (ملبسة)

وقد قال هربرت سبنسر أن الاصل في اللباس هو الزينة لا الفائدة . وهو لا يزال كذلك عند الهمج وعندنا أيضاً الى حد ما . فقد انفقنا نحن في مصر نحو ٧٥٠٠٠٠ جنيه على رباط الرقبة في عام واحد مع اننا نعرف انه أداة زينة لا فائدة منه . وكان ابو الطيب المتنبي يلبس نحوعشرة أثواب في أشد الاوقات حراً ويكلف نفسه هذه المشقة لكي يظهر بمظهر الوقار والجلال . ولكن كلما ارتقى الناس قلّ اعتبارهم للزينة وقدروا الفائدة . فبعض النساء الاميركيات والانجليزيات يقصصن شعورهن ولا يعلقن الاقراط في اذانهن ولا يتزين بالعقود أو الاساور وكذلك لايلبسن المشد أو الاحذية ذوات الكعب العالي

وللباس تأثير نفساني في الانسان . ولنذكر أن عمر بن الخطاب خلع عن نفسه لباساً رومانياً فخماً لأنه شعر منه بخيلاء لم يشعر بها قبلا وعاد الى لباسه البدوي حتى تعود اليه سذاجة نفسه . وعلى هذا القياس يمكننا أن نقول أن العقلية الاوربية يسهل على الافندي أن يتقمصها كما يتقمص اللباس الاوربي اكثر مما يسهل ذلك على الشيخ . وهي أسهل على « المتفرنج » الذي يلبس القبعة مما هي على الافندي لهذا السبب نفسه

وعلى هذا القياس أرى لغرامي بالحضارة الاوربية ، وهي حضارة العالم أجمع الآن ، ان احث بني وطني على ان يلبسوا القبعة دون

الطربوش . لا لانها تقينا من الشمس والمطر وهو لا يقينا بل لانها تبعث فينا العقلية الاوربية

واللباس يصنع الانسان كما قال شكسبير . واحيانا يدعوه نوع اللباس الذي يلبسه الى الخمول او الى النشاط . فاللباس الاوربي يساعد الاوربيين على النشاط ولا يوافقهم على الاضطجاع والاستسلام للخمول كما يساعدنا الجلباب الواسع . والواقع ان جلبابنا هو لباس النوم عندهم وهو أيضاً لباس النساء . والمرأة أقل نشاطاً من الرجل . ولعل هنا علة من علل خمول الشرق ، او قل ان هـذا الجلباب الواسع الذي يدعوه الى الخمول والدعة هو نفسه نتيجة مزاجه الذي يولده الحر في نفسه من حب الدعة





الشباب وناموس التحول

جرثومة الفساد في بذور الاصلاح

أهم صفة في الاجسام الحية هي تحولها المستمر . بل ربما كانت هذه أهم صفة في الجماد أيضاً وأن كان ايضاحها يدق على افهامنا وحواسنا . وصفة التحول هذه ظاهرة في الاحياء لا تجد نباتاً أو حيواناً على حال واحدة في دقيقتين متواليتين . فالحي دائم التمثيل والافراز والنمو ، لا تني ذراته عن التجدد والاندثار . فهو في هذه الساعة يختلف عما كان قبل ساعة وسيختلف عما سيكون بعد ساعة أي انه في تحول مستمر. والتحول اذا اطرد وتمادى عليه الزمن صار تحوراً كالجلد « يتقرن » اذا كثر احتكاكه . والتحور اذا اطرد وتمادى عليه الزمن في جملة اجيال متتابعة صار تطوراً كالسلالة الداجنة من الحيوان تنشأ من سلالة برية قديمة

فالتحول هو ناموس الحياة الرئيسي واليه تستند جميع نواميس الحياة الاخرى التي هي في الحقيقة صورة اخرى منه . فاذا قلنا أن

التمثيل أوالنمو هما من نواميس الحياة، فاننا لا نعني أكثر من قولنا أن التحول قد يكون أحيانا بالتمثيل وأحياناً أخرى بالنمو

ومن هذه الطبيعة العجيبة تنشأ لدينا صعوبة وضع القواعد للحياة وخاصة للحياة العليا التي تتجلى في الانسان وجماعاته . فالقواعد والقوانين والمؤسسات كلها جامدة ثابتة وحياة الانسان مرنة في تحول لا يقف لحظة . وكلاهما لذلك في تناقض

وعلى هذا نقول أن الانسان على الدوام في صراع مع مؤسساته هو صراع مرونة الحياة مع جمود القاعدة . ولكن التحول نفسه يحتاج الى قواعد لانه عند ما تتفاقم الحالة بين قاعدة قديمة وتحول جديد نحتاج الى إيجاد قاعدة جديدة لكي نمكن الناس من السير في منهج جديد

ومن هنا كانت فائدة المصلحين والانبياء والمشترعين والفلاسفة يؤسسون المؤسسات والقواعد العمرانية ويغرسون في الناس العوائد الجديدة . ولكن من هنا أيضاً كان ضرر هذه المؤسسات والقواعد والعادات لانها وأن كانت قد أصلحت في الاول فانها بدورها تجمد أمام مرونة الحياة فتعوقها عن التقدم . ومن ذلك يمكنك أن تقول أن جرثومة الفساد اصيلة في كل اصلاح . فما من مؤسس أو قانون أو عادة يقصد بها خير الناس الا والشر كامن فيها والضرر يعود عليهم منها في وقت من الاوقات

ولكن مع كل ما قلناه لا يمكن الناس أن يعيشوا بلا نظام .

والنظام يقتضي وجود المؤسسات والعادات . انما المهم ألا نمسح عليها مسحة القداسة بحيث تكتسب حرمة تمنع الناس من ارتياء الآراء فيها وتغييرها وتبديلها عند اللزوم . فيجب أن يكون الناس احراراً في تبديل قوانين الحكم والزواج والطلاق والتربية والامتلاك وسائر ما يؤثر في حياة الفرد أو السلالة . وذلك لكي نجعل هذه الاشياء تجاري الحياة في تحولها أو على الاقل تابعها لانها لم تخرج عن أن تكون آراء قديمة لاحد الناس أو لجماعة منهم حاولوا أن يبلغوا الحقيقة . وحقائق هذا العالم ليست مطلقة بل اغلب الظن أن الحقائق تتطور كما تتطور الاحياء فليس شيء جدير بالتقديس والتضحية في هذا العالم غير حرية الرأي لانها هي وحدها الوسيلة لان تجعل عادات الانسان ومؤسساته تابعه ولا تعوقه . فأول ما يجب أن يتجه اليه نظر مصلح في مصر أو غير مصر من اقطار الشرق العربي هو الحصول على حرية الرأي وسائر ما يتفرع من هذه الحرية كحرية الخطابة والاجتماع والصحافة لأن هذه الحرية تكفل بتصادم الآراء تمحيص الافكار وتبديل المؤسسات والعادات وفقاً لتحول الحياة

بقي أن نقول ان شباب الامة أوفق لحريتها وأقبل لسياسة التحول من شيوخها . لان العادة تثبت وترسخ بنسبه طول ممارستها وليست المؤسسات والقوانين الا عادات أكثر رسوخاً في الشيوخ منها في الشباب لانهم أطول عمراً واكثر ممارسة لها · ولهذا السبب يتهم الشيوخ بحق بانهم جامدون ويتهم الشباب بالطفرة · وليست

الطفرة في الحقيقة سوى عدم احترام العادات الماضية . ولكن الطفرة على كل حال خير من الجمود وخاصة في مثل قطرنا وفي مثـل وقتنا حين نجـد كثيراً من العادات الاسيوية تكاد تزهق أرواحنا وتعمل لابادتنا أمام الحضـارة الاوربية التي تغزونا بشراسة الظافر واستكلاب القوى

وأظن اني أقرر الواقع حين أقول ان نهضـة تركيا تعزى الى الشباب وانها أقيمت على الرغم من الشيوخ . وليس هذا مدحاً لها وانما هو كما قلت تقرير للواقـع الذي يرويه المحتكون برجال أنقرة ومن البديهي أن تكون الحال كذلك . لانه من المحال ان يعيش انسان في عصر عبد الحميد ويألف عادات الحكم الاستبدادي في ذلك الزمن ويشيخ وهو يمارسها ثم يستطيع أن يطفر هـذه الطفرة الكبيرة التي قام بها شباب الاتراك الآن

ولا حياة للشرق العربي الا بأن يسلم مقاليد أحكامه لشبابه





تحليل عوامل الحب

ليس في عواطف الانسان ما هو افعل في شخصيته من العشق فقد يشتد حتى يصل بصاحبه الى الجنون أو قد يدعوه الى الانتحار أو قد تبلغ الغيرة، وهي وجهة أخرى من وجهات العشق، الى أن تدفعه الى ارتكاب الجنايات العظمى في سبيل معشوقه . وليس بين العواطف ما هو أكثر تركبًا من العشق . ففيه نرى الانانية على أقواها ونرى روح الامتلاك تغمر صاحبها حتى ليظن ان محبوبته ملك له يتصرف بها كيف شاء كما نرى الايثار والتضحية حتى يعد المحب نفسه خادمًا لمحبوبته يضحي بكل نفيس من نفسه أو ماله لاجلها

والمتتبع لتطور العشق في الحيوان يرى فيه مثل ما يرى المتتبع لتطور العقل كيف ابتدأ من ظهور الحواس البسيطة الى أن انتهى بهذه المعاني المركبة في دماغ الانسان وهي التي ترتفع أحيانًا حتى تكاد تفشل أية محاولة لتحليلها . وكذلك الحال في العشق نرى فيه من

[نراها في]

معاني الاثرة والايثار ومن ادراك صور الجمال والقبح ما يصعب علينا رده الى تلك الظاهرة الجنسية البسيطة التي نراها في الإحياء الدنيا

والحيوان والنبات كلاهما لم يكن به في أول ظهوره أنثى وذكر منفصلان الواحد عن الآخر . ثم ظهر الجنسان ولكن التلاقح لم يكن يحصل باتصال الجنسين وانما بفرز الذكر الخلايا التناسلية في الماء فتلتقي بالبيض الذي تفرزه الانثى ويحصل التلاقح . وفي مثل هذه الحالة لم يكن ثم مجال للعشق أو الاحساس به . . وهناك بعض الحيوانات كالحلازين والسراطين يحتوي الفرد منها ، كما يحتوي بعض النبات كالذرة والقطن ، على خلايا الذكر التناسلية وبيض الانثى . وهنا أيضاً ليس مجال للعشق

وانما تبدو بوادر العشق عند انفصال الجنسين وعند سعي أحدهما أو سعيهما معاً يبحث كل منهما عن الآخر . فهنا تبدأ معاني الجمال وترتقي متساوقة مع معاني العشق . ومن هنا يلحظ القارىء أن حقيقة الجمال تتطور مع تطور الحيوان فنحن نعتبر من الجمال بأعيننا وآذاننا صفات لا يعتبرها الكلب الذي يستند الى ما تلهمه اليه خياشيمه عند بحثه عن الانثى . وهذا القول يصح أيضاً عن الحشرات والحيوانات الدنيا أو بعضها لان الاحساس بالجمال يرجع أصله الى عاطفة العشق مهما تجرد هذا الاحساس من معنى الانثى . فقد يكون سبيله الى الادراك الفعلي حاسة العين أو الاذن أو الخياشيم أو الجلد نفسه . . ونحن أنفسنا على قلة اعتمادنا على حاستي اللمس والرائحة لا

يمكننا أن نستجمل امرأة مهما كان مرآها بهيًا لو اننا تصورنا انها خشنة الملمس أو كريهة الرائحة

والغريزة الجنسية أصل لاشياء عدة ارتقى بها الحيوان . فهي أصل الصوت الذي لم ينشأ الا لاهتداء الانثى والذكر . وهي على ذلك أصل اللغة والغناء وهي أصل روائح المسك والزباد في الغزال والقط . ثم هي فوق ذلك أصل العائلة في الانسان

فاذا نظرنا الى الحيوان وجدنا بذرة الجمال وعلاقته بالعشق . فالطيور مثلا لا تتطوس للانثى وتعرض عليها محاسن ريشها الا وقت التلاقح ، وهي أكثر ما تغني وتشدو في هذا الوقت أيضًا مما نفهم منه أن جمال الريش والصوت انما نشآ الحاقًا بالغريزة الجنسية وهذا ثابت في أكثر الطيور التي تفقد ريشها وصوتها عقب الخصاء

وأوجه الشبه بين عشق الانسان والحيوان كثيرة حتى ما يخرج منها عن المألوف ويشذ عن « الطبيعة » . فمن الناس من يقتصر على امرأة واحدة في الزواج ومنهم من يتزوج أكثر من ذلك . وكذلك الحال بين الحيوان . فالكركدن والاورنج اوتان كلاهما لا يتزوج الا واحدة مدى حياته . وأرقى أحوال العشق وأغربها أيضًا نجدها بالطبع في أقرب الحيوانات الينا وهي اللبونات والطيور . فهنا نجد الامانة في العشق حين يموت الزوج أحيانًا أسى وغمًا اذا أخذت منه زوجه . ونرى الانثى المستذكرة في بعض الطيور تقفز بعد التلاقح الى ظهر الذكر وتبقى عليه مدة مديدة كأن التعارف الجنسي لا يتم الا بذلك

وعواطف الرجل والمرأة في الحب تختلفان ولكن هناك كثيراً من المشابهة فيهما بدليل انتقال بعض الصفات الجسمية الجنسية من المرأة الى الرجل وبالعكس . ففي الرجل ثندوتان تشبهان ثديي المرأة وفي المرأة ينبت أحياناً شاربان . وبديهي أن هذه الصفات الخصيصة بالجنس لا تظهر الا ووراءها صفات ذهنية عصبية . وعلى هذا يمكننا أن نقول ان في كل رجل شيئاً من الاستئناث وفي كل مرأة شيئاً من الاستذكار . ولكن هناك وجوهاً عامة للخلاف في عشق الرجل وعشق المرأة . فالمرأة تستحسن من الرجال على وجه العموم الرجل الطوال القوي البنية البادي الصحة والرجل يحب من النساء على وجه عام المرأة الهيفاء الضامرة البطن المخصرة المتناسبة الملامح

هذا على وجه عام بحيث يشترك جميع الناس من أي الشعوب في هذه المعايير . ولكن لكل أمة مزاجاً خاصاً هو نتيجة بيئتها الاجتماعيـة والمناخية . فالزنجي يحب لمعة السواد في بشرة خطيبته وأهل نروج يقدرون دقة الانف . ويمكن أن نقول على وجه الاجمال ان معيار الجمال الخاص لكل أمة يتوقف على تلك الصفات التي تدل على كفاية الشخص بحسب ما تفهمه الامة من الكفايات . فالسمات العقلية ملامح تنم عليها في الوجه . ومن هنا تجد الامم على اشتراكها في صفات مجملة للجمال تختلف في صفاته الخاصة تبعاً للبيئة الاجتماعيـة والمناخية . فالانجليزي والزنجي كلاهما يعجب بالمرأة الطوال الهيفاء المتناسبة الملامح . ولكن الانجليزي يحب فوق ذلك البيضاء الدقيقة

الأنف والزنجي يحب السوداء المنفطسة الانف . وكل منهما يتبع في ذلك تلك الصفات التي تـدل على كفاية للمعيشة في البيئة المناخية التي يولد فيها

وعلى هذا يمكننا أن نقول ان هناك اعتبارات عالمية يشترك فيها بنو آدم في تقدير الجمال ، يلي ذلك اعتبارات خاصة بالبيئة حين يستجمل الانسـان تلك الصفات التي تدل على كفاية الشخص لبيئة بلاده

ثم يلي ذلك اعتبارات فردية أو ذاتية أخرى تدخل في اختيار الرجل للمرأة و بالعكس . فقد يعتبر احدهما صورة فنية للجمال لاحد الرسامين فتنطبع صورتها في ذهنه بحيث تتأثر بها عواطفه الجنسية فاذا اختار زوجته لم يخطب الا تلك الفتيات اللاتي يوافقن هذه الصورة وكذلك الحال في الفتاة تنشأ معجبة بابيها فترسم في ذهنها المثل الاعلى للرجولة على غراره . وقد تحدث في حياة الانسان حادثة يكره من أجلها طرازاً بعينه من الجمال لا لانه دميم في ذاته بل لان الحادثة بما استشعرت النفس من الكراهية لها تستشعر أيضاً الكراهية لهيئة الشخص بحيث اذا رأى شخصاً آخر له هذه الهيئة عينها كرهه وهو لا يدري سبب ذلك . وهذا هو في الاغلب سبب ما نشعر به أحياناً من ثقل روح احد الاشخاص وخفة روح شخص آخر دون أن نكلمهما



من أحسن وألذ ما قرأت هذا الاسبوع (١٩ اغسطس ١٩٢٥) ترجمة حياة ساندرسون كتبها الاديب المعروف ولز. وفي هذه الترجمة غذاء دسم للاذهان وخاصة لاذهان المعلمين

فقد كان ساندرسون ناظراً لمدرسة شهيرة انجليزية تدعى مدرسة اونديل تولي نظارتها وقد تدركت الى الانحطاط وتركها وهي قدوة المدارس في جميع أنحاء بريطانيا بل في جميع أنحاء العالم. وقد اختط خططا جديدة في التعليم وانتهج من المناهج ما يخالف المألوف حتى أقام عليه عاصفة من الاحتجاجات لم يلبث بعد أن ظهرت الفوائد التي يجنيها التلاميذ من هذه الخطط والمناهج ان هدأت وانقلب خصومه أنصاراً يؤيدونه ويدعون الى تأسيس المدارس على غرار مدرسة اونديل

وهذه المدرسة قديمة مضى على تأسيسها اكثر من خمسمائة سنة أسسها أحد الابرار ووقف عليها أوقافاً ولكنها منذ أقل من

أربعمائة سنة تولي إدارتهـا نقابة للبقالين وهم لا يزالون يشرفون عليها للآن

والتعليم في اوربا منذ بدء النهضة الحديثة قـد تدرج وتطور ولكن يمكن ان نستخلص من تطوره هذا ثلاث حقائق بارزة . فقد بدأت النهضة بالعناية باللغة الاغريقية واللغة اللاتينية ولا تزال هذه العناية ظاهرة في المدارس القديمة وكانت مدرسة اونديل إحـدى هذه المدارس . فكان عنوان التربية الحقة عند أبناء السادة ان يعرفوا هاتين اللغتين قراءة وكتابة بل تأليفاً

ثم لما كان القرن السابع عشر أخذ تعليم الرياضيات ، كما تمارس الآن في المدارس ، ينتشر . أي انه عند ما بدأ القرن التاسع عشر لم تكن مواد الدرس في المدارس الاوربية غير هاتين المادتين الرياضيات واللغات القديمة . ومضى اكثر القرن التاسع عشر على هـذه الحال ثم نزعت المانيا نزعة علمية عنيفة في المدارس حوالي أواخر القرن الماضي وبدأ رجال الصناعة في انجلترا يتوجسون شراً من المنافسة الالمانية ويبحثون عن أسباب الرقي الاقتصادي في المانيا ويعزونه الى تعليم العلوم في المدارس . وأخذ الرأى العام في انجلترا يميل الى تعليم العلوم بدلا من اللغات القديمة . وقد انتصر هذا الرأى الى حـد ما ولكنه لم ينتصر الانتصار كله إذ لا تزال للقـديم مكانته في جملة مدارس . ومما كان يجعل لتعليم اللغات القـديمة مكانة في المدارس ان الجامعات كانت لا تقبل أي طالب بها اذا كان يجهل هذه اللغات

ونقابة البقالين التي كانت تدير مدرسة أونديل هي هيئة قديمة وهي مؤلفة من تجار . وهي لذلك سريعة الاحساس بالمنافسة التجارية في العالم . فلما شاع في الربع الاخير من القرن الماضي ان المانيا تعلم العلوم في مدارسها وان هذا التعليم سيؤدي الى فوزها في الصناعة رأي بعض أعضاء نقابة البقالين ان يدخل هذه العلوم في مدرسة أونديل واشتد الحوار والمحاجة بين الاعضاء بشأن هذه البدعة ولكن انصار الجديد تغلبوا وكانت أكثريتهم واحداً فقط

وعين المستر ساندرسون منذ ثلاثين عاماً لكي يغير منهج الدراسة ويدخل تعليم العلوم فيه

هذه هي المهمة الاولى للمستر ساندرسون وقد نجح فيها اكبر نجاح . ولكن غيره فعل مثل ذلك في مدارس أخرى فليس فضله كبيراً من هذه الوجهة . وانما اكبر فضله انه غير خطة الدراسة واليك البيان :

كانت خطة التدريس في القرون الوسطى والى بعيد النهضة قائمة على الاجبار واستعمال العصا . ثم ظهرت مدارس اليسوعيين فتقدم التعليم على ايديهم تقدماً عظيما . بل هم اصحاب الفضل في نشر التعليم في اوربا بل ربما كانوا أول من أوحى الى الناس فكرة التعليم العام الاجباري . وكانت خطة اليسوعيين تنحصر في منع العصا وتحريك المنافسة بين التلاميذ بواسطة الجوائز ولا تزال هذه خطتهم التي عم اصطناعها في سائر المدارس . وجميع مدارس العالم الآن تجري على

* مبدأ اليسوعيين وهو مبدأ المنافسة بين التلاميذ اما للحصول على جائزة واما للحصول على درجة. ولكن ساندرسون حاول أن يغير هذا المبدأ ونجح في محاولته نجاحاً كبيراً. فانه بث بين التلاميذ روح التعاون بدل المنافسة القديمة. فكانت الفرق تشتغل في أى موضوع علمي أو أدبي فيختص كل فرد بفرع من الموضوع ويبحثه بنفسه مستقلا ثم تجمع أبحاث جميع التلاميذ وتقرأ عليهم فينتفع كل تلميذ بمباحث الآخر فعلاقة التلميذ باخوانه هي علاقة التعاون فهم ليسوا خصومه أو انداده الذين يجب عليه أن يفوز عليهم لكي ينال درجة أو جائزة بل هو يشعر انه عضو في هيئة كل أفرادها عامل معه لاتمام البحث فهو محتاج الى معونتهم كما انهم محتاجون اليه. وكل ما فيهم من نقص أو اهمال ينعكس أثره فيه فكل عضو مضطر الى أن يناصح سائر الاعضاء وان يخلص ويطلب نجاحهم ويعمل له

هذه هي الفكرة الجليلة الخطيرة التي اتجه اليها ساندرسون وحققها. والذي الهمه هذه الفكرة هو نظلم الهيئة الاجتماعية التي نعيش فيها. فانه كما هو ظاهر لنا جميعاً نظام منافسة يعمل كل منا فيه لمصلحته لا يبالي بمنفعة الآخرين أو ضررهم. ولكن المدرسة في رأي ساندرسون يجب أن تكون انموذجا للهيئة الاجتماعية فاذا بثثنا فيها روح التعاون بدل روح المنافسة خرج منها التلميذ وهو مشبع بهذه الروح فيعمل لتغليب نظم التعاون على نظم المنافسة الموجودة الآن

هذه هي الفائدة الاجتماعية للخطة الجديدة التي اختطها المستر

ساندرسون . ولكن ثم فائدة تعليمية لهذه الخطة وهي أنه لا يمكن تلميذاً أن يهمل في اداء واجبه بل هو لا يمكنه أن يؤثر الكسل على أداء واجبه . فهو مكلف بالبحث في فرع خاص من فروع الموضوع الذي تدرسه الفرقة ولن تتم الفرقة موضوعها إلا اذا أتم بحثه فكل منهم مضطر الى مساعدته اذا هو عجز . ثم هو يدخل فيه بروح المتحمس الذي يرغب في كشف الحقائق المجهوله . فوظيفة المدرس تقتصر في هذه الحالة على الارشاد والهداية فهو يخبر التلميذ عن مظان البحث ويذكر له اسماء الكتب ثم يطلقه في مكتبة المدرسة يبحث كما يشاء

وقد تمكن تلاميذ ساندرسون في فرقة الميكانيكيات من أن يصنعوا متعاونين آلة بخارية قوتها ستة خيول كما صنعوا اشياء اخرى أقل اهمية من هذه الآلة . وكانوا في درس البيولوجية (علم الحياة) مثلا لا يقعدون أمام المدرس يلقنهم المعارف الجافة بل يرشدهم الى الاماكن التي يستطيعون أن يجدوا فيها الاحياء المختلفة حية ومتحجرة فيخرج كل تلميذ هذا بشبكة يصيد بها الفراش وهذا بمشرط وهذا يجول في الشاطيء يبحث عن الاصداف ثم يأخذ كل واحد منهم في درس ماوجده ويطبقه على ما يجده في الكتب التي يرشده اليها المعلم ثم يكتب شرحا وافيا يلقيه أمام التلاميذ والمعلم الذي يقف موقف الناقد فقط . أما المعلم الحقيقي فهو التلميذ يعلم اخوانه

وكذا الحال في الموضوعات الادبية يبحث التلاميذ بالتعاون وبروح البحث العلمى فأذا كان نابليون مثلا موضوع درس الفرقة

اخذ كل تلميذ على عاتقه ان يدرس ناحية من حياة هذا الرجل . فتلميذ يبحث في خططه الحربية وآخر في اخلاقه الشخصية وآخر في نتائج حروبه الاجتماعية وآخر في أغراضه السياسية · وكل هذا بارشاد المعلم . ثم يعود كل تلميذ ويقرأ ما كتبه عن البحث الذي وكل اليه أمام سائر اخوانه · وهلم جرا

والان يحسن بي أن اقتبس بضع فقرات من محاضرات ساندرسن وخطبه مما يزيد في ايضاح التلخيص السابق . قال :

« يجب أن تكون المدرسة صورة للعالم الذي نحب ان نجده . ولنوضح ذلك بمثل المعمل. فأعمال المعامل هي أشق مافي المدرسة اذا مارسها التلاميذ بالروح التي أبغي بثها . وهاك ثلاثة شروط يجب استيفاؤها في هذه المعامل :

« أولا — يجب ألا يشتغل التلاميذ لانفسهم وألا يكون شغلهم تمارين يقصد منها الحفظ . بل يجب أن يشتغل كل تلميذ لقضاء حاجة من حاجات الجماعة الذين حوله

« ثانياً — يجب أن تتاح الفرصة لكل تلميذ بأن يقوم بنفسه بعمل أهم مافي التجربة وان تكون كل التجارب في المعمل

« ثالثا — اذا ذهب التلميذ الى المعمل ينبغي أن يجد فيه عملا يملأ كل فراغه والا يكون في عمله تكرار ممل والا يشتغل لنفسه بل للجماعة »

وقال أيضا :

« ان الغاء المنافسة بين التلاميذ يؤدي الى شيء آخر وهو أننا

نجد جماعة ليس يعرف بينها العقاب . . واني اعتقد من تجاربي واختباراتي ان العقاب جريمة . بل هو ليس جريمة فقط بل غلط فادح . وسبب ذلك أنه طريقة سهلة رخيصة . لانه من السهل ان نعاقب كل من يرتكب ذنبا ولكن من الشاق الذي يحتاج الى التفكير والعناية والبذل أن نرتب الجماعة وتنظمها بحيث ينعكس من هذا النظام أثر على الفرد يمنعه من أن يأتي أمراً مكروها

« يجب ان تخرج من المدارس رجالا قد بث في قلوبهم العزم على البحث عن الحقائق تلك الحقائق التى هي ضمان الحرية وان يتوقوا في بحثهم تلك الطرق التي تغشى على الحق »

وأنا مضطر الى الاختصار في هذه المقتبسات لكي أعالج ناحية أخرى من حياة ساندرسن . فأنه لما نشبت الحرب الكبرى تزعزع ايمان أكثر الناس وخاصة المستنيرين منهم فى جميع عقائدهم القديمة ، فان هذه الحرب كانت بمثابة العاصفة تهب على الشجرة قد كمن فيها السوس ونخرها فتقع وتتحطم لاول ريح . وكذلك الحال في هيآتنا الاجتماعية كانت تتراءى لكل من ينظر اليها كأنها راسخة لاتتزعزع واذا بالحرب تفاجئنا فتهدم الاسس وتفضح النقائص وتكشف عن القروح . وأخذ من ذلك الوقت كل انسان مفكر يحسن الظن بالهيئة الاجتماعية في مراجعة نفسه يسائل نفسه عن هذه المؤسسات هل هى مفيدة أم مضرة ؟

وهذا كان حال ساندرسن فانه خرج من دائرة التعليم الى

السياسة والدين وأخذ يسائل نفسه هل الامبراطورية الانجليزية توافق الديانة المسيحية أو لا توافقها .وهل المسيحية الان توافق العصر الحاضر وترضى شهوات النفس العليا أم لا ترضيها

وخلاصة ما انتهى اليه انه أنشأ في مدرسة أونديل ما دعاه (معبد الرؤيا)

وقد مات قبل أن يتمه ولكن يؤخذ من ايضاح صديقه ولز أنه لم يقصد من هـذا المعبد ان يتعبد فيه الناس جماعة ولا أن يكون غرفة محاضرات أو متحفاً . وانما قصد منه أن يكون مكان وحي للمفكرين فلم يكن به سوى كرسي واحد يقعد فيه من يريد التفكير لمصلحة الانسان برهة بعيداً عن الضوضاء والمصالح الشخصية . وكان المعبد غرفة كبيرة تحتوي على تاريخ الانسان الماضي وبه الخرائط التى تدل على تقدمه وخروجه من حال الحيوانية الى الانسانية بحيث يعبر عن قوة الابتكار في الانسان وذلك لكى يكون لنا من الماضي مرآة ننظر بها الى المستقبل . قال ساندرسن :

« يمكن كل مدرسة أو كل حي في مدينة أو كل هيئة صناعية أن تشيد معبدا تجمع فيه أيات الاعمال الانسانية العظمى وتقدم الانسان »

ولكن المعبد لسوء الحظ لم يتم وان كان كل منا يشعر ان نفسه تتشوق اليه وانه قد آن لكل انسان ان يغذي الجانب الروحاني من نفسه غذاء صحيحاً على النمط الذي أراده ساندرسن لانه من البدهي ان عبادة ايسيس العذراء وابنها هورس قد قدمت وبليت ولم يعد فيها مقنع لنفس انسان متعلم مثقف



تدريس التاريخ

كان المؤرخون الى عهد قريب اذا وضعوا كتاباً في التاريخ عمدوا إلى الملوك والامراء والقواد فترجموا حياتهم واختصوهم بتدوين اعمالهم ووصف عيشتهم جلت أو دقت لا يلتفتون إلى عامة الأمة ولا يبالون بحالهم الاقتصادية أو الثقافية أو السياسية. وهذا هو مانجده في كتب التاريخ العربي والافرنجي القديمة بل بعض الحديثة أيضاً.

وقد كان كارليل الاديب الانجليزي المعروف يزعم أن فلسفة التاريخ تقتضي درس العظماء دون العامة. لأن العظيم سواء أكان فيلسوفا أو قائداً أو نبياً هو خلاصة الامة التى نبت فيها وهو جماع فضائلها وهو النور الذي به تهتدي وعلى طريقه تسير. وهو لم يقصد في ذلك الى قصر تاريخ الامم على ملوكها كما هو الشأن في كتاب العرب والافرنج إلى عهد قريب وانما كان ترمى الى درس تاريخ العظماء مهما كان نوع عظمتهم في الادب أو الفلسفة أو الحرب أو الصناعة

والعجب من كارليل انه كتب في مدح الحداد قطعة من أجمل ما كتب في اللغة الانجليزية يصف فيها عبالة ساعديه وجده

وأماته ولزومه كثيره وعظم منفعته للناس ومع ذلك كان اذا نظر في التاريخ أهمله كأن لا شأن له البتة

وقد عارض سبنسر هذه الطريقة في كتابة التاريخ ودعا الى أن يكون التاريخ شاملا لجميع طبقات الأمة يبحث احوالهم المعيشية والدينية والاقتصادية وما اليها

وضرب مثلا على صحة مذهبه بالقائد أو الجندي المدرب يقف الى جانب المدفع الضخم ويضع القنبلة في أنبوبته ثم يشد زنده فتنطلق القنبلة وتفعل افاعيلها من الدمار . ويقول سبنسر أن هذا الجندي هو « العظيم » عند كارليل . ولكن قيمته في التاريخ هي دون قيمة ذلك الرهط الذي سبقه واشتغل رجال منه في صهر الحديد للمدفع واكتشافه وجلبه من مناجمه واختراع البارود وتنظيم الجيوش وما إلى ذلك . فمعرفة تاريخ جميع هؤلاء لا ينبغي أن تقل أهمية عن معرفة تاريخ هذا الجندي .

فعظماء الأمم في رأي سبنسر هم طفاوتها وزبدها الذى يظهر على السطح والذى لا بد من ظهوره حتما

وهذا أيضاً هو رأي المستر ولز صاحب التاريخ العام الذى ألفه منذ نحو خمس سنوات وارتأى فيه فضلا عن العناية بتاريخ العامة وسواد الأمة ازالة النعرة الوطنية من تواريخ الامم والنظر الى العالم كأنه أمة واحدة . وقد اعجبتني من ولز خاصة عنايته بأهل الرحلة ووصف رحلاتهم في الأزمنة المختلفة سواء في الشرق أم في الغرب .

وذلك لان السائح يصف احوال العامة ويذكر في تجاربه الشخصية ما يمكن ان يعد صورة لتجارب كل شخص حوله

ونريد مما تقدم ان نستخلص وجوب تغيير طرق تدريس التاريخ في بلادنا بل طرق وضع الكتب التاريخية ايضاً للمدارس ولغير المدارس

فيجب ان ننزل من ذلك الافق العالي حيث يقتصر المؤرخ على ذكر الملوك والامراء ومن اليهم إلى ذكر احوال الامة . وليس هذا بالمستطاع على الدوام وخاصة عند تنائي الزمن كما هو الحال في عصر الفراعنه . ولكن ما لا يدرك كله لا يترك قله . فعندنا من كتب السياحة والرحلة لابن جبيروابن بطوطة والمسعودي وأبي الفدا وسير العلماء الذين ارتحلوا في سبيل العلم والدين أمثال البخاري والرازي والبغدادي وغيرهم مايبصرنا باحوال العامة في العصر الاسلامي وكذلك ايضاً نجد في كتب التراجم لابن خلكان وابن ابي اصيبعة وغيرهما ما يدلنا على نوع المعيشة التي كان سواد الامة يعيشها في تلك الازمنة

فمن هؤلاء وغيرهم يمكننا أن نضع تاريخاً جديداً للعالم العربي نرفع فيه سواد الامم العربية إلى المستوى الذى يليق بهم ونزيل عن الملوك والامراء تلك الاهمية التي نسبت خطأ اليهم . ونحن الآن نعيش في زمن يطلب منا ذلك لأن الملوك قد نزلوا عن عروشهم وصار الحكم في يد سواد الأمة . فمن المصلحة أن نجارى تيار العصر وننظر الى التاريخ نظراً ديمقراطياً

وبهذه المناسبة اقول أن مثل تاريخ الجبرتي من أنفع التواريخ فقد كان الرجل ملتصقاً بالعامة عاطفا عليهم ينبض قلبه بالحب لهم والحزن لمشقاتهم. وهأنذا افتح كتابه جزافاً فأجده يقول عن حكومة محمد على في سنة ١٢٣٥ هجرية :

« وفرضوا على الجواميس كل رأس عشرين قرشاً وعلى الجمل ستين قرشاً وعلى الشاة قرشاً والرأس من المعز سبعة وعشرين نصفاً وثلثاً والبقرة خمسة عشر والفرس كذلك » ثم أخذ يصف كيف أن الباشا احتكر الصابون والشحوم

فمن هذه الفقرة يتبين القارىء ما كان يعانيه الفلاحون والعامة في المدن من سلطة محمد علي وكيف كان ينظر هذا الوالي الى مصر كما ينظر الانسان الى ضيعته يريد غلتها ولا يبالي بأناسها

ثم هناك من دقائق التاريخ ما يجب أن يسترعى المؤرخ اكثر من الوقائع والحروب والفتوح وما اليها

فمن ذلك أن العرب عندما جاءوا مصر لم يكونوا قد ذاقوا الرز. وهذا معقول لان الرز يحتاج في زراعته الى كمية كبيرة من الماء لا يمكن أن توجد في بلاد العرب. ومن ذلك أن الحديد لم يوجد في قبر توت عنخ آمون لأنه لم يكن قد اكتشف بعد. ومن ذلك أن العرب لم يعرفوا معنى الدستور أو المجالس النيابية مع انها كانت معروفة عند الرومان. ومن ذلك أن شارع الخليج الذي يمر به الترام الان في القاهرة هو نفسه الخليج الذي حفره نخاو فرعون مصر ووصل

به النيل بالبحر الاحمر . ومن ذلك أن القبط كانوا منذ ثلثمائة سنة فقط يتكلمون اللغة القبطية في صعيد مصر

وقد يقابل الانسان نظام الموالي في الاسلام عند العرب بنظامهم عند الافرنج في القرون الوسطى. وقد يبحث أيضاً في نظام الصناعات مدة حكم المماليك في مصر وهل كان مثل نظام النقابات (الجيلد) في أوربا في ذلك الوقت

ثم هناك تلك الداهية الكبرى التي أصابت العالم الاسلامى بنزول المغول وهدم مدنيته على يد تيمورلنك وجنكيز خان . وما علاقة نزوح هذه الاقوام بسد الصين . فان الصينيين بنوا هذا السور لكي يحموا أنفسهم من غارات هؤلاء المغول . وهل هـذا السد هو سد يأجوج ومأجوج الذي ذكر في القرآن ؟

وكثيراً ما تكون اللفظة واشتقاقها دليلا على أصل من أصول المدنية فمن لفظة جاموس نعرف أن هذا الحيوان جاءنا من فارس . فهو مركب من لفظتين : « جاو » أو « كاو » أي البقرة كما هي في الانجليزية الى الآن و « موش » أي اسود

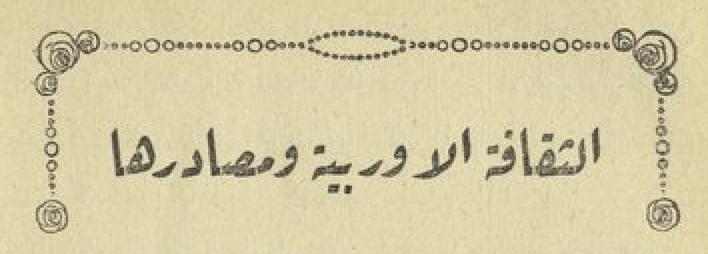
ومن لفظة : « عزبة » نعرف أن المماليك كان يملكون الاراضي في مصر لا يتركون منها شيئاً لاهل البلاد لان هـذه اللفظة روسية شركسية بمعنى الضيعة · وأيضاً نجـد في لفظة « بوظة » الشركسية دليلا على هجرة الشركس الى السودان وانهم هم الذين ادخلوا هذا الشراب اليه

ومن الحوادث الصغيرة ما يبصرنا بقيمة الحرية الدينية أو الامن العام في عصر الدولة العباسية . فقد قتل الشاعر الاعمى بشّار لاتهامه بالزندقة. وكان المعرى وهو ينحدر في النهر الى بغداد نهبت منه سفينته عنوة فلم يلجأ الى القضاء لكي ينتصف له بل لجأ الى الحاكم . وكانت ميادين قرطبة تكتظ بالنساء يجلسن لكي يؤجرن في نسخ الكتب بدلا من المطابع .

بمثل هذه الصغائر واشباهها نعرف كيف كان يعيش العرب وماذا كانوا يأكلون وما كان رأيهم في المرأة والحرية وكيف كانت نظمهم الحكومية والعائلية والاقتصادية . وكل هذا جدير بالدرس أكثر من الفتوح والغزوات .

وبعبارة أخرى يجب أن ندرس تاريخ الامة بدلاً من أن ندرس تاريخ أمرائها ؟





الثقافة الاوربية ومصادرها

فرق بين الثقافة وبين الحضارة . فقد يكون الانسان مثقفا دون أن يكون متحضراً بل ربما تدعوه ثقافته الى كراهة الحضارة . فليس بنكر مثلا أن ديوجينس الاغريقي كان مثقفا عارفا بتاريخ الاغريق وآدابهم ولكنه كان مع ذلك يكره حضارتهم ويؤثر العيشة البدوية الساذجة على رفاهيتهم وترفهم .

فالحضارة خاصة بالمعيشة وما فيها من ترف أو على الاقل من رفاهية . أما الثقافة فخاصة بمعلومات الانسان من علوم واداب ومعارف عامة . وقد يكون الانسان متحضراً خلواً من الثقافة كما هو الشأن في اكثر اغنياء اوربا وقد يكون مثقفا دون أن يكون متحضراً

فالثقافة معنوية خاصة بالفكر والحضارة مادية خاصة بالمعيشة . وفيما يلي نرغب في أن نوضح أصول الثقافة الاوربية ومصادرها التي صدرت عنها . واذا قلنا : « اوربية » فاننا فاننا نعني « عالمية » لسياده اوربا الآن على العالم

فالثقافة الاوربية أشبه شيء بالنهر الكبير تمده عدة روافد . فنحن نبحث ههنا عن هذه الروافد ومصادرها

وأول مايجب اثباته أن اوربا الحديثة لم تستفد كثيراً من «الشرق» من حيث الثقافة . فان الاغريق وهم أول أمة اوربية عنيت بالثقافة لم يكتسبوا شيئا من المصريين لان الفلسفة الاغريقية ثم الآداب الاغريقية لا تمتان بنسب الى فلسفة المصريين أو ادابهم . وقد انشأ الاغريق مدرسة الاسكندرية ولكن علماءها كانوا كلهم من الاغريق وكانت لغتهم الاغريقية فلم يكن للمصريين فضل في هذه المدرسة ولم ينبغ منهم واحد فيها بل يجوز لنا أن نشك في دخول المصريين فيها

ويمكن ان نقول ان اوربا استفادت ديانتها الراهنة من الشرق. ولكن يجب الا نلقي هذا القول جزافاً . فالديانة المسيحية مؤلفة من عنصرين احدهما خاص باللاهوت والآخر خاص بالاخلاق

فالاول وهو اللاهوت يرجع الفضل فيه الى المصريين . فان النظريات الخاصة بالثالوث المقدس او التجسد او البعث هي نفسها تلك النظريات التي كانت شائعة عند المصريين . ونظرية الثالوث هي اهم اركان الديانة المصرية القديمة . فان الربة ايسيس هي العذراء التي تلد هورس من رب الارباب اوزوريس. ويمكن ان نتتبع تطور الفن المسيحي من مصر الى رومية حتى تصير ايسيس وابنها هورس كلاهما مريم وابنها السيد المسيح

هذا من حيث اللاهوت ، اما من حيث الآداب المسيحية فالفضل فيها يرجع الى الاغريق . فان من يقرأ مجادلات الرسل

يشعر بالروح الاغريقية التي كانوا متشبعين بها في تبشيرهم الامم الوثنية

فاذا اطرحنا الدين جانباً بعد ان عرفنا ان مصر وأثينا يشتركان فيه على السواء بقي أمامنا ثلاثة مصادر قديمة قد صدرت عنها الثقافة الاوربية الراهنة . وهذه المصادر هي :

أثينا في الآداب والفنون والفلسفة

ورومية في القوانين والشرائع

والاندلس في العلوم

ولننظر في أول هذه المصادر . فالاوربيون الآن ومنذ نحو خمسمائة سنة يدرسون اللغة الاغريقية وينافحون عنها ويدعون الى درسها ، فماذا اكتسبوا منها وما هي الفوائد التي تعود عليهم من درسها ؟

لم يكتسب الاوربيون من الاغريق شيئاً من العلوم الا القليل الذي ظهر في الاسكندرية ، فلست تجد خلاف ذلك نظرية علمية ترجع الى الاغريق، أوقد أوحى بها أو بالبحث فيها قدماء الاغريق. كذلك لست تجد شريعة قائمة أو دارسة في أوربا يعود الفضل فيها الى الاغريق . فان ثقافة الاغريق كانت خاصة بل منحصرة في الفنون والفلسفة . ولا ينكر ان في ارسطوطاليس شيئاً من الروح العلمية وربما كان البذرة التي أنبتت بعد ذلك مدرسة الاسكندرية ولكن هذه الروح ماتت . اما الفنون والفلسفة فقد عاشت بل هي لا تزال حية الى يومنا هذا وهي إلهام حي يوحي الى الادب الاوربي الا ن .

وما من أديب في اوربا الآن يستطيع أن يؤلف في الدرامة مالم يقرأ درامات الاغريق . وما من مثال يشتغل بنحت التماثيل يمكنه أن يستغني عن درس التماثيل الاغريقية . وكذلك قل في الخطابة والشعر والفلسفة

وربما كانت ميزة الادب الاوربي الحاضر على الادب الشرقي هي تشبعه بالروح الاغريقية التي تجعله مجازفاً وحراً في نزعته. ومما يعجب به الانسان ان المجددين في الادب امثال نيتشة او المجددين في الفلسفة امثال شوبنهور كانوا متعلقين بالاغريق مدمنين قراءتهم . بل من الاوربيين من يعزو اكتشاف اميركا الى الادب الاغريقي الذي يحث على الاستطلاع والبحث . ولا أظنه يغلو في قوله هذا . ومن يقرأ «جمهورية» افلاطون ويرى الحرية التي يتكلم بها عن الزواج أو من يقرأ « الاخلاق » لارسطوطاليس ويقف عند قوله ان الآلهة على قدرتها لا يمكنها أن تبدل النواميس الطبيعية يأسف لفقدان هذه الروح من الادب العربي . والغريب في العرب انهم عنوا بعلوم الاغريق وطبهم وهو أسخف ما كتبوا دون أن يعنوا بآدابهم وفنونهم

وأصل آخر من أصول الثقافة الاوربية هو ما اكتسبته اوربا من رومية . فان شرائع أوربا تستند الى القوانين الرومانية القديمة التي لا تزل حية في المحاكم للآن . وكما اننا نحن سكان القاهرة نرى في دار التمثيل درامة « اوديب الملك » ونشهد برؤيتها على تفوق الادب الاغريقي القديم كذلك يمكن أي محام في القاهرة أن يزج

القوانين الرومانية في أي محكمة شاء ويجادل بها القضاة دون أن يجد من يعترض عليه في ذلك . وهذه شهادة قوية على الأثر العظيم للقوانين الرومانية

أما الاصل الثالث القديم للثقافة الاوربية فهو الروح العلمية التي ظهرت في الاندلس على أيدي العرب . فقد انغمس الاغريق فى النظريات الفلسفية وانتقلت هذه العدوى الى العرب ولكنها لم تغمرهم فانهم أخذوا في العمليات أي في التجربة . وكان للتجربة العلمية عندهم شأن كبير وخاصة عندما أخذوا في محاولة ايجاد الذهب من الزئبق فدرسوا أشياء صحيحة وسخيفة عن الكيمياء هي في الواقع أصل النزعة العلمية الحديثة التي تتسم بالتجربة . ومما هو ذو دلالة في النهضة الاوربية ان المجددين امثال روجر بيكون كانوا يتهمون بالاسلام وبمعرفة اللغة العربية

هذه هي الاصول الثلاثة القديمة للثقافة الاوربية الحاضرة . ولكن ثم اصول حديثة أخرى لا يمكن اهمالها يرجع الفضل فيها للانجليز

واول ذلك ما نراه من النزعة البرلمانية والحكم الدستوري . فالنزعة البرلمانية هي نزعة انجليزية محضة لاعلاقة لها بالنظم الدستورية عند الرومان أو الاغريق القدماء . وحكومات الامم الاوربية الان قد نشأت على النسق الانجليزي الذي لا يمت بأية صلة بالقدماء . ومن يقرأ تاريخ الدستور الانجليزي وتطوره من الملوكية المطلقة الى الدستور المحبوك الاطراف يجده نباتاً انجليزياً لم يستمد أي غذاء من

الرومان أواليونان . وهذا بخلاف ما نرى في سائر الشرائع الشخصية والمدنية والتجارية فانها تستند الى مدى بعيد الى قوانين لرومان.

ونزعة أخرى جديدة فشت في الثقافة الاوربية وصارت أصلاً مهما من أصولها يرجع الفضل فيها أيضاً للانجليز هي نزعة التطور. ففكرة التطور الآن هي فكرة انجليزية ،ولست في قولي هذا أتجاهل فضل الفرنسيين في محاولة الوصول الى هذه الفكرة . ولا مجهودات الالمان في تعميمها. ولكني اعتبر الفرنسيين لم يتخطوا المحاولات الاولى ،وروح الالمان كما نفهمها من كبار فلاسفتهم هي الروح الفلسفية كما كانت عند الاغريق أي روح النظريات المجردة . اما فكرة تنازع البقاء وبقاء الاصلح وتطور الاحياء والاشياء ففكرة انجليزية ونسبتها الى الالمان حديثاً لم يكن الا ترويجاً لدعاية الحرب لايهام الناس بأن الالمان يؤمنون بالقوة وتنازع البقاء وما الى ذلك . ولكن الحقيقة ان الفلسفة الانجليزية هي أصل ذلك الايمان وهي صاحبة الفضل في نشره في الثقافه الاوربية

والخلاصة ان الثقافة الحديثة الاوربيـة اكتسبت ديانتها من المصريين والاغريق واكتسبت آدابها وفنونها من الاغريق . أما قوانينها فمن الرومان . والذي ابتعث الروح العلمية فيها أي روح التجربة أساس العلوم الحديثـة هم العرب . وللانجليز فضل النظم الدستورية وفضل نظرية التطور

———•••———



استنقاذ المدنية

ناموس جديد للعالم

من الاقوال التي يرددها الكتاب هذه الايام قولهم ان العلوم قد تقدمت تقدماً عظيماً في المستكشفات والمخترعات في حين أن الاخلاق لم تتقدم بل بقيت متخلفة عنها. وهم يعنون بالاخلاق جميع علاقات الانسان بالانسان ، يدخل في ذلك معايرة الحق والعدالة ، واعتبار القوانين والانظمة ، ورأى الناس في الزواج والعائلة وما اليهما

والواقع انه قد حصل بعض التقدم في الاخلاق من هذه الوجهة ولكنه لايمكن ان يقرن الى تقدم العلوم فالتقدم في الاخلاق وان كان وئيداً فانه كثيراً ما يقف . أما العلوم فماضية تعدو تكشف كل يوم عن طور جديد أو نظريه طريفة

وهذا التفاوت بينهما مدعاة الي الارتباك والخلط في النظم الاجتماعية وهو علة هذا القلق الذي يسود السياسة الاممية في أوربا كما يسود أيضاً طبقات الهيئة الاجتماعية ويثير النزاع بين العمال والمموانين

وأظهر دليل على هذا التفاوت هو ذلك التقدم الهائل الذي

بلغته المخترعات الحربية في حين ان الاخلاق الاممية لا تزال على المستوي الذي كانت عليه منذ خمسة او عشرة قرون ·

وهذه العلوم يطرد تقدمها في جميع فروعها بينما الاخلاق راكدة او بطيئة التقدم، واذا استمر الحال على ذلك لن يكون الزمن بعيداً حتى تنفرج الهوة بين الاثنين ويختل نظام الهيئة الاجتماعية اختلالا لا يُقال منه

فالمدنية الاوربية وهي مدنية العالم أجمع توشك أن تقع في هوة الفوضي اذا لم تستنقذ بمطابقة قوانينها ونظمها الاجتماعيـة واخلاقها وآدابها على علومها بحيث يسير الاثنان جنباً الى جنب

وأول ما يجب أن يُسعى اليه في الحصول على هذه المطابقة هو قوانين حق امتلاك الاملاك . ان العلوم قد أحدثت من المخترعات ما أتاح لفئـة صغيرة من الناس احتكار الثروات الضخمة والتصرف فيها دون الكثرة المطلقة من الناس الذين صاروا عمالا يكترون ويباع عملهم بالقرش والمليم في سوق الاعمال . والناس ينظرون الى العامل الآن كما كانوا ينظرون اليه منذ الف عام مع أن العلم قد أحدث تغييراً كبيراً في مركزه . فقد كان قديماً يشتغل ويأمل أن يكون ممولا بعد قليل من الزمن . وكثيراً ما كان أمله يتحقق لان رأس المال الذي كان يحتاج اليه لم يكن كبير المقدار . وهذا بخلاف الحال الآن فان المصانع الكبيرة التي عمت في زماننا لا يمكن عاملا مهما قتر على نفسه أن يجمع ثمنها . ثم ان الممولين هذه الايام يختلفون عن الممولين في قديم الزمان لضخامة ثروتهم وقدرتهم على الاستبداد بالعمال . وايس .

انشاء النقابات من جانب العمال الا محاولة منهم لمقاومة هذا الاستبداد. فنحن الآن نحتاج الى أن نتطور في رأينا ونظرنا الى حقوق الامتلاك كما تطورت طرق الامتلاك

والعالم منذ آلاف السنين مقسوم الى أمم لكل منها وطن. وكلها تتباهى بوطنيتها وتعتبرها أكبر رابطة. ويعلم الصبيان في كل أمة تاريخ آبائهم ومفاخرهم دون اعتبار للتطور الجديد في علاقات الامم ومصالحها المشتركة. فان اقتراب المواصلات قد ربطت الامم برباط قوي يتطلب منها ان تسيطر عليها جميعها حكومةٌ واحدة. وهناك من الروابط الاخرى الراهنة ماله قيمة الوطنية مثل الرابطة التي تربط عمال العالم أو الرابطة التي تصل بين علمائه أو أدبائه. ويقترح بعضهم ان يربى الاولاد في كل أمة على الولاء لعصبة الامم وان يطهر التاريخ من النزعات الوطنية حتى تسود العقلية الاممية في رؤوس الصغار وينشأوا على اعتبار العالم أمة واحدة او ولايات متحدة في حكومة واحدة

وهناك تفاوت ايضاً بين تقدم العلوم وجمود الحالة الروحانية في الانسان. فليس بعقل ان يعيش الانسان آلاف السنين يتعاوره التقدم المادي في جميع ما يلابسه وما يزاوله ثم يبقى الدين جامداً لا يتطور وفق التطور المادي

وقد عالج ولز الكاتب الانجليزي هذا الموضوع فقال انه يجب أن تؤلف توراة جديدة توافق العصر الحاضر تضعها فئة منتقاة من

عصرية وليس دينية

العلماء والفلاسفة والادباء وينبغي تنقيحها كل عام وفق مطالب الحياة الجديدة ثم تترجم الى جميع اللغات في العالم فتكون دستوراً للناس فتتحد بذلك وجهات نظرهم وآرائهم فينتفي الخلاف ويحصل الوئام بينهم بدل التنازع الحاضر . ويجب أن تؤلف التوراة الجديدة على غرار التوراة القديمة فيبدأ فيها بسفر التكوين فنستبدل بقصة آدم وحواء تاريخاً علمياً لتكون الارض وظهور الحياة عليها وتطور النبات والحيوان وتنازعها البقاء وانقراض بعضها ثم ظهور الانسان ووصف جهاده للطبيعة والتغلب عليها وانتقاله من عهد الصيد الى الرعاية ثم الى الزراعة ثم معرفته المعادن ونشوء الصناعة

ويلي ذلك ناموس يسير عليه بنو البشر يتضمن أهم قواعد الصحة وصيانة الجسد وضرورة الرياضة التي لم تكن لازمة لليهود وهم يرعون أغنامهم في المروج ولكنها تلزمنا الآن في أشغالنا الراهنة . ثم يجب أيضاً أن يتضمن هذا القسم كل ما عرف عن الحكمة الجنسية والعلاقات الزوجية وما تنبغي معرفته عن آداب الامتلاك وعلاقة العمال بالملاك وقيمة المراهنات والمضاربات وآداب البورصة وما اليها مما يلصق بحياتنا

ثم يلي ذلك « نشيد الانشاد » في التوراة ويقابله عندنا الآداب الشهيرة عند الامم المختلفة . وهذه في رأى المستر ولز لا يمكن أدماجها في التوراة الجديدة وانما يجب تخير أحسن ما في هذه الآداب من الشعر والقصص ووضعها في مكان الملحق بالتوراة لأنها أكبر من

أن يحتويها كتاب على حدته يراد منه أن يكون في متناول كل إنسان على هذه البسيطة وفي مستطاعه أن يقرأه

ثم يلي ذلك فصل التنبؤات . وهنا يقترح المستر ولز على ساسة الامم أن يضعوا هذا القسم ويسجلوا فيه على أنفسهم و يشهد من جميع الامم ماينتبأون به عن مستقبل الامم التي يسوسونها لأنه ليس للسياسي حق في قيادة أمتهِ ما لم تكن له خطة معينة ومثل اعلى

ثم هذه التوراة يجب أن تكون لها لجنة عليا لها من المكانة ما يقسر جميع الامم على احترامها ويجب أن لا تني عن تنقيحها كل عام بما يوافق المستكشفات والمخترعات ومايروج تقدم العالم و ينفي منه الاحقاد

والخلاصة انه لكي تنتفي الفوضى الراهنة يجب أن تجعل الاخلاق وفق المستكشفات والمخترعات العلمية الحديثة . وذلك بتعديل قوانين الامتلاك، وتخفيف الروح الوطنية التي هي مثار الحروب في كل وقت وذلك بازالة النزعة الوطنية من التاريخ وفرض الولاء لعصبة الامم أو أي هيئة أخرى عالمية على كل فرد من أفراد العالم . ثم لكي يتحد الناس في نزعة صحيحة يجب أن يكون لهم ناموس جديد مؤلف على نمط علمي يربطهم جميعاً في رابطة روحانية واحدة توجههم الى قصد واحد هو هو خير الانسانية ورفعها





الامة هي الفرد

نظرة اجتماعية في أثر الفرد في الامة

الامة هي الفرد بالمعنى العلمي الدقيق . وما من بلاهة أو عقل ، وما من استقامة أو انحراف ، وما من صحة أو مرض ، أو قوة أو ضعف يكون في فرد الا ويكون أيضاً في الامة

وذلك لان كل فرد يتوزع دمه في الامة فيصيبها منه خيره أو شره . واذا أنت نظرت الى عشرة أفراد في عرض الشارع فانك يمكنك أن تتأكد ان دماء هؤلاء العشرة لن يخلو منها فرد من الامة بعد خمسمئة سنة،فاعتبر هؤلاء العشرة من حيث صفاتهم الجسمية والعقلية واحكم على حال الامة بعد خمسمئة سنة

ولكي تتحقق صدق ما أقول دعنا نفرض ان رجلاً سيتزوج هذا العام ويخلف الزوجان ولدين . وان كل ولد سيتزوج بعد ذلك

ويخلف اثنين فقط أي بلا زيادة الجيل القادم على الجيل السابق . وافرض ان عمر كل جيل ٢٥ سنة هكذا

الجيل الاول	يعقب	٢
« الثاني	«	٤
« الثالث	«	٨
« الرابع	«	١٦
« الخامس	«	٣٢
« العاشر	«	١٠٢٤
« الخامس عشر	«	٣٢٧٦٨
« العشرون	«	١٠٤٨٥٧٦

فاذا رأيت فرداً كائنة ما كانت صفاته فاحكم انه بعد خمسمائة عام سيتوزع دمه في اكثر من مليون نفس . واذا رأيت عشرة أنفس فاحكم بأن صفاتهم الجسمية والعقلية ستظهر في جميع أفراد الامة بعد خمسمائة عام على فرض ان عدد الامة يبلغ نحو عشرة ملايين نفس في نهاية هذه المدة

وهـذه القاعدة تمشي عكساً كما تمشي طرداً . ففي كل فرد منا العناصر الوراثية التي كانت متوزعة منذ ٥٠٠ سنة في مليون نفس

ومن هنا تعرف ان الامة عائلة واحدة وان في أسلاف كل منا

العدد العديد من رجال الفضيلة والرذيلة . فيهم الزاني والقاتل والعاهر والنصاب كما فيهم الشجاع والتقي والمستقيم والسخي . ففي دمك أيها القارىء المصري دماء الملوك الفراعنــة على وجه الحقيقة لا على وجه المجاز . كما ان في دمك عرق دساس يرجع بك أحياناً أوقات غضبك الى دم أسلافك من السفا كين وغيرهم

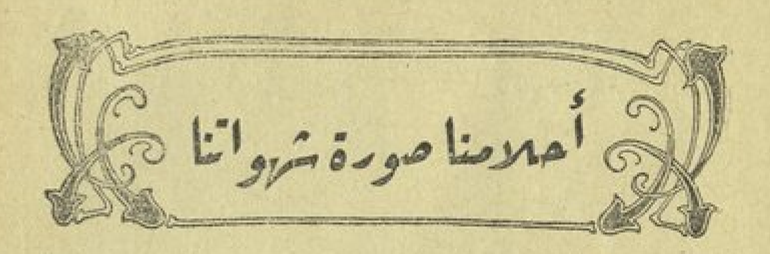
ولكن لهذا الحساب عبرة أخرى وهي ان الابله الذي يتزوج تتوزع بلاهته بهذه النسبة أيضاً . ففي كل منا عرق من هذه البلاهة التي توزعت في الماضي ، بل في كل منا عرق من الجنون ، ومن نزعة الاجرام وسائر الرذائل ، كما ان في كل منا عروقاً من النبوغ والشجاعة والاقتصاد ومن نزعة التفكير الحر وسائر الفضائل

ومن هنا نعرف قيمة وضع شرعة للزواج يمنع فيها كل ذي عاهة يخشى منها على عقول الامة أو أجسامها من الزواج . فالانسان مثــل سائر الحيوان يمكن تأصيله بانتقاء الطيب فيه واستيلاده ومنع الرديء من التناسل . وليس الاصلاح ما يقصــد به تعبيد الشوارع أو نشر التعليم او الوقاية من الامراض او الاكثار من السكك الحديدية أو اصلاح الاراضي فقط بل هو فوق واهم من ذلك اصلاح اجسام الامة وعقولها

وهذا الاصلاح هو ما يعالجــه علم اليوجنيه . فهو يعرف للفرد اثره في الاجيال القادمة . ويعرف ان اصلاح الوسط أو البيئة لايقتضي اصلاح الفرد وان الاصــلاح الحقيقي هو ما يتناول التأثير في جسم

الانسان وعقله بتشجيع ذوي الكفايات على التناسل ومنع العجزة وذوي العاهات منه حتى تسير الامة وكل جيل يفضل ما سبقه . وصراع الامم في المستقبل هو صراع بين عقول ابنائها . فالامة الحائزة لاكبر مقدار من الذكاء ستكون بلا شك هي الفائزة السائدة على على غيرها. واذا لم يكن في الرأي العام أو رأي العامة في الامم «الشرقية» ما يمنع زواج البله فيجب ان تمنعه الحكومة بشرعة خاصة .





ومرآة لثقافة اسلافنا

ليس شك في أن الذريات القادمة ستضع « فرود » في صف « داروين » فان كلاً منهما فتح باباً لعلم جديد لا يمر الآن عام الا والكتب التي توضع في شرحه تعد بالعشرات . والعلماء في كل مكان يتدارسونه ويكشفون مجاهله . فان « داروين » وضع أساس نظرية التطور ووضع « فرود » أساس نظرية العقل الباطن . والنظريتان على كثرة ما كتب فيهما وعلى قدم الاولى التي ترجع الى سنة ١٨٥٩ وحداثة الثانية التي ترجع الى سنة ١٨٩٢ — لا تزالان تثيران البحث وتكشفان من المجاهل ما لا ننتهي من العجب منه . وبين العلمين علاقة بل علاقات ولكن يمكن أن نقول أن نظرية التطور كما فهمها « داروين » ترمي الى البحث عن طبيعة الجسم الانساني وأصله وتطوره . أما نظرية العقل الباطن عند « فرود » فترمي الى البحث عن طبيعة نفس الانسان وتطورها

وكما أن داروين قد أثار عاصفة من العداء والجدل فان « فرود » يثير الآن اعصاراً من البغض والمقت بين بعض الناس. فقد كان اكبر ما أحنق الناس في عصر « داروين » قوله أن الانسان والحيوان من أصل واحد. والآن يقول « فرود » ما هو أسوأ من ذلك: يقول ان الغريزة الجنسية هي أساس خواطرنا وأحلامنا وان حبسها هو علة الهستريا عند النساء والنورستينيا عند الرجال وانها ايضاً العلة الوحيدة لصنوف الهوس التي تصيب بعض الناس. ثم يتدرج من ذلك الى ان الاساطير القديمة ترجع الي هذه الغريزة وان الانسان اهتدى الى اللغة عن سبيلها ايضاً

واكبر مايعتمد عليه « فرود » في نظريته هو « التحليل النفسي » يحلل الاحلام والخواطر (أي احلام اليقظة) كما يحلل اعراض الامراض الهستيرية والنورستينية. وهو يرى ان الحلم يعبر عن شهوة ما ولكنه في اكثر الحالات يعبر عن شهوة جنسية

ولكن فرود ليس سلطاناً بل رائداً فتح الطريق وجاء بعده تلاميذه فاهتدوا بهديه اولا ولكنهم استقلوا عنه وشق كل منهم طريقاً لنفسه

ففرود يسود المدرسة النمسوية ويكاد يقول ان الشهوة الجنسية هي كل شيء في العقل الباطن وأننا يجب ان نتوهمها في الاحلام والخواطر والامراض النفسية

ويسود في زوريخ الاستاذ « يونج » وهو يخرج على « فرود »

من حيث انه يقول ان العامل الاصلي في العقل الباطن ليس الشهوة الجنسية بل شهوة الحياة والرقي . ويتصوف احياناً فيقول ان للامم والشعوب عقلا باطناً يتلخص في كل فرد

اما في انجلترا فان الدكتور « رفرز » يسود ويقود طائفة « المحللين للنفس » ومما يمتاز به اثباته ان الحلم قد يكون احياناً محاولة يحاول فيها العقل الباطن ايجاد حل يعاون به العقل الواعي، وانه لا يدل في كل الحالات على شهوة كامنة وانما يدل على التردد واصطراع الشهوات. ومن الانصاف ان نقول ان في هذا العلم الآن بعض الخبط يرجع الى انه في طور البداية . ولكن من الحق ايضاً ان نقول اننا نشعر ونحن نقرأ مؤلفات هؤلاء العلماء انهم يكشفون لنا مجاهل ما كنا ندري بها نقف امامها حائرين متعجبين لهذا العالم الغريب الذي كنا نجهله

وسيرى القارىء في ما يلي شرحاً لهذه النظرية مع اختبارات قليلة تجرأ كاتب هذه السطور على اثباتها وبحثها هنا

• • •

سرائر النفوس ومنطويات الضمائر تتضح في الاحلام اكثر مما تتضح في أوقات اليقظة . وهي ايضاً تتضح في فلتات اللسان وقت الغفلة أو الاعياء ، وان كان وضوحها هنا أقل من وضوحها في الحلم ، لأن الانسان وهو يحلم يفقد وعيه فتنطلق افكاره وتجري خواطره طبق مشتهياته . وذلك لاننا ونحن في يقظتنا نعمل بعقلنا الواعي فتتقيد

خواطرنا بالظروف التي تحوطنا حيث نرانا مصطدمين بالحقائق التي لا نستطيع تبديلها . ولكننا ونحن في النوم نحيا حياة غير واعية ، أي لا نعي ما حولنا فتنطلق خواطرنا لا تقيدها الحقائق ولا تصدمها . فما انحبس في أوقات يقظتنا من الخواطر والشهوات ينطلق في أوقات نومنا وايضاً في أوقات غفلتنا عندما نسهو ويخمد العقل الواعي فيطمو به العقل الباطن ويتغلب عليه ويُجري على لساننا كلمة لم نكن لنقولها لو كنا في وعينا التام

والخلاصة اننا في يقظتنا نعمل بالعقل الواعي نعي ما نفعل وما نقول ، وفي نومنا وغفلتنا نعمل بالعقل الباطن فلا نعي ما نهجس به . ويجري عقلنا الباطن على قواعد التفكير القديمة التي كان يجري عليها أباؤنا في العصور المتباعدة . وعلى قواعد التفكير عند الاطفال لان الطفل يمثل السلف القديم اكثر من الشاب . ومن احلامنا يمكننا ان نعرف اختبارات آبائنا الاقربين قبل الحضارة كما نعرف شيئاً قليلا وخاصة وقت طفولتنا من اختبارات جدودنا قبل خروجهم من الاشجار واستقرارهم في الكهوف . فالطفل وهو يحلم بأنه يقع من الشجرة او من عل يستعيد ذكرى الجدود قبل مليون سنة ويجدد لنا اختباراً قديماً اختبرناه ونحن نمشي على اربع ونعيش على الاشجار ونقع منها . والطفل يمشي على اربع ويقع في حلمه من مكان عال

لكن الشاب البالغ لا يمشي على اربع ولا يحلم انه يتردى من عل لانه قد عدا هذا الطور . ولكنه في أحلامه يعيد لنفسه اختبارات

الانسان الاول فهو اذا اغتاظ من خصمه لم يعمد في حلمه الى المحاكم فيشكوه بل يعمد الى طرق العصر الحجري فيتناول فأساً أومدية ويقتله

ومعنى ذلك اننا في أحلامنا نسلك في تفكيرنا المسالك القديمة التي كان آباؤنا في العصر الحجري يسلكونها . فاحلامنا الحديثة هي ثقافة آبائنا القديمة . ومما يبصر القارىء بذلك اننا قليلاً ما نستعمل اللغة في الاحلام فالحلم هو « الرؤيا » التي نراها . فهو ليس شيئاً نسمعه بل شيئاً نراه وذلك لان اللغة حديثة العهد وكان آباؤنا القدماء أشبه بالخرس منهم بالمعربين . ثم مما يبصرنا أيضاً اننا نستعمل رموزاً في الحلم تشبه الرموز التي يستعملها الاخرس عند الكلام أو التي يستعملها الهمج من الناس عند التعبير اذا اعوزتهم اللغة . والهمج الآن يمثلون اسلافنا القدماء

ولذلك فان درس الاحلام وما فيها من رموز عديدة سيبسط امام أعيننا ثقافة آبائنا كيف اخترعوا اللغة وكيف انشأوا الاديان والفوا الاساطير .

فالحلم في طريقته يجري على النمط القديمة ولكنه في غايته يعبر عن اغراضنا الراهنة التي تشغل بالنا وقت يقظتنا . فاننا وقت اليقظة نتقيد بالظروف فلا نحقق كل مشتهياتنا ورغباتنا فاذا نمنا انطلقت هذه القوة المحبوسة فنحقق في النوم بالعقل الباطن ما عجزنا عن تحقيقه في اليقظة . ولذلك فان اكثر ما تعبر عنه الاحلام هذه الرغبات والمشتهيات كالصائم يمنعه الطبيب عن الطعام فيحلم بتناول اشهى

المأكولات وكالشاب يتأجج شوقاً لحبيبته فيرى طيفها في المنام . ولكن ليست كل الاحلام تعبر على الدوام عن شهواتنا ورغباتنا فان العقل الباطن يحاول احياناً ان يحل المشكلات التي تعرض لنا وقت اليقظة . وأحياناً ينير الحلم طريق الهداية لنا في حياتنا

وفي ما يلي سأذكر للقارىء بعض الاحلام التي وقعت لي او لاصدقائي لننظر اليها في ضوء التفسير السابق :

١ — كان عليّ دعوى مدنية قد صرت فيها عرضة لأن اخسر مبلغاً كبيراً وكان عندي مستند ينجيني منها ولكني اضعته . فرأيتني في الحلم وانا واقف امام الخصم ومعي ثلاثة مستندات اتباهى بها امامه وقد طربت بلذة الظفر به . وهذا حلم خلو من الصنعة كما انه خلو من الثقافة وكل مافيه انه عليه مسحة الطفولة فقد وقف مني عقلي الباطن موقف الصبي المغفل الذي يقول : فبم الغضب والاسف ؟ اضعت ورقة فهاك ثلاث ورقات . فرؤياي هنا ساذجة قد ارتد فيها العقل الى طرق الاطفال فهي تشبه رؤيا الجائع الذي يحلم بالموائد المبسوطة امامه

٢ — صاحب الرؤيا هنا شاب لم يتزوج في نحو الثامنة عشرة . فهو اذن متهم في كل ما يحلمه في غريزته الجنسية . رأى جملة مرار انه في حفلة عرس يأكل سمكاً مزخرفاً مما يرى عادة في الولائم . وتأويل هذا الحلم انهُ يرغب في الزواج ولكن ظروفه تمنعهُ فالسمكة رمز للمرأة واحساس الجوع قريب من الاحساس بالغرام . وعند

سؤالي له : هل تعرف اغنية بها ذكر السمك اجاب على الفور :
« سمك يا بني لعبك في المية جنني »

وعند ما سئل : هل كان الطعام طيباً ؟ اجاب « لذيذ » فأعدت السؤال بطرق مختلفة فكان الجواب « لذيذ » على الدوام . وهذا الوصف يدل على الاحساس الذي يخامر نفسه

وهذا الحلم ساذج أيضاً ولكن لغة الاحلام وهي الرموز واضحة في الرمز بالسمكة للمرأة

٣ — ف ... يتشاجر كثيراً مع زوجته وقد خطر له في يقظته ان ينفصل منها بطلاق ولكنه كره ذلك للعار الذي يلصق بكل مطلق . فهو يري في حلمه انهُ في زورق صغير يجذف ويخرج به الى البحر كأنه يتنزه . وكان قد أخذ هذا الزورق من صاحبه بالاجرة . فبينما هو عائد الى المكان الذي استأجر منه الزورق بعد ان لقي موجا مضطرباً خطر له أن يلقيه الى الشاطيء في نصف الطريق ويتركه ويخرج . وفعل ذلك . وبينما هو خارج وقع في الطين وتلطخ بالوحل . فعاد الى الزورق وقال لنفسه : « لا . يجب أن أذهب به الى صاحبه ولكن يجب ان اريح الزورق بأن افتح له متنفساً في طرفه » وبينما هو يهم بالتجذيف رأى فتاة تنزل في زورق آخر ومعها عائلتها

وتأويل هذا الحلم ان الزورق هو المرأة أي زوجته . وهنا يجب أن نذكر ان العرب اطلقوا لفظ « الجارية » على السفينة وكلنا يعرف ان « الجواري المنشئات » هي السفن . فالحلم يصف حياته الزوجية

وانها سارت هوناً على الماء في شبه نزهة . ثم حدث الخلاف الذي رمز اليه بالموج المضطرب فاراد ان يترك زوجته فحسب لعار الطلاق . ورأى انه في تركها يتلطخ بالوحل . والوحل هو العار . ثم حاول عقله الباطن ان يحل هذا المشكل فنصح له ان يستأنف حياته الزوجية ويسير بالزورق بعد ان اشار عليه بالتفريج عن زوجته بان يقلل من ضغط عواطفها، وعند ذلك رسم له الحياة الزوجية الهنية في فتاة جميلة تسير بين اعضاء عائلتها . ففي الحلم شيء من الثقافة القديمة وهو الرمز للمرأة بالسفينة وشيء من الذكاء ابداه العقل الباطن في نهي صاحبه عن الطلاق

٤ — هذا الحلم الاخير لي، ابتعثه في ذهني وانا نائم حادثة حدثت في النهار . فقد وقع في يدي كتاب جديد فتصفحته فألفيته قائماً على الصناعة اللفظية مغرقاً فيها فألقيته باشمئزاز وانا اقول : الفاظ . الفاظ . وفي نومي رأيت اني صبي صغير العب وانا حافي القدمين على جسر مصنوع من الخشب ثم نظرت واذا بجنازة عجيبة تسير امامي وكان الميت هو الشاعر الجاهلي لبيد الذي يقال انه عاش ١٤٥ سنة . ولم يكن ميتاً موتاً مألوفاً لانه كان قاعداً فوق نعشه وهو في جرم عشرين رجلاً والدم يسيل من انفه وهو يقول الشطرة الثانية من هذا البيت :

ولقد سئمت من الحياة وطولها   وسؤال هذا الناس كيف لبيد ؟

ولكنه مع كلامه هذا كان ميتاً يتبع نعشه مشهد فيه رجال

عليهم خشوع الجنازة . ونظرت اليه وأنا واقف على الجسر فشعرت بالراحة والعجب والخوف

وتفسير هذا الحلم اني اكره الصنعة في الكتابة وكثيراً ما اقول في الجدل بشأن أولئك الكتاب الذي يعنون بالالفاظ انهم يحاولون ان يجعلونا نكتب بلغة الجاهلية . وقلت مراراً ان العرب قد انغمسوا في الصنعة ومضي عليهم اكثر من الف عام وهم فيها . فنشأ في عقلي الباطن فكرتان :

١ — ان الصنعة تجعل اللغة غريبة عنا حتى لتشبه لغة عرب الجاهلية

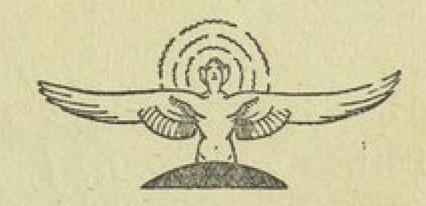
٢ — ان الكتاب العرب انغمسوا فى الصنعه مدة طويلة جداً فرمز عقلي الباطن الى هاتين الفكرتين بلبيد الشاعر وذلك لأنه:

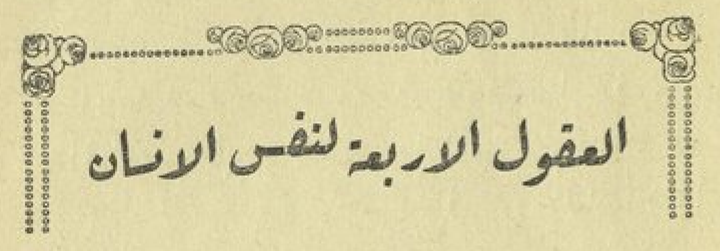
١— جاهلي ولانهُ : ٢— عاش عمراً طويلا . ثم رسمهُ امامي كما اشتهي انا اي ميتاً لاني احب ان تموت الصنعة . وجعله ضخما جداً رمزاً لطول عمره . وجعله ينشد امامي هذا البيت لان فيهِ معنى السأم من طول الحياة وانا ايضاً قد سئمت الصنعة

ولكن بقي شيء آخر وهو اني في منتصف الجسر . وعلى طرفي الجسر طريقان ، الطريق الذي حملت فيهِ جنازة لبيد وهو امامي وطريق آخر ورائي . فما معنى ذلك ؟ معناه ما اعترك في نفسي في السنوات الاخيرة من الولاء لثقافة العرب او العداء لها وهل اتركهم واسير في الطريق الآخر الذي وراء الجسر واقول باللغة العامية

المصرية او اقنع بأن لبيداً قد مات وان لنا لغة الآن هي غير لغة عرب الجاهلية ؟ دع عنك الشك في موته

وليس ما شعرت بهِ من « الراحة والعجب والخوف » سوى ما يخالج ضميري عند الكلام عن التجديد والشرق والغرب واللغة القديمة والحديثة وما اشعر بهِ من والشك والتردد . والى هنا انا قانع بهذا التحليل ولكن يمكنني ان ازيدعليهِ ان عقلي الباطن اختار لبيداً لعلاقة لفظية فاني مشغول هذه الايام بقراءة بعض الكتب في التحليل النفسي . ولا يخلو منها كتاب من ذكر لفظة « لبيدو » وهي القوة النفسية التي تبتعث الخواطر والاحلام . وكان قد خطر في بالي ان اعرب هذه اللفظة وأجعلها في العربية « لبيد » وقلت في نفسي : اني كما أشعت ثقافة وطوبي ومصرلوجية ويوجنية ونفسلوجية وغيرها فاني أشيع هذه اللفظة، فهجس بي هاجس عن مقاومة الرجعيين والجامدين فدخلت اللفظة في مادة الحلم





العقول الاربعة لنفس الانسان

يسير الفسلوجيون من المدرسة الحديثة سيراً حثيثاً في استكناه العقل الانساني . ونعني بالمدرسة الحديثة اولئك الرواد في هذا الميدان الجديد أمثال فرود ويونج ومكدوجال ورفرز وبودوين رجال العقل الباطن الذين يدرسون الاحلام والخواطر والجنون ثم يعطفون على الانسان فيدرسون العقل الواعي والاساطير ومنشأ اللغات والاديان بما استخلصوه من هذا العلم الجديد

وليس غريباً أن ندرس المرض لكي نفهم الصحة بل يكاد لا يكون طريق آخر نفهم به الصحة الا من طريق المرض . فاذا وقفنا على التيار الذي يسير بعقل المجنون وادركنا بعض غاياته او اذا درسنا أحوال السكران وهو يتدرج من اللعثمة البسيطة الى العربدة ثم الى الخمول . واذا درسنا أيضاً خرف الشيخ وقرناه الى مخاوف الطفولة امكننا ان نقف على العقل السليم ما هو وكيف نشأ . وذلك لان حالات الضعف من الغفوة العارضة التي تتوارد فيها الخواطر الى العقل الى السبات غير العميق حين ينشط العقل الباطن ويجعلنا

نحلم ونرى الرؤى الى نشوة الخمر التي تبيح لنا ما نكف انفسنا عنه وقت الصحو – كل هــذا يجعلنا نفهم أن لنا غير عقل واحد في رؤوسنا بعضه يغفو و بعضه ينام و بعضه يصحو في غير اختلاف ، بل أحيانا في ائتلاف عظيم . والواقع أن العقل الانساني حي قد اضمر فيه جملة احياء . وأقوى هذه الاحياء هو أقدمها في تطور الانسان . وأضعفها هو أحدثها

وهذا الاختلاف في القوة والضعف بين هذه العقول المضمرة في نفوسنا يتضح عندما نمرض أو نشرب الخمر فنلفي أنفسنا عند أول النشوة قد زايلتنا قوة الصبر على الدرس وانعام النظر فلا نستطيع أن نقرأ كتاباً في الفلسفة أو العلم ولـكننا قد يمكننا أن نقرأ قصة . ثم اذا زدنا شرباً احتشدت برؤوسنا أفكار همجية فنضحك ونبكي كالاطفال وقد نرتكب من الجرائم أو الافعال ما هو أشبه بالمتوحشين . وانما ذلك لأن العقل الحديث عقل الحضارة والثقافة لم يرسخ بعد في نفوسنا رسوخ العقل القديم عقل الجدود من ناس وحيوان فاذا أصابتنا نشوة الخمر زايلنا هذا العقل وعدنا نستند الى العقل القديم الذي لا يتزعزع بهذه السرعة . وكذلك الحال عندما نغفو أو نمرض أو نحلم فان العقل الباطن ينشط فنرانا نفكر في أشياء نضحك منها ونحن في وعينا و يقظتنا فنتخيل مثلا اننا ملوك أو أغنياء أو أننا نقتل خصما لنا نكرهه أو نحو ذلك من خيالات العقل القديم الرابض في رأس كل منا

والحقيقة أن في رأس كل منا نحن أبناء القرن العشرين جملة

عقول تتسلط على نفوسنا وتعمل لسعادتنا أو لشقائنا وهي كلها من تراث الآباء مع القليل الذي يجدّ في نفس كل منا مما هو مضمر في الحياة يسمو بنا نحو الرقي والكمال

١ — عقل الحيوان

وأول هذه العقول واقدمها عقل الحيوان. فقد عشنا ملايين السنين ونحن حيوانات ولذلك فان تفكيرنا مشرب بعقل الحيوان. وهذا يبدو لكل منا اذا سلم قياده لخواطره فهناك ينساب هذا العقل فيخيل لنا الاكلة الشهية أو المرأة الجميلة. لأن هاتين الشهوتين هما محور الحياة عند الحيوان فانه لا يعيش الا من أجلهما. وكل منا يعرف أن معظم تفكيره وهو في سن المراهقة انما كان في المرأة. وهذا يتسق مع ما نراه من الحاح هذه الشهوة على الحيوان حين تتقاتل الذكور وتموت من أجلها. وانما تخف هذه الشهوة عندما يخرج الانسان من طور المراهقة الى الشباب ثم الى الكهولة. وذلك لأن الانسان من بدء تكونه جنيناً الى أن يحمل الى القبر يمثل في نفسه تلك الاطوار التي مرت بالاحياء قاطبة من بدء ظهورها في العالم الى الآن. فهو في باطن امه حيوان رابض غائب الذهن أخرس منطرح كالسمك ثم لا همّ له بعد أن يولد الا الطعام. وهذا هو الشأن في تطور أنواع الحيوان كلها فانها قضت فترة طويلة وهى لا تعرف الحب بل لا يزال بين الاسماك ما يلقي الذكر بذره في الماء كما يطرح النخل لقاحه للريح. ثم يظهر الحب

والعائلة فيخرج الصبي من الشغف بالحلوى والنهم للطعام الى احساس الحب للجنس الآخر

ولكن الحاح هذه الشهوة الجنسية يخف بالتقدم في السن. وكما أن الشاب يخرج من طور الطفولة من حيث الطعام فلا يجعل للنهم من السلطة عليه مقدار ما للصحة كذلك الكهل يخرج من غرام الشباب والحاح الغريزة الجنسية الى تسليط العقل الحديث ومراعاة المصلحة العائلية

ولكننا في خواطرنا وأحلامنا كما في نشوة الخمر نفكر كثيرا بعقل الحيوان يجري خيالنا وراء الاكلة الشهية كما تنتفض أعصابنا عند رؤية الانثى الجميلة

٢ — عقل الهمج

اذا كان عمر الانسان نصف مليون سنة على هذه الارض فقد قضى ٩٩ في المائة من هذه المدة وهو همجي أخرس أو شبيه بالاخرس لا يحمل من الآلات الا اجفاها يعيش منعزلاً لا يعرف الاجتماع ، حظه من الثقافة قد لا يزيد عن حظ طفل عمره ثلاث سنوات يقتل خصمه من أجل جذر من اللفت ويأكل العصفورة او الصرصور وهو حي. يقتل زوجته اذا رآها آثرت نفسها عليه في ثمرة فجة أو بضعة من لحم ، يخاف طول وقته ، يخشى الظلام والوحوش وينتفض من تهافت ورقة جافة أو من رؤية ثعبان أو قنفذ

وهذا الانسان هو أبونا الحقيقي ومنه ورثنا اكبر تراث ولشد ما نعاني الصعاب حين نريد أن نتخلص مما أورثناهذا الهمجي القديم فنحن كلنا نخاف ونعرف مع ذلك أنه لا فائدة من الخوف في حياتنا الحاضرة وان اكبر ما يعين الطاغية على الطغيان هو عرفانه بهـذا الاحساس الكارب الذي ينساب تحت الجلد قشعريرة مجنونة لا نعرف كيف نقفها . ثم هذه الجرائم التي ترتكب كل يوم ليست في الواقع سوى غريزة هؤلاء الآباء قد طغت على ثقافتنا الحديثة . والغيظ أو الحقد كلاهما يعمل في النفس عمل الخمر فتستيقظ كفاياتنا القديمة وتكبت كفاياتنا الجديدة . وكم تمر بنا ساعات نتذكر فيها اهانة لحقتنا من أحد الناس فنرى يدنا تنقبض ونحن لا ندري ثم يجري خيالنا بالعصا الغليظة ننزل بها على ام رأسه ضرباً وخبطاً ونحن نصحب هذا الضرب باللعنات الدسمة ونشعر عندئذ بالراحة. والواقع اننا نستريح لاننا نرضي بهذا الخيال هذا الجد الهمجي القديم الذي يضمره كل منا في نفسه والذي نكبته احياناً في يقظتنا فيتغفل عقلنا الواعي ويبدو خواطر لذيذة أو أحلاماً نرى فيها هذا الخصم مقهوراً أو مقتولا . وقد مضى على الانسان نحو ٧٠٠٠ سنة وهو يعيش مجتمعاً له ثقافة الزراعة ولكنه لم يمح هذا العقل الهمجي القديم. وليست الشرائع الا محاولات لمحوه أو كبته في نفوسنا

٣ — عقل الثقافة القديمة

وعقل ثالث تنطوي عليه نفوسنا هو ثقافة آبائنا منذ ان أخذوا

يتحضرون بالزراعة في الآلاف القليلة من السنين الماضية وقبيل هذا التحضر بقليــل حين عرفوا الصيد واجتمعوا يحتوشون الوحش وعرفوا شيئاً من البداوة التى وصلت ما بين المعيشة الهمجية الانفرادية والمعيشة الزراعية الراقية . وفي هذه المدة تثقف الانسان بأشياء عـدة فعرف اللغة والكتابة والبناء والمحرمات في الزواج والامتلاك وعرف الحرب والصناعة والطبخ والخبز ثم نشأت له اديان ونبتت عليهـا آداب من شعر وقصص وأساطير . هذا هو عقل الحضارة القديمة ، عقل الادب القديم

واذا قلت عقل الادب فانما اقصد به عقل الخواطر . فان الادب القديم يختلف من العلم بأنه يجري مع الخواطر لانه عند التحليل لا يعدو ان يكون خيالات العقل الباطن تجري بلا تكلف أوعناء في قصيدة أو في قصة . ومن هنا نجد ان الكتب القديمة هي كتب آداب من اشعار وأساطير وليست كتب علوم . لان « هوميروس » صاحب الالياذة يسبق على الدوام « ارخيدس » صاحب المخترعات والآلات . وهذه قاعدة تجري على اطلاقها عنـد جميع الامم . وماذا نعرف نحن عن عرب الجاهلية سوى الاشعار وماذا نقرأ من مؤلفات المصريين القدماء سوى قصصهم وأساطيرهم ؟

فالادب هو موضوع كتب الحضارات القديمة لانه ثمرة الخواطر السائبة التى لا يقفها نقد أو تعوقها مراجعة او يعتورها تحقيق

وكل قارىء لهذا السبب يحب هذا الادب ويقرأه لانه كما أوضحنا

آنفاً أقدم في نفس الانسان من العلم . فالعقل الادبي يجب لذلك ان يسبق العقل العلمي . وتجارب الفرد هي صورة مصغرة لتجارب الامة. ولكن كما أن الكهل يعدو طور الغرام الملح الذي يغمر نفس الشاب ويشرع ينظر الى الحب نظر المصلحة العائلية كذلك العقل العلمي الذي هو عقل الثقافة الحديثة قد شرع يتغلب على العقل الادبي القديم

ونحن في خواطرنا واحلامنا نؤلف القصص ونحن ايضاً في حبنا للطبيعة للحقول والزراعة والجبال وللحروب وللوطنية والخطابة وابهة الملوكية ومفاخر المال والسطوة انما نفكر بعقولنا القديمة عقول هذه الحضارة البائدة ولذلك يلذ لنا أن تجري خواطرنا هاملة سائبة في هذه الاشياء كلها

٤ — عقل الثقافة الحديثة

عقل الثقافة الحديثة هو العقل الجديد عقل العلم والاختراع والاكتشاف . وانت عندما تريد ان تستكنه روح القرون الوسطى وتحب أن تعرف ماذا كان العقل الغالب في تفكير المفكرين في تلك القرون سواء في الشرق أم الغرب تجدان هذا العقل انما كان يتهيأ للنهضة العلمية الحديثة . فقد خرج من الادب القديم الى المجادلات اللفظية التى تبدو لنا الآن عقيمة لا هي بالادب ولا هي بالعلم ولكنها كانت في الواقع تهيؤاً للتحقيق العلمي وخروجاً من الاستسلام لخواطر الثقافة القديمة . لان تلك المجادلات التي تجد بذرتها في ارسطوطاليس والتى

تجدها ايضاً في كتب الغزالي وابن رشد وكتب اللاهوتيين من الاوربيين انما كانت شحذاً لهذا العقل الجديد الذي شرع يشرق على العالم يهجر الادب ويطلب العلم. وهذا التحقيق في الالفاظ والتعاريف انما كان رياضة ابتدائية للتحقيق في الحقائق ذاتها على النحو الذي تكون فيه رياضة الجندي في ميدان ثكنته تهيؤا للحرب في المعركة

فالعقل العلمي هو احدث عقولنا الاربعة المضمره في نفس كل منا وهو لذلك اقلها ثباتاً لم تضرب له عروق ولم تبسق له فروع في انفسنا. وكأس واحدة من الخمر تجعله يخمد في رءوسنا فليس منا من يمكنه ان يقرأ كتاباً علمياً في وصف آلة وهو منتش بعض الانتشاء من الخمر. ولكن كاساً وكاسين لا تمنعاننا من قراءة القصص. اجل ولا من قراءة الشعر. بل ماذا اقول؟ أليس عندنا شعراء ينظمون الشعر وهم سكارى؟ وفي السكر تجري الخواطر سائبة هاملة فهل بعد ذلك نحتاج الى برهان لكي نقول ان الشعر والادب كله من الخواطر؟

ولكن يجب ان نمضي فنقول ان النشوة البسيطة التي لا تمنعنا من تلاوة الشعر وقرضه اذا استحالت سكراً ثقيلاً جعلتنا نعربد لانها تخرجنا من الثقافة القديمة الى همجية الجدود قبل اي ثقافة او حضارة فاذا اشتد السكر فنحن عندئذ لسنا همجاً فحسب بل حيوانات نفكر فيما يفكر فيه الحيوان فقط بل الحيوان الاعجم لان الخمر تعقل لساننا

وهذا كله يتسق وما قلناه آنفاً من ان نفس الانسان تنطوي على اربعة عقول احدثها العقل العلمي الذي يستقري، ولا يعرف العاطفة، ثم يليه عقل الثقافة القديمة عقل العواطف والشعر والادب والاساطير والمجاد الوطنية والزراعة والحروب، ثم يليه ماهو اقدم منه وهو العقل الهمجي، وأخيراً نرى ارسخ عقولنا وأقدمها وأثبتها في نفوسنا وهو عقل الحيوان





لمحة في الطبيعة

من اخطائنا اننا نتوهم أنفسنا في الطبيعة فنعكس فيها صورتنا . فنعتقد مثلا ان الاحياء تسعى في النهار وتنام في الليل كما نفعل نحن . ولكن الحقيقة ان معظم أحياء العالم من هوام وحشرات وسباع تسعى ليلها وتنام نهارها

واذا قيس الليل بالنهار في اعتبار الطبيعة من حيث نشاط الحيوان وهدوئه كان الليل وقت السعي والحركة وكان النهار وقت الدعة والسكون . ونحن نعرف ذلك في بيوتنا وقرانا وحقولنا . فالبعوض مثلا لا يهيج الا في الليل ولا تسلطه علينا الطبيعة الا ونحن نيام في الظلام . وكذلك الصراصير والخنافس لا تدب الا وقت الظلام . فالمطبخ خلو منها ما دام ضوء النهار يغمره فاذا كان الليل وذهب النور خرجت الحشرات تتقمم كناسة المطبخ

وكذلك تفعل سائر الحيوانات في حقولنا . فالثعبان لا يسعي في طلب البيض والعصافير والجرذان الا عند ما يحميه ظلام الليل من

كواسر الطير ومن الانسان . وكذلك الذئاب تتعاوى في الليل ولا نسمع عواءها في النهار بل لا نراها في النهار . فالنهار هو وقت سكونها والليل وقت هبوبها وغاراتها . ذكر احد الانجليز انه كان في روسيا وقد ركب مزلجة يجرها فرس على الثلج في الظلام الدامس . فاغارت عليه بعض الذئاب فاعمل السائق السوط في الفرس يستحثها على العدو وأخذ الانجليزي يطلق النار على الذئاب المطاردة . ولكنه كان طول الوقت يرى بصيص النور على طول الطريق كأنه ضوء مصابيح . فقال للسائق : علام العدو ؟ ألست ترى المصابيح ؟ فنحن في قرية فلندخل احد هذه الاكواخ حتى تذهب عنا الذئاب . فاجاب السائق قائلاً : ان ما تراه يا سيدي ليس مصابيح وانما هو عيون الذئاب المتربصة بنا في الطريق

والخفاش هو حيوان الليل غير مدافع . والعجب في هذا الحيوان انه يحس البعوضة باطراف أجنحته ويتوقى العوائق في طيره ولو كان أعمى . فقد فقئت عيون الخفافيش فطارت في الليل وصادت بعوضها ولم تتأثر بالعمى . وليس يمكن تفسير ذلك الا بان حاسة اللمس قد اشتدت في أطرافها حتى صارت تحس تموجات الهواء التي تحدثها بعوضة أو فراشة . وبعض الخفافيش تعيش في الكهوف حيث الظلام حالك دامس لا يمكن العين — حتى عين الخفاش — رؤية شيء فيه ومع ذلك تسلك طريقها وتعرف أوكارها . وفي اميركا خفاش مصاص يمص دم الحيوان انساناً كان أو فرساً أو بقرة بحيث

لا تحس هـذه الحيوانات ان الخفاش قد حط عليها أو مص دمها . والحقيقة ان الخفاش لا يحط عليها وانما يلامسها بفمه ويبقى وهو يمص دمها رافعاً نفسه في الهواء برفرفة جناحيه . وليس لرفرفته صوت يسمع وكذلك ليس لعضته من الالم اكثر مما لعضة البعوضة . فاذا كان الانسان نائماً لم يشعر بشيء فاذا استيقظ وجد انه قد فقد نحو رطل من دمه

وفي حقولنا لا نرى الخلد أو القنفذ الا في الليل . فهما لا يسعيان الا عند الظـلام . أما الثعلب فقد نراه في النهار ولـكننا لا نراه يسعى سعي الجد ، فالنهار وقت لعبه ومرحه لا وقت سعيه للمعاش . ولذلك لا تخشاه الحيوانات في هذا الوقت ولو رأته . فقد ذكر احد الانجليز المختصين برعاية الارانب والثعالب في مصطاد لاحد اللوردات انه رأى الثعالب تلعب في النهار قريباً من جحر الارانب وكانت هذه الارانب تلعب أيضاً خارج الجحر وترى الثعلب فما كانت تخشاه أو تحاول الهروب منه والاختفاء في جحرها حتى اذا آذنت الشمس بالمغيب دخلت الارانب أجحارها وبان الجد في وجه الثعلب . ومن الرياضات المعروفة عنـد اثرياء الانجليز أن يصيدوا الثعالب في مصطادات خاصة وهم لذلك يطلقون الارانب في هذه المصطادات لكي تقتات بها الثعالب

وفي الصباح في شوارع القرى بل في صحون البيوت نجد آثار سير الثعبان مما يدل على نشاطه طول الليل

واكثر الطيور تسعى في النهار ولكن منها مع ذلك ما يقصر سعيه على الليل كالبوم ، ونحن في القاهرة لا نري افاعيل البوم في الليل رؤية العين ولكننا نسمع بضجيج المعركة في هدوء الظلام . نسمع أولا صوت العصفور الذي قبضت عليه البومة وهو نائم في الشجرة يصيح صيحات الالم وهي عالية أولا ثم تخفت لان البراثن قد دخلت الى باطنه . ثم تصمت لان ظفراً قد وصل الى قلبه فنعرف انه قد دخل في الابدية . وعندئذ تصيح البومة صيحات الظفر وتشرع في عشائها أو بالاحرى فطورها . وهكذا يستمر تنازع البقاء في الليل حتى يصح قول هكسلي : — « الطبيعة حمراء بين الناب والمخلب »

ولكن الغابة هي مكان هذا التنازع. فاذا جاء الليل عجت وضجت بافاعيل السباع ونشاط الحيوان . حتى البهائم أنفسها كالجاموس والظباء والايائل لا تسعى الا في الليل تذهب الى المشارع البعيدة لكي تشرب فتجد الاسود والببرة والنمور قد كمنت لها . وترى التماع عيونها في الظلام فتقف هنيهه بين الم العطش الذي يكاد يقتلها وبين الخوف على حياتها التي توشك أن تتطاير بين مخالب هذه السباع الفاتكة . وأخيراً يقهرها العطش على الورود . فتقذف بنفسها الى الماء وتخطف كرعة واحدة ثم تطير ناجية بنفسها على أقدامها الخفيفة . ولكن في هذه اللحظة السريعة تسمع اصطكاكاً يشبه التقاء جسمين جامدين في وسط الهدوء الشامل . فقد وثب أسد على جاموس وضربه بكفه العاتية على رأسه ضربة قوية فمال الرأس الى تحت

لعظم الصدمة فطال العنق ففرز الاسد أنيابه فيه حتى التقت وكسرت الفقار وقطعت عصب النخاع بين هذه الفقار . فوقع عندئذ الجاموس كانه كومة تراب قد اهيلت . والجاموس الآن يتشحط في دمه وينفخ ويضرب الهواء بأرجله والاسد رابض على بعد قليل منه وعيناه تقدحان الشرر ينتظر سكون الموت وهو يتلذذ بلذة الظفر . فاذا كان ذلك زأر زأرة او زأرتين ثم يشق البطن و يأكل الكبد والقلب وما اليهما من الاطايب . وعلى نحو عشرة أمتار من الاسد وفريسته تجد ابن آوي او ثعلباً قد وقفا ينتظران ما يتركه الاسد . ومن وقت لآخر يتقدم الثعلب فيخطف مزعة من اللحم فيهجم عليه الاسد فيطير الثعلب ورأسه الى الوراء ينظر المسافة بينه وبين هذا الموت الجارف

كذلك تستمر حرب تنازع البقاء في الغابة . في النهار سكون وهدوء وفي الليل حركة ونشاط . حتى الفيلة نفسها وهي لا تخشى حيواناً تسعى في الليل وترتاح في النهار . وفي جنوب افريقيا تغير على حقول قصب السكر في الليل فتتلف في « عيادة » واحدة ضيعة باكملها فيذهب في ساعة ما قاساه الفلاحون من جد وتعب في عام . بل القردة أنفسها تهجم على الحدائق في الليل فتأكل اثمارها وهي صامتة حتى لا يتنبه أصحاب المكان فاذا كان ضوء الفجر ولت هاربة الى الغابة

فالليل في الغابة هو وقت المعركة بين السباع والبهائم . تلك تكمن وتثب وهذه تعدو وتنجو بنفسها . وملتقى الاثنين هو المشرع حيث

تشرب البهائم والسباع . والبهيمة تعرف الخطر في ورود الماء فهي تتقدم محاذرة مترددة ولكن نار العطش تأ كلها فتجازف واذا بجسم يرتمي عليها كالقنبلة فاذا حادت عنه نجت وفرت . واذا لم تسعفها أعصابها وعضلاتها وقعت وانتهت حياتها . بل من الماء تخرج لهـا أعداء . فضربة واحدة من ذنب التمساح ثم ثلاث او اربع فقاقيع ثم ينتهي كل شيء كأن لم يكن في العالم غزال يروح ويجيء

ثم لا يدخلن مع ذلك في ذهن القاريء ان هذا شر . بل كله خير في النهاية . فتنازع البقاء يعمل لحدة الذكاء في الحيوان كافة . ولسرعة العدو في البهائم ولصدق الوثبة في السباع . يعلم الاولى الجلد على العطش والجوع ويعلم الثانية الصبر في الكمون ويرقي فيها جميعها مادة أعصابها وعضلاتها





اليد واللسان

اصل الرقي في الانسان

كلما تأملنا أحوال الرقي في الانسان الحاضر والغابر زدنا بصيرة في معنى هذا الرقي وأدواته . فهو يرجع الى اللسان واليد أكثر مما يرجع الى العقل

فاننا نتباهى على الحيوان بكبر أدمغتنا وهي في الواقع كبيرة ليس في العالم حيوان يدانينا في جرمها وان كان أحد القردة في أميركا الجنوبية يقاربنا فيها اذا اعتبرنا نسبة دماغه الى جسمه . ولكن كبر الدماغ وحده ليس العامل المهم في الرقي بدليل أن هذا القرد الذي ذكرناه لا يبدي من الذكاء أكثر مما تبديه سائر القردة العالية بل الواقع أنه دونها في الذكاء

وانما العامل في هذا الرقي العظيم الذي بلغه الانسان وتفوق به على سائر الحيوان يرجع الى يده ولسانه . وقد كان يجب علينا أن نلحظ ذلك من قبل اذ أن ثقافة الانسان وماله من لغة راقية ومعارف مدونة أو مروية ومأثور في الأدب أو العلم ينقله الخالف عن السالف

ومكاتب عامة ترجع كلها الى لسانه . ثم أن حضارته وما فيها من فنون في البناء والصناعة والترف ترجع الى يده

وقد يعترض القاريء بأن اليد واللسان لا قيمة لهما بدون هذا العقل الذي هو ثمرة الدماغ الكبير . فالجواب على هذا الاعتراض أن نصف هذا العقل يكفي لايجاد حضارة وثقافة تنقلان من السلف الى الخلف . فاننا نرى من اختباراتنا أن معايشنا لا تحتاج الى استعمال كل عقولنا فاننا نعيش ونحصل على القوت والانثى والمسكن بقليل جداً من استعمال عقولنا وكثير جداً من استعمال يدنا في الصناعة وألسنتنا في التفاهم . ولكي نزيد قولنا ايضاحاً يمكن أن نفرض فرضاً سخيفاً فنقول اننا لو أخذنا مائة ابله جرم الرأس في كل منهم لا يزيد عن ثلثي الرأس العادي ووضعناهم في جزيرة منفردة لأمكنهم أن يعيشوا ويحدثوا لأنفسهم نظاماً انسانياً فيه ثقافة وحضارة بشرط واحد وهو أن يكونوا قد تعلموهما قبلاً في وسط انساني عادي . ولكننا لو أخذنا مائة فيلسوف وقطعنا ألسنتهم وأيديهم ووضعناهم في مثل هذه الجزيرة المنفردة لما استطاعوا أن يعيشوا الا عيشة بهيمية سرعان ما تقضي على حياتهم

فاليد هي اداة الحضارة واللسان هو اداة الثقافة ، وهما كفيلان بالرقي الانساني اذا صحبا بقليل من الذكاء . وربما كانت أكبر نكبة نكبت بها القردة فحالت دون رقيها هو فقدانها ابهام اليد أو الجزء الأخير منها حتى باتت أيديها لا تحسن التناول فلا تحسن لذلك أية

صناعة . وهي انما فقدت ابهامها لاقتصارها على السكنى في الاشجار واحتياجها للوثوب من غصن الى غصن . وهذا الوثوب يقتضي أن تعوق الابهام سائر الأصابع في التعلق

ولـكن الانسان لم يقصر نفسـه على الشجر أو الأرض وانمـا سكنهما جميعاً فانتفع بالأرض لبقاء ابهامه وانتفع بالشجر لتحرير قواه العصبية وضبط أعمال اليد . ولسنا نشك في المعيشة القديمة على الشجر أو على الأقل في استعمال الأشجار وسيلة للفرار من العدو بدليل ألا المزاولة البسيطة القصيرة تجعل البهلوان من الانسان الآن يسلك مسلك القردة في الانقلاب والوثوب والتعلق . ولو لم تكن أعضاؤنا مهيأة لهذه الألعاب لما استطاع انسان أن يؤديها . ومعيشة اليابسة وحدها ليس من شأنها أن تهيء الانسان لهذه الأعمال. وهذه الالفة بالأشجار قد حررت أعصابنا وجعلتنا نقدر لـكل مجهود مقداره من القوة العصبية لأنه من السهل على القاريء أن يرى أن الحيوان في الماء أو على اليابسة لا يميز بين المجهود كبيره وصغيره وانما هو يفر من أي خطر تافه أو عظيم بمجهود عصبي واحد وهو يغضب للسبب الحقير أو الخطير بمجهود عصبي واحد لا يتدرج . ولـكنما الانسان لالفته الغصون قد صار يحتاج الى تقدير قفزاته ،لانه لو كانت كل قفزاته متساوية كما هي قفزات حيوان اليابسة وقت الخطر أيا كان مقداره لوقع وهلك لأن الغصون غير متساوية في البعد

فالالفة بغصون الأشجار جعلتنا نحرر أعصابنا ونجيد تقدير الابعاد

ولا ننفق من قوانا العصبية الا بمقدار ما نحتاج اليه فقط . والالفة باليابسة جعلتنا نحتفظ بابهامنا . وتمت لنا بذلك ميزة على القردة التي هي أرقى الحيوانات بعدنا لأننا نستطيع أن نزاول الصناعة بأيدينا وهي لا تستطيعها

ومهمة اليد في رقى الانسان لا تختلف عن مهمة اللسان. فكلاهما يعمل للايضاح والتقييد . فان من طبيعة العقل الانساني أنه لا يدرك معنى من المعاني الا اذا وضع له اسماً أو رمزاً، ولا خيالا من خيالاته الا اذا جسمه بجسم ما . وليس الفرق بين سبنسر الفيلسوف الانجليزي وبين الهمجي الذي يعيش للآن في الغابات في أفريقيا هو فرق بين الجرم في دماغيهما فانهما يستويان في ذلك . ولكنما هو فرق بين لغة كل منهما . فسبنسر يعرف نحو ربع مليون كلمة هي ربع مليون معنى خاص بالحضارة والثقافة وهذا الهمجي أقصى ما يعرفه نحو مائة كلمة فالمعاني التي يتناولها دماغه لا تزيد عن هذا العدد

فاللسان يقيد المعاني ويجعل للفرد مأثوراً من الثقافة . فنحن مثلا في مصر ليس عندنا تلك الثقافة الخاصة بالطيران والطب والهندسة والفلك لأنه ليس في لغتنا ألفاظ لمعانيها . وماعندنا من منطق وذكاء وفهم يرجع معظمه الى أن عندنا معاني واضحة لأن الالفاظ لهذه الأشياء قيدتها في حدود معلومة . ولذلك فمن السداد ألا تتعدد المعاني للفظ الواحد ولا الالفاظ للمعنى الواحد

وقامت اليد في الحضارة مقام اللسان في الثقافة، وهي أنها جسمت

الخيال الذي يتخيله الانسان في جسم ما . ومهمة هذا الجسم تشبه عندئذ مهمة الاسم في ايضاح المعنى . فالمخترع الذي يخترع لا يفهم اختراعه ويدرك ما فيه من محاسن أو مساوي مالم يقبض بيده على المواد يجسم بها خياله . ويده وهي تطاوعه تفتح له المعنى بعد الآخر وتزيده فهماً ويزيدها هو صنعة . فتتبادل اليد والدماغ هذه المعرفة الجديدة ويتم الاختراع وتزداد ثروة الحضارة شيئاً جديداً . فاليد كاللسان اداة تعبير وايضاح . وفنون الحضارة كلها من كتابة الى تصوير الى عمارة الى هندسة الى طب قائمة على براعة اليد التي يضع اللسان أسماء مفصلة لأجزائها حتى تصبح مأثوراً ينقله الخلف بلا عناء عن السلف

وخلاصة ما تقدم أن أكبر عامل لرقي الانسان هو لسانه ويده فهذان العضوان عندنا من أدق الأعضاء اذا قوبلا بما عند جميع الحيوانات . ففينا من يمكنه أن يحاكي بمزاولة قصيرة أي طائر في شدوه وأي حيوان آخر في صوته. ويمكننا ببراعة أيدينا أن نلعب كالبهلوان جميع العاب القردة

فأما براعة اللسان فلا نعرف أصلها . وأما براعة اليد فترجع الى الفتنا الاشجار التي اكتسبنا منها ميزة أخرى هي ضبط أعصابنا وتقدير الابعاد في حركة أعضائنا . ومن براعة اليد واللسان نشأت حضارتنا وثقافتنا . وذلك لأن اليد صورت لنا الأشياء في صور مجسمة يمكن محاكاتها واعادة صنعها بدون الحاجة الى تكرار الاختراع . واللسان أحدث الأسماء التي هي قيود المعاني ؟



الديمقراطية والذرة

حاول كثيرون من المؤرخين والاقتصاديين مثل ماركس وبتري ومالثوس أن يردوا تطورات الامم وارتفاعها وانخفاضها الى عوامل اقتصادية كل منهم على حسب عقيدته الاجتماعية . وربما كان انزههم غرضاً وأوضحهم طريقة وأعمقهم درساً توماس بكل المؤرخ الانجليزي . فقد عقد فصلا يحتوي على نحو مائة وخمسين صفحة استقرى فيه علاقة الطعام بالامة من حيث تقسيم طبقاتها الاجتماعية وحالة عمالها والحقوق السياسية التي يحصل عليها كل فرد منهم

ولما كنا جميعاً تلوك السنتنا الفاظ الديمقراطية والاشتراكية وبدأت تتكون عندنا مسألة عمال رأيت ان اقدم للقراء بعض آراء « بكل » عن تأثير الذرة — وهو نبات معروف مزروع في مصر وسوريا والعراق — في أحوالنا الاجتماعية

يرى بكل ويؤيده التاريخ ان الحضارات الاولى كانت زراعية على ضفاف الانهار في البلاد الدافئة مثل حضارات النيل ودجلة

والكنج وحضارات الصين . وانما الحضارة ممكنة في هذه الاصقاع لان الحر ليس من الشدة بحيث يمنع العمل المتوالي كما هو الحال في وسط افريقيا . ثم ان شدة الحر والرطوبة (كما هو الحال في اودية البرازيل) تدعو النبات الى النمو السريع فتكثر الغابات فلا يستطيع الانسان ان يتغلب على الطبيعة الطاغية بادواته الزراعية البسيطة . فالزراعة لاتمكن في هذه الحال وينتج عن ذلك استحالة نشوء الحضارة

ثم ان الحضارة تحتاج الى طبقة من الناس في راحة نسبية غير مكدّحة أو مجهودة في طلب المعاش . فاذا كان الانسان يعيش في غابة يلتمس قوته يوماً بيوم فانه لن يجد من الوقت ما يساعده على الصناعة او الاختراع والاكتشاف . وكلها ضروري للحضارة

لهذا السبب لم تنشأ حضارة في بلاد شديدة الحر والرطوبة لان زكاوة النبات منعت الزراعة المنتظمة . وانما نشأت الحضارات في أودية الانهار التي ذكرناها فنشأ هناك نظام اجتماعي متألف على الدوام من طبقتين وهما طبقة السادة وطبقة الفعلة المستعبدين . فمن السادة كان يخرج الحكام والكهنة والولاة والاغنياء . أما الصناع والفلاحون فكانوا عبيداً يستذلهم افراد تلك الطبقة فلم يكن عند المصريين القدماء مثلا طبقة متوسطين

وأهم ما يلفت اليه بكل نظر القارىء أن الفعلة أو العمال في تلك المدنيات الزراعية القديمة كانوا مستعبدين . وقد توصل الى هذه النتيجة باستقراء التواريخ القديمة والحديثة ثم بالنظر في علاقة الطعام بكثرة السكان

فقد كان المصريون يزرعون الذرة عقب الفيضان وانسياح مياه النيل في الاودية فلم تكن تمضي أشهر معدودات حتى يثمر الذرة وتعم غلته البلاد . واذا كثر الغذاء كثر السكان فكان الناس يتناسلون بنسبة ما في البلاد من هذا الغذاء الوافر . وأجور العمال مثل اثمان سائر السلع التي تباع وتشترى . فاذا اكثر العمال قلت اجورهم واذا قلوا زادت . وقد كان العمال في مصر كثيرين بسبب كثرة الذرة وكانت لذلك أجورهم منحطة بل كانوا يشتغلون بقوتهم

والحقوق الاجتماعية والسياسية تتبع القوة المالية . فذوو المال هم أيضاً ذوو السلطان . وقل أن لا يستبد ذو سلطان ويسيء استعمال سلطته . لذلك جارت الطبقات السائدة على الطبقات المسودة في الحضارات الزراعية القديمة

ومما يزيد قوة الطبقة السائدة ما يلاحظ من أن الربا وايجار الارض يزيدان اذا كانت أجرة العامل قليلة . ثم أن حرمان طبقة العمال من الربح الكافي يجعلهم في فقر دائم . والفقر مجلبة للاحتقار وللحرمان من الحقوق السياسية والاجتماعية

قال بكل : « ولنختصر ما قلناه في جملة وهو أن سكان مصر تكاثروا بسرعة لانه بينما كانت تربة النيل تزيد الطعام كان المناخ يقلل الحاجات وكانت نتيجة ذلك ان مصر لم تكن أكثر البلاد سكاناً في افريقيا فقط بل الارجح أنها كانت اكثر أقطار العالم القديم سكاناً»

وقال أيضاً : « كان اذا غير أحد طبقة الصناع مهنته (في مصر)

أو عرف عنه الالتفات الى المسائل السياسية جوزي جزاء صارماً . ولم يكن يؤذن بأية حال للأكار أو للصانع أن يمتلك ارضاً، فان امتلاك الارض كان خاصاً بالملك والكهنة والجيش . وكانت حالة عامة الشعب لا تفضل حالة الماشية الا يسيراً . ولم يكن يطلب منهم سوى العمل المتواصل الذي لا يؤجر أجره . فاذا أهملوا جلدوا ... ومثل هذه الانظمة كانت مدبرة أحسن تدبير يوافق تلك الهيئة الاجتماعية التي كانت قائمة على الحكم المطلق فكانت تحتاج الى القسوة لدعمها والمحافظة عليها . ثم لما كان مجهود الامة كله قيد ارادة جزء صغير منها تمكن المصريون من تشييد تلك البنايات الضخمة التي يحسبها البعض بدون انعام الروية انها برهان الحضارة وهي في الواقع دليل الانحطاط ... »

فكثرة الغذاء ورخصه وقلة الحاجات من لباس ومسكن ووقود كما هو الحال في البلاد الحارة تدعوان الى كثرة السكان وازدياد عدد العمال . واذا ازداد عدد العمال تزاحموا للحصول على أقل اجر ممكن وهو ما يكفي لقوتهم . فينتج من ذلك أنهم يعيشون في فقر مدقع . والفقر مجلبة للاحتقار والحرمان من الحقوق السياسية والاجتماعية . فتنتهي حالهم الى مايشبه الرق . وهذا كان حال العمال (ولا يزال في بعض الجهات) في مصر والهند والصين وبعض حضارات أميركا القديمة

وقد بلغ من ازدراء الطبقة السائدة في الهند وهم البراهمة بعامة

الهندويين أن نصوا في شرائعهم على عقابات صارمة لهفوات صغيرة تشبه ما كان عند المصريين القدماء بل قد تفوقها شدة وصرامة .فمن ذلك انه اذا ازدرى باللفظ أحد العامة برهمياً أحرق فمه ، واذا سبه شق لسانه ، واذا ضايقه قتل

والعامل الاقتصادي أو بعبارة اخرى الطعام الرخيص وقلة الحاجة للملبس والمسكن هما سبب هوان العامل الهندي وازدراء الخاصة للعامة . فانهم قد تكاثروا فنزلت اجورهم ، فعمهم الفقر ، فحرموا من الحقوق السياسية والاجتماعية

والعبرة التي نعتبرها مما ذكرناه ان مناخ البلاد في الهند ومصر يقلل حاجات الانسان .وطعام الذرة لوفرته ورخصه يزيد عدد السكان ، وازدياد السكان يؤدي الى رخص الاجور ثم الى نشر الفقر .والفقر مدعاة الى الاحتقار والى حرمان العامة من الحقوق السياسية والاجتماعية . والحال ليست كذلك في أوربا لأن المناخ البارد يكلف الانسان عدة تكاليف من لباس ومسكن ووقود وغذاء .ثم ان الغذاء غالي الثمن ، فزيادة السكان بطيئة ، وهذا يدعو الى قلة عدد العمال ثم زيادة أجورهم وحفظ كرامتهم. فاذا كانت الديمقراطية في حاجة الى من يحافظ عليها في أوربا من طمع المستبدين فهي احوج عندنا الى هذه المحافظة ، فان الغذاء والمناخ كليهما يساعد على الاستبداد بالعامة



الحيوان
بين عاملي الحب والخوف

الخوف من غرائز الحيوان والانسان معاً . فكلاهما مفطور على الحذر من كل غريب والفرار منه عند اللقاء الاول . والحيوان يتفاوت في عاطفة الخوف . فمنه ما يفرق لاقل حس أو حركة كما هو الحال في الارنب البري ومنه ما يسير في الغابة كأنه يسير في بيته كما هو الحال في الأسد أو الببر يمشي أحدهما فيتخلع وكأنه يتبختر يوهم الرائي انه شاعر بقوته لا يهاب أي مخلوق . ومع ذلك هذا الأسد مع شجاعته كثيراً ما يخاف الشيء الغريب ويفر منه . فقد ذكر بعض الصيادين ان أسداً هاجم خيامه وفاجأ زوجته فلم تر شيئاً قريباً منها سوى مظلة فتناولتها و بسطتها في وجهه فتراجع الاسد مرتاعاً اذ لم ير شيئاً في حياته يكبر وينبسط بهذه السرعة . فكأنه حسبه حيواناً غريباً قد يؤذيه وقد يستمر على الانبساط حتى يلتهمه

ولكن غريزة الخوف التي تولد مع الحيوان تكون في بدايتها

شيئاً غشياً . ضعيفاً مبهماً. فاذا نشأ الحيوان أخذ من والديه ومن تجارب الايام ما يصقل به هذه الغريزة ويوضح حدودها ويقويها من نواح ويضعفها من نواح أخرى .

ففراخ الطيور تنشأ وكأنها لا تخشى شيئاً فهي تتناول الطعام من أيدينا كما تتناوله من أفواه أمهاتها . ولكن ما هو أن تشب حتى تتعلم من أمهاتها الخوف وتعرف عدوها من صديقها . وكذلك الحال في أكثر الحيوان .

فنحن نولد مثلا وفي نفوس كل منا اثارة خوف ورثناها عن آبائنا تجعلنا لا نطيق الانفراد في الظلمة . ولا شك في ان هذه الغريزة كانت مفيدة لابائنا إذ كانت تدفعهم الى الاجتماع فيشد بعضهم بعضاً . وكانوا لا يتطوحون في مهاوي الظلمة حيث وسائل الهلاك عديدة

وقد ضعفت هذه الغريزة في نفوسنا بعض الضعف ولكن قام مقامها مخاوف أخرى اقتضتها الحضارة ورقي الفكر . فنحن نخاف الافلاس والموت والأمراض وما اليها

وجميع أفراد الحيوان التي عرفت الانسان تخشاه وتفر منه . ولا يتورط معه حيوان في شجار الا عند الاستقتال وعندما تقفل في وجهه جميع منافذ الخلاص ، أو عندما يعضه الجوع فيشفي منه على الهلاك . فالاسد مثلا لا يهاجم القرى الا عند ما تقع أسنانه وتنهد قواه فلا يطيق الجري وراء حيوان الغابة . فاذا ضري على أكل الانسان لم يتحول الى غيره

وعلة خوف الحيوان من الانسان يرجع الى التجارب القديمة وما أبلاه قديماً في عامة الحيوان طيوراً أو دواب . فقد عاش الانسان حقباً عديدة وهو يقنص الحيوان للطعام واللهو . فانغرزت في ذهن الحيوان غريزة الخوف منه وتوارثها الخلف عن السلف حتى صارت فيه طبيعة ثابتة . ومما يدل على هذا ان الحيوان الذي يعيش بعيداً عن الانسان منذ أزمنة طويلة لا يخافه ولا يحسب حسابه أو يفر عند اقترابه. فقد ذكر داروين انه كان في أرخبيل الجلاباجوس سنه ١٨٣٥ وهذا الارخبيل لم يقطنه انسان قط فجميع انواع حيوانه لا يخشى الانسان . قال :

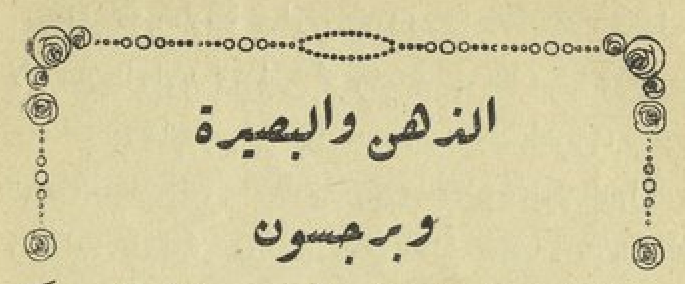
« ان جميع حيوان اليابسة كالعصفور والحمام كانت جميعها تقترب منا بحيث نقتلها بالمدية وأحياناً كنت أقتلها أنا نفسي بالقبعة . ولاضرورة هنا للبندقية فقد دفعت صقراً عن غصن شجرة بطرف انبوبتها . وكنت في أحد الايام راقداً وكان بجانبي ابريق ماء مصنوع من صدف السلحفاة فحط عليه العصفور وأخذ يحسو الماء منه . ورفعت الابريق عن الارض وهو لا يطير عنه . وكثيراً ما حاولت ان أمسك هذه الطيور من ارجلها وكدت انجح »

فمن هذا يتضح لنا ان معظم الخوف الذي يشعر به الحيوان من الانسان هو نتيجة التجارب التي بلاها منه . فقد حدث تنازع بقاء بين الحيوان مات فيه الجرىء الذي لا يخشى ان يتعرض للانسان وبقي الخائف الحذر الذي يتوقاه ويفر منه

فهل تبقى علاقتنا بالطير وسائر الحيوان علاقة عداء وخوف لا ينتهيان الى الابد ؟ أو ليس ثم موضع للحب بيننا و بينها ؟

لسنا في مقام الصوفية فنقول مع القديس أوغسطينوس : « أخي الطير » ونطالب تعميم الاخاء بيننا و بين الحيوان . ولكننا نقول ان زمن اعتماد الانسان على الحيوان في المعاش يصيده و ينصب له الفخاخ قد مضى . فليس يعدو الصيد الان ان يكون لهواً لا فائدة مادية فيه . وقد كان تجار قبعات السيدات الى عهد قريب يقتلون الآلاف من الطيور حتى كادت تفنى . وهذا أبو قردان قد كاد ينقرض في بلادنا عندما أعمل الصيادون فيه بنادقهم حتى شملته عناية حكومتنا فعاد الى الانتشار بين حقولنا ويطهرها من الديدان . وقد منعت أغلب الحكومات صيد الطيور بغيـة الحصول على ريشها وأسست حرماً في افريقية الجنوبية يمنع فيه صيد الفيلة . والرأي العام في العالم المتمدين يدعو الى حماية الطير والحيوان بوضع قيود وحدود لصيده

واذا جاء يوم يمنع فيه صيد الطيور وانواع الحيوان التي لا تؤذي الانسان فلن يكون بعيداً أو مستحيلاً أن يزول منها خوفها الراهن من الانسان فتعاملنا كما عاملت داروين طيور ارخبيل الجالاباجوس .



الذهن والبصيرة وبرجسون

كان القرن التاسع عشر قرن الصراع بين العلم والدين . ولكن هذا الصراع عندما ننظر اليه بالنظر الحديث نجد انه كان قائماً على أشياء تافهة لا يبالي بها الآن رجل الدين ولا رجل العلم . فقد كان النزاع بين الاثنين في القرن التاسع عشر قائماً على التناقض بين ما ترويه الكتب الدينية عن خلق العالم ونظام الكواكب وصحة الروايات التاريخية ونحو ذلك . فكان العلم يقول قولاً ويقول الدين قولاً آخر

هذا النزاع القديم ليس فينا الآن من يبالي به . فان صحة القصة المروية عن يوسف ابن يعقوب مثلاً أو عدم صحتها لا تزعزع ايمان أحد في اليهودية أو المسيحية . لان الايمان الديني لا ينحصر في هاتين الروايتين وانما هو يعم العالم ويتنوع عقائداً وأفكاراً كما نرى في البوذية والاسلام والبرهمية وغيرها . فصحة الدين تقتضي النظر في روح هذه الاديان كلها واستخلاص لبابها والبحث بعد ذلك عما يتناقض في هذا اللباب مع العلم

ويبدو لنا ان الناس أو بالاحرى العلماء قد صار للنظر الديني

أو الصوفي حرمة عنـدهم لم يكن يشعر بها علماء القرن التاسع عشر.
ونحن نعزو هـذا الانقلاب الى رجلين اثنين هما : كانط الالماني وبرجسون الفرنسي

فقد شرع كانط في ختام القرن الاسبق ينتقد الذهن الانساني ويقول انه لا يمكنه أن يقف على كنه الحقائق لأنهُ لا يعرف غير صورتها فقط كما تظهر له . فنحن نعرف الظواهر لا الحقائق . أي اننا لا نعرف الاشياء التي نراها في هذا العالم وانما نعرف الافكار التي تؤلفها اذهاننا عنها . فنحن بازاء العالم او الكون كالرجل في غرفته يتطلع من النافذة الى الشارع ويرى السابلة . فالنافذة هي واسطة التعارف بينه وبين هؤلاء السابلة . وكذلك حالنا نحن أيضاً في ادراك حقائق هذا الكون ننظر اليها عن سبيل حواسنا وأذهاننا ولا نتصل بها مباشرة فلا نعرف عنها الا ما ترتئيهِ هذه الاذهان عنها وما تكونهُ من الافكار. وبايضاح اكثر يمكن ان نقول : انني لا أعرف هذه الورقة ولا أقف على كنه حقيقتها وانما أعرف فقط فكرتي عن هذه الورقة

وقد كان من أثر كانط ان تزعزعت المادية في القرن التاسع عشر. ثم جاءت نظرية التطور في منتصفه. ومن ينظر اليها يعتقد لاول وهلة انها زعزعت الاديان لأنها أنكرت روايتها للخلق. وهذا حق . ولكن يجب من جهـة أخرى أن نذكر ان هذه النظرية قد اضعفت الثقة بالذهن الانساني لانها جعلته ناقصاً يتطور و يسير نحو الكمال. ومادامت الافكار هي عبارة عن العلاقة بين المادة والذهن فان هذه الافكار

تتطور أيضاً بتطور الذهن . فما نظنه حقائق انما هو افكار دائمة التطور . فصحتها هي على الدوام صحه نسبية غير مطلقة

وجاء برجسون في عصرنا الحديث فتناول من جهة أخرى هذا الموضوع اي استنقاص الذهن البشري وعدم كفايته لأن يدرك حقائق الكون . وبرجسون منقوع في نظرية التطور يسير فيها على هداية ولا يخبط . فهو يقول ان حياة الحيوان كما نستقريها الآن مقسومة الى قسمين من حيث الوعي والادراك. وهذان القسمان هما :

١ — حياة الحشرات التي تعتمد في الادراك على الغريزة بلا حاجة الى معرفة مكتسبة

٢ — وحياة الانسان والحيوانات الراقية التي تعتمد على العقل المحتاج الى معرفة مكتسبة

وليس يشك أحد في اختلاف الغريزة من العقل وانهما سبيلان مختلفان جد الاختلاف للاتصال بحقائق هذا الكون. ولكن لما كانت الاحياء كلها من أصل واحد قد نبعت وتفرعت منه فاننا نجد في جميعها بذرتي الغريزة والعقل . ففي النملة أو النحلة شيء طفيف من العقل كما ان في الانسان جراثيم الغريزة

والغريزة والعقل نشأ كلاهما لقضاء ضرورات الاحياء من طعام وتناسل ودفاع . ولكن العقل في الانسان قد عدا هذه الغاية من تزويد الانسان بحاجاته المعيشية الى البحث الفلسفي واستحال ذهناً صافياً يبحث عن حقائق الكون بغية المعرفة . وكذلك الغريزة يمكن

أن تستحيل الى بصيرة وتكون عندئذ أصدق نظراً في استكناه الحقائق من الذهن

فالعقل المنزه عن الاغراض المعيشية قد استحال ذهناً

وكذلك الغريزة المنزهة عن الاغراض المعيشية تستحيل بصيرة

فبرجسون يقول ان أذهاننا لايمكنهـا أن تقف على حقائق الاشياء لانها انما نشأت من العقل . وهذا العقل نشأ لكي يتناول المادة ويصوغها في القالب الذي يهواه لمصالحه المعيشية . فهو اذا تنزه عن هذه الاغراض المعيشية صار ذهناً ولكن خصلته الاولى تبقى فيه وهي تناول المادة وصياغتها فيصير ذهناً مخترعاً، ولكنه لا يمكنه مهما ارتقى أن يبلغ سر الحياة .ولكن الغريزة تختلف منه في ذلك . فان الزنبور الذي يذهب الى يرقة احدى الحشرات ويلسعها بحيث تكفي اللسعة للتخدير دون الموت ، ثم يبيض فيها بيضه حتى اذا تفقأ البيض خرجت أولاد الزنبور وأكلت جسم اليرقة واغتذت منها ، هو أقرب الى سر الحياة بغريزته منا نحن بأذهاننا . فانه بلا معرفة مكتسبة يغرز حمته في جسم اليرقة فلا يقتلها وانما يتصل بأعصابها بحيث يخدرها فقط . فكأنه على اتصال بهذه اليرقة وعلى معرفة لدنية بأعصابها يشبه اتصال أعصاب الانسان بأمعائه . فهـذه الاعصاب في الانسان تسيطر على الامعاء وتجعلها تهضم وتمثل بدون معرفة مكتسبة ولكن هذه السيطرة لا تقوم بالطبع الا بتآلف وتفاهم بين الاثنين. ولكن هذا التفاهم غريب عن أذهاننا لانه من نوع آخر ، وكذلك التفاهم بين الزنبور واليرقة أو

بين النملة والمن الذي تحلبه فانه غريب أيضاً عن أذهاننا ولكنهُ يبين لنا ان هناك طريقة أخرى للمعرفة هي أخصر جداً من طريقة الذهن وهذه الطريقة هي طريقة الغريزة والبصيرة

ونحن نعيش ونخترع بذهننا ولكن في كل منا بذرة الغريزة لاننا استقينا من معين الحياة نفسه الذي استقت منه الحشرات، وان كانت الغريزة لم تقو فينا قوتها في الحشرات . فاذا أردنا ان نقف على كنه الحياة وسرها يجب أن نستخلص من غريزتنا « بصيرة » تتصل بها بالاحياء وتقف منها موقف الزنبور من اليرقة او موقف النملة من المن كما استخلصنا من العقل « ذهناً » نخترع به

فأداة الاختراع هي الذهن ولكن أداة الفلسفة هي البصيرة .لان الذهن هو العقل المنزه وغايته الاصلية معالجة المادة وا كتساب المعرفة. ولكن البصيرة هى الغريزة المنزهة وغايتها الاصلية الادراك اللدني للاحياء بحيث يعرف الزنبور أعصاب اليرقة نفسها كأنها قطعة من جسمه هونفسه وليست فرداً منفصلا بعيداً عنهُ

ولكن كيف نستحدث هذه البصيرة في أنفسنا ؟

يقول برجسون ان ذلك ممكن كما استحدثنا السباحة بعد ان نسيناها اي بالرياضة والمران ويقول ان الصوفية ليست في الواقع سوى النظر الى الكون بالبصيرة دون العقل

وأظن الى هنا اني أوضحت رأي برجسون . اما نجاح كل منا في أن يستخلص لنفسه هذه البصيرة النافذة لاسرار الكون فهذا مايجب

ان يفحص كل قارىء نفسه فيه . انما اقول هنا ان سر الحياة عند برجسون هو الله نفسهُ ، وهو سر الكون كلهُ

*
* *

والآن لنتبسط قليلاً في مايقوله برجسون من ان الذهن البشري لا يمكنه وحده أن يدرك الحياة

فان هذا بأوجز عبارة ما يقوله برجسون ويدافع عنه ويحاول أن يثبته في كتابه العظيم « التطور الخالق »

فهو يقول ان الحياة كما نستقريها الآن ثلاثة فروع كبرى وهي :

١ — فرع النبات وطبيعته السبات وهو خلو من الوعي أي الدراية لانه لا يتحرك . وما دام لا يتحرك فهو لا يتردد . والتردد أصل الوعي

٢ — فرع الحيوانات الدنيا التي تنتهي بالحشرات وطبيعتها الغريزة وبها وعي لانها تتردد أحياناً في حركاتها وهذا التردد يجعلها تعي أي تدري بما تفعل

٣ — فرع الحيوانات العليا التي تنتهي بالانسان وطبيعتها العقل الذي يتردد ويعي

والحياة تشتمل على هذه الفروع الثلاثة. فاذا أردنا أن نفهم طبيعة الحياة على الوجه الكامل وجب أن يكون فينا عقل الانسان وغريزة الحشرة وسبات الشجرة . لاننا نحن فرع من الحياة ، ولذلك فاننا اذا حاولنا أن نفهم الحياة بأذهاننا وحدها كان موقفنا بمثابة الجزء يحاول أن يفهم الكل

ولكننا نحن والحشرات والنبات من أصل واحد . وهـذا الاصل هو الحياة الشاملة لنا جميعاً . ولذلك ففي الحشرات جرثومة العقل وفي الانسان جرثومة الغريزة . وفينا نحن والحشرات طبيعة النبات أي هذا السبات الذي يشملنا أحياناً فلا نحب أن نتحرك أو نعي أو نجهد أي جهد

ويمكننا أن نستغني عن النبات من حيث ادراك طبيعته لانه لما كان لا يعي أي لايدري فان أهميته بالنسبة لنا في صـدد موضوعنا هذا تسقط . لان الفهم وعي اي دراية وما دام النبات لا يعي فهو لا يساعدنا في فهم الحياة

يبقى بعد ذلك حيوان الغريزة وارقاه النمل أو النحل ، وحيوان العقل وارقاه الانسان . والعقل والغريزة كلاهما نشأ لقضاء حاجات الحيوان من تحصيل الطعام والتناسل ونحوهما . ولكن ثم بينهما فرقاً. فالغريزة لا تحتاج الى تعليم أو تجربة . فان الحشرة تقف من سائر الاشياء والحيوان موقف البصيرة الكاشفة التي تتجلى لها الحقيقة فيما يخص طعامها أو أولادها دون أدنى اختبار سابق أو معرفة مكتسبة. ولكن العقـل يختبر ويتعلم ويجرب وهو يجهل ما لم يكتسب معرفته بهذه الطرق

فكأن للحيـاة أداتين للمعرفة . أداة الغريزة وهي تعرف كنه الاشياء ببصيرة ثاقبة لا تحتاج الى تعليم أو اختبار . واداة العقل وهي تعرف بالتجربة والاختبار . ولكن معرفة الغريزة محدودة لانها

مقصورة على ما ينفع الحشرة من طعام وشراب وسائر ما تسلكه لمصلحتها المعيشية وتجهل ما سوى ذلك . ولكن الحيوان العالي الذي يعتمد على العقل يتوسع في تحصيل معاشه ويكتسب المعارف . فمداه في المعرفة أوسع من مدى الغريزة

ولكن للغريزة ميزة على العقل وهي انها ألصق بالحياة منه . فالنملة التي تحلب المنة بدون أن تتعلم ذلك تقف من المنة موقف الكشف تعرف طبيعتها ، وبين الاثنين على انفصالهما علاقة تشبه ما بين رأس الانسان وامعائه ويده من العلاقة

ولكن الغريزة كما قلنا ضيقة المدى محصورة المعرفة لانهامقصورة على مصالح الحشرة . ونحن لا تزال في نفوسنا جراثيم هذه الغريزة لاننا نحن والحشرات قد استقينا من معين واحد هو الحياة

وقد استنبطنا من العقل الذي لم ينشأ في الاصل الا لتحصيل الطعام ذهناً يفلسف ويدرس النجوم والكواكب . فاذا أردنا ان ندرك كنه الحياة وجب أن نستنبط من نفوسنا تلك الغريزة ونستخلص منها بصيرة تستكنه الحياة

فالعقل اذا نزه عن غرض العيش استحال ذهناً

والغريزة اذا نزهت عن غرض العيش استحالت بصيرة

والبصيرة ألصق بالحياة واكثر ادراكاً لها من الذهن . لان الذهن يتعلم ويختبر ويزيد معارفه . ولكن البصيرة تكشف لنا وتقفنا من سر الحياة والجماد موقف التجلي والمعرفة اللدنية . فكما ان

عند النملة معرفة لدنيـــة بفائدة المنة حتى انها لتربيها وتحلبها وتعنى بصغارها بلا سابق تعلم كأنها هي والمنة جسم واحـد منفصل المادة متصل الروح كذلك نتصل نحن ببصائرنا بالاحياء والاشياء بسبيل المعرفة اللدنية التي هي من جنس معرفة النملة بالمنة وان كان مـداها أوسع . كما ان مدى الذهن أوسع من مدى العقل

والخلاصة ان برجسون يقول ان الاحياء التي على الارض من حيث علاقتها بالمعين الاصلي للحياة أي بطبيعة الحياة وكنهها وقصدها ثلاثة أصناف . يمثلها النبات والحشرة والانسان . والوعي أى الدراية مقصورة على الحشرة والانـان . ولكن سبيل الاولى الغريزة وسبيل الثاني العقل . فالانسان جزء غير متجانس مع هذه الاجزاء الثلاثة فلا يمكنه ان يدرك كنه الحياة بعقله وحده . ولكن به مع ذلك جرثومة الغريزة التى هي ألصق بالحياة من العقل فسبيل الانسان لكي يفهم الحياة انما يكون بالبصيرة التى هي من الغريزة بتمام الذهن من العقل . لان علم البصيرة لدني أما علم الذهن فمكتسب

٭ ٭ ٭

ولكننا لم نقل بعد كل ما يقوله برجسون بل ولا عشر ما يقوله . فان كتابه يفيض بالنظريات التى ان لم تقنعك فهي تلقيك في حيرة تحثك على التفكير ومراجعة نفسك وآرائك

ولكن هل للحياة أغراضاً تسير نحوها وتحاول أن تصوغ المادة في القوالب التي تبلغها هـذه الاغراض أم هي تيار آلي أي كالآلة

ليس لها غرض ، تسير في العالم كما يسير الماء على الارض فهذا حجر يعوقه وهذا عائق يحرفهُ عن استقامته وهذه وهدة ينحط اليها وهلم جرا ؟

كلا . فانما الحياة في رأي برجسون ترمي الى غرض وتتجه نحو قصد وهي لا تكف عن الاختراع لكي تبلغ هذا القصد ولنضرب لذلك أمثالاً :

١ – فهذا العقل الانساني نعرف كلنا انه يتحيز في الجهاز العصبي الذي يحتوي على الدماغ . وهذه الاعصاب تسيطر على أجسامنا وهي وسيلة التفكير . فالجهاز العصبي من حيث التطور ومن حيث محاولة الحياة التسلط على المادة ومن حيث انه أصل الذهن غرض من أغراض الحياة . ولذلك فان الحياة تحافظ على هذا الجهاز ابلغ محافظة وتحوطه باكبر ضرب من العناية . فان الحيوان اذا قطع عنه الطعام فانه يأكل نفسه فتضمر جميع أعضائه ويهزل . فالكبد ينزل الى نصف أو ثلث وزنه والعضـلات تنزل الى ربع او خمس ما كانت الا الاعصاب فانها تبقى كاملة لا تمس حتى الموت . فكأن مادة الجسم كلها تخدم الجهاز العصبي وكأنه لا معنى لوجودها الا لهذه الخدمة وكأنها تضحي بنفسها لاجل الاعصاب

٢ – ان الحياة تقصد الى غاية جمالية قد تكون نافعة للحيوان ولكن ليس بها ادنى منفعة للنبـات نعني بها اتساق الجسم وتوازنه بحيث يمينه يقابل يساره . وقد سارت نحو هذه الغاية في النخل مثلا

فنظرت فيه الى الاتساق والتوازن مع اننا لا نرى الفائدة للنخل من ذلك . ولكننا يمكننا أن ندرك بالنخل أن فكرة الاتساق والتوازن موجودة قديمة في معين الحياة الاصلي وانها اى الحياة تسير نحوه في النبات كما سارت في الحيوان مهما اختلفت البيئة التي ينشأ فيها النبات أو الحيوان . ومعنى ذلك أن الحياة ليست شيئاً آلياً كالماء يسيل ويستقيم وينحرف طبقاً لظروف المكان . بل هي لها غاية رمت اليها في الحيوان والنبات وحققتها

٣ — نعرف ان الحياة قسمت أجسام الحيوان الى جسمين هما الذكر والانثى . وهذا بالطبع اختراع مفيد للحيوانات ولكنها سارت هذه السيرة نفسها في النبات مع عدم فائدة ذلك للنبات. ونحن انفسنا نثبت عدم الفائدة باننا لا نزرع بزر العنب أو بزر الموز وانما نعمد الى الغصون أو الفسائل فنزرعها . ومعنى هذا ان الحياة رمت الى غرض وهو تقسيم الحي الى ذكر وانثى وابتدأت بذلك في الحيوان ثم عادت فحققته في النبات مع عدم فائدته له

فهذه أمثلة ثلاثة تثبت ان الحياة ترمى الى غرض وتسير نحو غاية . فهي تعنى اكبر العناية بالذهن الانساني لانه وسيلة تحريرها من المادة ، ولعله يوماً ما يستطيع أن يتسلط على المادة تماماً حتى يصوغها كما يشاء ويخلق منها ما يشاء . ثم هي ترمي الى هيئة الاتساق والتوازن وقد حققت هذه الهيئة في الحيوان منذ زمن بعيد جداً . وعادت فحققته في أحدث النباتات وهو النخل . ثم ازدواج الجنسين

غاية أخرى حققتها الحياة في الحيوان ثم عادت فحققتها في النبات بلا أدنى فائدة للنبات من ذلك

فالحياة اذن ليست آلية يتسلط عليها الوسط كما يتسلط سطح اليابسة على الماء الذي يسيل عليه . بل هي عنصر مدرك يرمي الى غرض ويسير نحوه . والمادة تعوقه في سيره ولكنه يتخطى العوائق أو يروغ منها حتى يبلغ غايته

***

لقد طال هذا المقال حتى صرت أخشى ان تختلط على القارىء أركانه . فانا هنا الخص ما ذكرته ثم اعقب عليه بنقد يسير

فبرجسون يعتقد ان النظر الصوفي دون النظر العلمي جدير بأدراك ماهية الحياة اي سر الكون او الله نفسه . والنظر الصوفي يعتمد على البصيرة دون النظر العلمي الذي يعتمد على الذهن

ثم هو يعتقد ان البصيرة كامنة في الانسان يمكن استنباطها من النفس بالرياضه كما يفعل الصوفيون . وهو يعتقد ان البصيرة اجدر من الذهن في ادراك الكون لانها تنبع من الغريزة والغريزة الصق بالحياة من العقل الذي نبع منه الذهن

هذا هو الشطر الاول من فلسفة برجسون . والشطر الثاني هو ان الحياة خالقة وانها ترمي الى غاية تحاول ان تحققها وان تتغلب على عوائق المادة في تحقيقها

فاما هـذا الشطر الثاني فلا يمكن مناقشة برجسون فيه . فان الحياة لا تخبط بل ترمى الى غاية . وهذه الغاية كما يبدو لنا من استقراء التطور غير مضمرة اضمار تعيين وتحديد وانما هي مجملة فيها تكيف وفق الظروف . لاننا لو فرضنا ان هذه الغاية محددة معينة لما كانت الحياة حرة . ولكن استقراء التطور يدل على هذه الحرية

اما الشطر الاول وهو ان الذهن في حاله الحاضرة قاصرعن ادراك كنه الحياة فصحيح لاغبار عليه . ولكن القول باننا لن نفهم الحياة الا بالبصيرة فقول يحتاج الى اختبار شخصي . وهو مثـل القول بتخاطب الارواح اذا لم يختبره الانسان بنفسه لم يصدقه . ولكن الا يمكن ان يكون قصور الذهن الان عن ادراك كنه الحياة راجعاً الى انه لم يتطور التطور الكافي وانه اذا نشأ لنا في المستقبل حاسة سادسة او سابعة امكننا ان ندرك اشياء تربك اذهاننا الان مثل معنى الازل او الابدية ومثل البعد الرابع عند اينشتين ونحو ذلك ؟ ثم الا نرى ان عناية الحياة باعصابنا دليل على انها ترمى من جهازنا العصبي بما فيه دماغنا الى هذه الغاية وعندئذ تكشف لنا الحياة سرها ؟ واذا كان الامر كذلك فالذهن يمكنه في المستقبـل ان يقوم مقام البصيرة البرجسونية

والمشقة في الايمان بالبصيرة هي كما قلت ان البصيرة اختبار شخصي . وكونها كذلك لا ينفيها ولا يثبتها . ونحن الآن في زمن علمي لا يمكننا ان نقول فيه بوجود البصيرة لان طائفة من الصوفيين

قالوا باختباراتهم الشخصية لها لان هذه الاختبارات « شخصية » وليست عمومية

ولست أيضاً اشك في اننا نهتدي احياناً في الفلسفة او الدين او حتى في الادب بما يشبه انه يعدو الذهن وبما يشبه ان يكون « بصيرة » ولكن ما ادرانا ان هذه « البصيرة » هي ثمرة الذهن قد اندست الى العقل الباطن حتى ضاعت منها العلل والاسباب ثم بدت لنا كانها وحي والهام ؟

وخلاصة ما اقوله ان برجسون يربكني ولكنه لا يقنعني





على مفترق الطرق

أو

خاتمة

اليوم والغد

وهو بحث عن الامة المصرية ، هل هي أمة اوربية يجب ان تسير مع الامم الاوربية وتتثقف بثقافتها ، او امة شرقية يجب أن تحتفظ بما ورثته عن الشرق ؟

١ — التردد بين الشرق والغرب

مضى علينا اكثر من ١٣٠ سنه ونحن في موقف التردد لاندري هل نحن شرقيون يجب ان نسير على ما سارت عليه اسيا ام غربيون يجب ان ننضم الى اوربا قلبا وقالبا ، نعتاد عادات الاوربيين نلبس لباسهم ونأكل طعامهم ونصطنع اساليبهم فى الحكومة والعائلة والاجتماع والصناعة والزراعة

ولقد شرع نابليون يغرس فينا الحضارة الاوربية ويزيل عنا كابوس الشرق . وكانت اولى بركاته علينا ان شتت شمل الأوغاد المخانيث الذين كانوا يدعون المماليك . وكان هؤلاء المماليك عاراً علينا ، بل لايزال تاريخهم عارا علينا لن يمحى . فقد كان يؤتى بهم صبيانا لاغراض سافلة حتى اذا شبوا حملوا السيف وعاثوا فى البلاد واذلوا اباءنا . وكانت ثانية بركاته انه اسس لنا مجلساً نيابياً هو اول الانظمة النيابية في مصر

ثم جاء محمد على فاعتمد على فرنسا في تمدين البلاد . ولكن هذا الرجل لم يكن يثق بالمصريين او يحسب لكرامتهم . ولذلك كانت بعثاته الى اوربا مؤلفة من ابناء المخانيث المماليك الذين ذبحهم هو بالقلعة او من ابناء الجنود المقدونيين . بل بلغ من احتقاره للمصريين انه جمع عقود الامتلاك منهم واحرقها وادعى انه هو المالك

لارض مصر كلها . ولكنه مع كل هذه الاعمال كان يؤمن بالحضارة الغربية فاسس المصانع على النمط الاوربي واوجد في الاهلين روح العمل بعد ان كانت طبائع الاستبداد الشرقية قد طبعت فى الناس حب الخمول والدعة

ثم استمررنا نتراوح بين الشرق والغرب حتى زمن اسماعيل حين رأى بنافذ بصيرته انه لابد لنا من ان نتفرنج ونقطع الصلة بيننا و بين اسيا . فأنشأ مجلساً نيابياً واسس مجلس وزراء وكانت حكومتنا الى وقته تسير على مبدأ هرون الرشيد او امبراطور الصين . ثم جعلنا نلبس الملابس الاوربية ووزع بين اعيان البلاد فتيات من الشركس لكي يتحسن اللون ويقارب البشرة الاوربية . ثم حاول عرابي بعد ذلك ان يؤسس مجلساً نيابياً صحيحاً و يسير بالوطن في تيار الحضارة الاوربية ولكن انضمام الخديوي توفيق الى الانجليز وخيانة الاعراب البدو في الشرقية حالا دون تحقيق غرضه السامي

وجاء الانكليز فساروا بنا شوطا بعيدا في ادخال الاساليب الاوربية في ادارة الحكومة . ولكنهم كانوا يرمون الى غرض الاستعمار فلم يعملوا لنشر الحضارة بين الامة

وها نحن اولاء نجد انفسنا الان مترددين بين الشرق والغرب . لنا حكومة منظمة على الاساليب الاوربية ولكن فى وسط الحكومة أجساماً شرقية مثل وزارة الاوقاف والمحاكم الشرعية تؤخر تقدم البلاد . ولنا جامعة تبعث بيننا ثقافة العالم المتمدين ولكن كلية الجامع

الازهر تقف الى جانبها تبث بيننا ثقافة القرون المظلمة . ولنا أفندية قد تفرنجوا لهم بيوت نظيفة يقرأون كتباً سليمة ولكن الى جانبهم شيوخاً لا يزالون يلبسون الجبب والقفاطين ولا يتورعون من التوضؤ على قوارع الطرق فى الارياف ولا يزالون يسمون الاقباط واليهود « كفاراً » كما كان يسميهم عمر بن الخطاب قبل ١٣٠٠ سنة

فنحن كما قلنا في موقف التردد بين الشرق والغرب ومع ان معظم رجالنا غربيون في افكارهم ومعيشتهم فان معظم نسائنا لا يزلن يعشن كما تعيش الهندية أو الصينية تحتجب وتقصر حياتها على الطبخ وتنظيف المنزل

٢ — هل نحن شرقيون

ان للالفاظ تأثيراً كبيراً في العقول . فاذا نحن غرسنا في اذهان المصري انه شرقي فانه لا يلبث ان ينشأ على احترام الشرق وكراهة الغرب . وينمو في نفسه كبرياء شرقي ويحس بكرامة لا يطيق ان يجرحها احد الغربيين بكلمة . فينشأ على كراهة الحضارة الغربية ويقاومها ولا يصطنعها الا مقهوراً مغلوبا على نفسه

ولكن الواقع اننا لسنا شرقيين . وانما جاءنا هذا الاسم من اننا كنا تابعين للدولة الرومانية الشرقية عندما انفصلت من الدولة الرومانية الغربية . والاوربي لا يخطر في باله عندما يسمى اهل القسطنطينية

اواثينا اومقدونيا او سوريا او مصر شرقيين انها كلها « شرقية » مثل اليابان او الصين

فاطلاق اسم الشرق على مصر خطأ فاحش . فقد عشنا نحن نحو الف سنة ونحن جزء من الدولة الرومانية . بل في اللغة العربية نفسها اكثر من الف لفظة رومانية واغريقية تدل على مقدار شمول النفوذ الروماني والثقافة الاغريقية للعرب . فلا نحن ولا العرب امة شرقية بالمعنى الذي نفهمه عندما نقول ان اليابانيين شرقيون . ونحن اذا رأينا اقبح امرأة اوربية لقلنا انها جميلة اذا قوبلت باجمل امرأة صينية لان ذوقنا ودمنا هما الذوق والدم الغربيان

ثم نحن في هيئة الوجه أوربيون ولو لبس السوري أوالعربي أو المصري قبعة لما استطاع الانسان تمييزه من الايطالي أو الاسباني . ولكن مهما لبسنا فاننا نتميز من الصيني أو الجاوي او الياباني

وأخيراً يجب أن نقول ان اليوت سمث قد أثبت ان الشعب الاول الذي سكن مصر لا يختلف البتة من الشعب الذي كان يسكن انجلترا قبل ٤٠٠٠ سنة . وبين المصرية القديمة والانجليزية الراهنة مئات الالفاظ المشتركة لفظاً ومعنى

٣ — الدم الشرقي فينا

ولكن ليس معنى ذلك ان الدم الشرقي لم يتسرب الى عروقنا فانه للأسف قد تسرب وقد جلبه علينا العرب بما فتحوه من الاقطار

الاسيوية . فمنذ القرن الثالث الهجري نسمع عن دولة الاخشيديين التي جاءت من وسط آسيا قريبا من بخاري حيث حلت في مصر بجيوشها وحكمتنا واختلطت دماؤها الاسيوية بدمائنا . ثم جاءنا بعدهم المماليك الاتراك ثم الاتراك العثمانيون . بل قبل ذلك في أيام الفراعنة حل الهكسوس وامتزجوا بالمصريين

ولكننا مع كل ذلك بقينا اوربيين في تقاسيم وجوهنا ونزعات نفوسنا . ويجب ألا ننسى ان الاسيويين قد دخلوا أوربا وتفشوا فيها وكثير من الرءوس المستديرة في فرنسا وهنغاريا وسويسرا والمانيا يرجع الى أصل أسيوي

٤ — أوربا أم آسيا ؟

ولكن تعصب بعضنا للشرق هو تعصب للقديم اكثر مما هو للشرق . فهم يستمسكون بالشرق لكي يتعللوا به في كراهة الغرب ويستمسكون بالقديم كبرياء وانفة من ان يقال ان حضارتنا باعتبارنا شرقيين قد افلست امام حضارة اوربا

وقد شعرت أنا نفسي بمثل هذا الشعور سنة ١٩٢٠ حين كتب السرهري جونستون مقالا في « ذي نيوستيتسمان » يطلب فيه الغاء الازهر لأنه مبعث التعصب . فرددت انا عليه مع اني قبطي انكر ان الازهر مبعث تعصب . لأني شعرت ان كرامة هذا المعهد المصري تلصق بكرامتي الوطنية . فما يشينه يشينني . ولكني اذا

حاورت مصريا في شأنه لا أتردد في القول بالغائه والاكتفاء بالجامعة المصرية لأنها اداة الثقافة الحديثة النيرة اما هو فاداة الثقافة المظلمة ثقافة القرون الوسطى

وخلاصة القول اننا نطلق على أنفسنا صفة الشرق بلا حق لأننا غير شرقيين . ثم نتعصب لهذا الشرق ونقيم في اذهاننا منه غرضاً نكره به الغربيين والحضارة الغربية . ثم نتعصب للقديم أنفة منا ونسمي هذا القديم أيضاً « شرقاً » فنتعلل به لكراهة الغرب . ولكن الواقع ان هذا القديم ليس فيه شيء من الشرق . والازهر الآن لا يختلف عن جامعات اوربا قبل ٧٠٠ سنة وهو يعرف ارسطوطاليس الاغريقي ولكنه لا يعرف بوذا الهندي أو كنفوشيوس الصيني . فحقيقة الازهر انه جامعة اوربية أسسها رجل اوربي هو جوهر « الصقلي » وعيبه الوحيد انه قديم يشتغل بثقافة قديمة بائدة في عصر حديث . وايثاره على الجامعة المصرية يشبه ايثار الجمل على الاتومبيل أو الحمار على الطيارة

واذا كنا نحب السير مع اوربا فليس ذلك لأننا والاوربيين من دم واحد واصل واحد فقط بل لان ثقافتنا تتصل بثقافتهم من عهد مدرسة الاسكندرية ومجمع اثينا ، وايضا لان حضارتها هي حضارة العالم الحديث كله

٥ – ما هي ثقافة العرب ؟

ان هذا الاعتقاد باننا شرقيون قد بات عندنا كالمرض ولهذا المرض مضاعفات . فنحن لا نكره الغربيين فقط ونتأفف من طغيان حضارتهم فقط بل يقوم بذهننا انه يجب ان نكون على ولاء للثقافة العربيـة . فندرس كتب العرب ونحفظ عباراتهم عن ظهر قلب كما يفعل ادباؤنا المساكين امثـال المازني والرافعي . وندرس ابن الرومي ونبحث عن اصل المتنبي ونبحث في علي ومعاوية ونفاضل بينهما ونتعصب للجاحظ ونحاول ان نثبت ان العرب عرفوا الفنون كالتصوير والنحت على الرغم من تحريم الاسلام لها . وكل ذلك انما يدفعه في انفسنا كراهتنا للغرب وانفتنا من جهة واعتقادنا اننا شرقيون من جهة اخرى

ولكن الواقع ان ثقافة العرب القديمة لا تختلف عن ثقافة اوربا القديمة . وقد كانتا كلتاهما تستقيان من معين واحـد هو الفلسفة الاغريقية . فاذا نحن المتجددين قلنا بترك العرب وثقافتهم فمعنى ذلك انه يجب علينـا ان نتطور ونخرج من تلك القيود الاغريقية القديمة ونسير في الثقافة الحديثة

وليس علينا للعرب أي ولاء . وادمان الدرس لثقافتهم مضيعة للشباب وبعثرة لقواهم . فيجب ان نعودهم الكتابة بالاسلوب المصري الحديث لا بالاسلوب العربي القديم ويجب ان يعرفوا اننا ارقى من العرب . وان اقل ما فينا اننا نسبقهم بالف سنة . وليس معنى هذا تحريم

درس العرب وتاريخهم وثقافتهم . فان العرب امـة قديمة يجب ان يكون لها اثريون يدرسونها كما يدرسون اشور او بابل وانما يجب ان يكون لنا ادب خاص يتسم بسمة القرن العشرين ويجري على لغته ويسير على انماطه . ويجب ان ننظر الى لغة النابغة او المتنبي كما ننظر الى اللغة الروسية او الايطالية لانها ليست لغتنا ولسنا نستفيد بدرسها . ثم يجب ان نذكر ان ادمان الدرس للعرب يشتت الادب المصري ويجعله شائعاً لا لون له

٦ — حكومة العرب

ليس من مصلحة الشباب المصري ان يقف على ادب العرب ويتلمسه مباشرة من الكتب القديمة . فانا لا احب مثلاً ان تقع عين فتى او فتاة على الاشعار المذكورة في كتب الادب بشأن الغلمان . ومهما احسنا الاعتقاد في الاثر الذي تتركه قراءة هذه الاشعار فاننا لا يمكن ان نغضي الطرف عما يفعـل ايقاع الشعر في نفس الشاب من تحسين الرذائل له . وكم من شاب رأيناه يتغنى بهذه الاشعار ويمارس الرذائل التي تقول بها . والفسلوجية الحديثة تقرر انه لايرد بالرأس خاطر ليس له اثر في النفس والخلق . ثم لست احب ان يقرأ الشباب ان احد قواد العرب وهو يزيد بن المهلب عجن الدقيق بدماء اعدائه وخبز منه الخبز واكله . وكذلك ليس من مصلحة بلادنا الدستورية ان يمدح هرون الرشيد او المامون مع ان كلا منهما كان حاكماً مستبداً

لا يختلف اي اختلاف عن عبد الحميد الذي خلعه الاتراك عن عرشه.

فالحكومة العربيـة كانت في ارقى واحسن اوقاتها حكومة استبدادية ، ولا عبرة لما يقال بان الاسلام يامر بالشوري . فان عمر ابن الخطاب نفسه لم يكن يستشير احـداً فيما يراه خيرا لرعيته . دع عنك انه ليس في الشوري معنى الالزام . وجميع خطب الخلفاء تثبت انهم كانوا ينظرون الى انفسهم نظرا بابويا ، بل البابا نفسه اذا قيس اليهم في بعض الاشياء يعد دستوريا

٧ — لنا من العرب الفاظهم فقط

ولا اقول لغتهم . بل لا اقول كل الفاظهم . فاننا ورثنا عنهم هذه اللغة العربية وهي لغة بدوية لاتكاد تكفل الاداء اذا تعرضت لحالة مدنية راقية كتلك التى نعيش بين ظهرانيها الان . فها انا ذا في غرفتي هذه لا اعرف كيف اصف اثاثها بالعربية ولـكنى استطيع اجادة وصفها بالانجليزية . واللغة العربية مع ذلك لغة شاقة تكد الذهن في حفظ قواعدها التي لاتنتهي كانه ليس في العالم شيء جدير بالدرس غير قواعدها . وكل من اختبرها يعرف ان قاسم امين ولطفى السيد كانا على حق عندما نصحا باستعمال العامية المصرية المهذبة بدلا منها

وهذا ما يجب نحن ان نفعله . يجب ان ننظر الى لغة امرىء القيس وابي تمام كما ننظر الى لغة شكسبير . فلا نستعملها في لغتنا وانما نستعمل العامية المهذبة التي نخاطب بها امهاتنا واولادنا لانها هي اللغة

الحية . وهي انما تجري على السنتنا بعد موت اللغة الفصحى لانها قد نازعتها البقاء وتغلبت عليها لفضلها . وهذا اذا فرضنا ان اللغة الفصحى كانت يوما مايتكلم بها الناس ، فان اعتقادي انها كانت الى حد بعيد لغة الكتابة فقط اي لغة ميتة حتى في زمن ظهور القرآن

ولكن تعليم العربية في مصر لايزال في ايدي الشيوخ الذين ينقعون ادمغتهم نقعا في الثقافة العربية اي في ثقافه القرون المظلمة . فلا رجاء لنا باصلاح التعليم حتى نمنع هؤلاء الشيوخ منه ونسلمه للافندية الذين ساروا شوطا بعيداً في الثقافة الحديثة

ونحن انما ننزع للغة العرب القديمة لما تأصل في اذهاننا من ذلك الغرض السخيف وهو اننا شرقيون يجب علينا ان نحافظ على كرامة العرب وندافع عن تاريخهم . وهذا الاعتقاد في شرقيتنا يجر علينا عددا من الكوارث قد لايكون الولاء للغة اهونها

٨ — الرابطة الشرقية سخافة

واحدى كوارث هذا الاعتقاد في شرقيتنا اهتمامنا بالشرق دون الغرب حتى لقد تأسست في القاهرة جمعية تدعى « الرابطة الشرقية » فيها اعضاء من الهند وجاوة ولعل بها ايضا اعضاء من الصين

فمالنا ولهذه الرابطة الشرقية ؟ واية مصلحة تربطنا باهل جاوة ؟ وماذا ننتفع منهم وماذا هم ينتفعون منا ؟

اني اعتقد اننا لوكنا شرقيين حقا لكانت هذه الرابطة من

اسخف الروابط . فان جميع الدول الشرقية التي تدخل في هذه الرابطة من العجز بحيث لاتنفع نفسها ولاتستطيع رد عادية الاجنبي المستعمر عنها فكيف تدفع عن غيرها هذه العادية ؛ اجل . كيف يقود الاعمى اعمى وكيف يحمل الاعرج اعرج ؟

اننا في حاجة الى رابطة غربية كأن نؤلف جمعية مصرية يكون أعضاؤها من السويسريين والانجليز والنروجيين وغيرهم نقعد معهم فنستفيد من شرعة اصلاحية انفذت في بلادهم يشرحونها لنا فننتفع بذلك أو فلسفة جديدة ظهرت يعرفوننا شيئاً عنها أو آلة جديدة اخترعت نتفاوض معهم في استعمالها عندنا

مثل هؤلاء الناس النظاف الاذكياء نستطيع أن نؤلف رابطة معهم ، ولكن ما الفائدة من تاليف رابطة مع الهندي او الجاوي ؟

أننا أمة قد سرنا شوطاً بعيداً في الحضارة الغربية التي هي منا ونحن منها . واذا أراد الشرق أن يسير معنا فنعم ما يفعل ولكن ليس معنى ذلك أن نسير نحن معه ونتأخر عن اللحاق بالامم الراقية . ونحن بعبارة واضحة في حاجة الى أن نرقى أنفسنا قبل أن نشتغل بترقية الشرقيين

٩ — الرابطة الدينية وقاحة

اذا كانت الرابطة الشرقية سخافة لانها تقوم على أصل كاذب، فان الرابطة الدينية وقاحة . فاننا أبناء القرن العشرين اكبر من أن

نعتمد على الدين جامعة تربطنا . وقد كان مصطفى كامل لجهله بروح الزمن يخبرنا ولا يزال فلول المحررين من المؤيد والحزب الوطني يخبروننا ، نحن المصريين ، عن الاسلام في الصين تحت عنوان « أخبار العالم الاسلامي »

وقد شبعت تركيا من الجامعة الاسلامية ونفضتها عن نفسها وتخلصت منها لا لأنها أضاعت دينها ولم تعد تؤمن به بل لأنها لم تعد تؤمن بفائدة الجامعة الاسلامية بعد ان خبرتها في الحرب الكبرى فوجدتها قصبة مرضوضة لا تغني ولا تنفع

والغريب أننا في الجامعة الاسلامية نتأخر عن الزمن الحاضر بنحو الف سنة . فقد كان لأوربا جامعة مسيحية هي أصل الحروب الصليبية وقد أسفت أوربا على ارتباطها بهذه الجامعة ولم تعد اليها بعد ان خسرت فيها الاموال والارواح

والدين الآن ليس تشترك فيه الجماعات وانما هو عقيدة يعتقدها الفرد عن علاقته بالكون . ويبدو لي انه لا يمكن ان يتفق اثنان في العالم في عقيدة دينية كما لا يتفقان في ملامح الوجه . فديانة المستقبل هى ديانة فردية وليست جماعية بل هي صوفية حرة لا يتقيد فيها فرد بما يؤمن به فرد آخر أو أمة أخرى

وكيف يمكننا أن نعتمد على جامعة دينية بينما في العالم نظرية تقول ان الانسان لم يكن راقياً فانحط كما تقول الاديان بل هو كان

منحطاً فارتقى .نعني بها نظرية التطور . بل كيف يمكن انساناً مستنيراً قرأ تاريخ السحر والعقائد ان يطلب منه أن يحترم جامعة دينية ؟

ان الجامعة الدينية في القرن العشرين وقاحة شنيعة

١٠ — الرابطة الحقيقية

الرابطة الحقيقية التي تثبت على قاعدة وترسخ ولا تتزعزع هي رابطة الحضارة والثقافة هي رابطتنا باوربا التي عنها اخذنا حضارتنا الراهنة ومنها تثقفنا ثقافتنا الجديدة

اجل يجب ان نرتبط باوربا وان يكون رباطنا بها قويا ، نتزوج من ابنائها وبناتها وناخذ عنها كل ما يجد فيها من اختراعات او اكتشافات وننظر للحياة نظرها. نتطور معها في تطورها الصناعي ثم في تطورها الاشتراكي والاجتماعي ونجعل ادبنا يجري وفق ادبها بعيداً عن منهج العرب ونجعل فلسفتنا وفق فلسفتها ونؤلف عائلاتنا على غرار عائلاتها ونسير مع عمالنا بطرق الاصلاح والبر التي سارت عليها. نرسل اولادنا اليها ليتعلموا علومها و يتخلقوا باخلاقها

فالرابطة الغربية هي الرابطة الطبيعية لنا لاننا في حاجـة الى ان نزيد ثقافتنا وحضـارتنا . وهما لن تزيدان من ارتباطنا بالشرق بل من ارتباطنا بالغرب

اننا اذا ارتبطنا بالغرب تعلمنا فلسفة عالية وادبا راقيا ووقفنا على

اختراعات عديدة واكتشافات لا حصر لهـا في الطبيعة والكيمياء والصناعة. ولكن بماذا ننتفع اذا نحن ارتبطنا بالشرق ؟

اننا اذا ارتبطنا بالغرب نركب الطيارات ونصنعها ونسكن في بيوت نظيفة ونبنيها ونقرأ كتباً مفيـدة ونؤلفها ولكن ماذا نستفيد من الارتباط بالشرق ؟

الا يرى القارىء ما جره علينا تعلقنـا بالشرق وتوهمنا اننا امة شرقية حتى اننا ليس لنا مايغذي عواطفنا الان من شعر او موسيقى او رقص او غناء ؟

فرقصنا هو هـذا الرقص الاسيوي المهين وهو رقص شهواني بهيمي لانطيق ان نراه الا ونحن سكارى. وقد احتجنا في النهاية الى الغائه الغاء تاماً. ثم هذا الغناء وهذه الموسيقى الباكية المبكية نحاول اصلاحهما ولكن عبثاً لانهما صارا لا يتفقان مع مزاجنا. فقد كانا يصلان الى قلوبنا في العصور الماضية عندما كنا نبكي ببكائهما. وانما كنا نبكي لما كنا نقاسيه من ظلم الاسيويين وتوحشهم. ولكننا نحتاج الان الى ما يبهج قلوبنا ويملأها تفاؤلا بالحياة ولن نجد ذلك الا بارتباطنا بالغرب واصطناع ما عند الغربيين من رقص والحان وموسيقى. اما الشعر العربي فقد سئمنا قوافيه الرتيبة التي تشبه دق الطبل عند السودانيين

١١ — هل من وطنية فرعونية ؟

ولكن هل الغاية من التخلص من آسيا والشرق والتاريخ العربي ان نعود الى وطنية فرعونية مقصورة على مصر وتاريخها ؟

لست اشك في اننا لو فعلنا ذلك لكان اصلح لنا . فمصر وطننا وماذا يعيبنا اذا اكببنا على درس تاريخه ؟ وخاصة بعد اذ ثبت ان مصر هي اصل حضارة العالم القديم كله ، فكأننا ندرس العالم بدرسها

خير لنـا ان ندرس الفراعنة من ان ندرس العرب ، لا لانهم جدودنا فقط بل ايضاً لأن في درسهم تفتيقاً للأذهان . اذ نقف من تاريخ نشوء الحضارة المصرية القديمة على تطور الذهن البشري وايمانهِ بالعقائد الاولى ، وكيف نشأت الأديان والاساطير ، وأسست الملوكية وحقوق الامتلاك ونحو ذلك. فمعرفة تاريخ المصريين القدماء هي تربية جديدة لنا

ولكن صلتنا بالفراعنة قد انقطعت اذ لا نتصل الآن بهم بثقافة أو حضارة . وغاية مانرجوه أن يختص عندنا شبان بدرسهم كما يختص آخرون بدرس العرب . وكلا الفريقين يشتغلان في درسهما بالآثار . واذا كان المصريون القدماء لا يدخلون الآن في عقائدنا أو أدبنا أو علمنا فليس لاحد أن يقحم أدب العرب أو عقائدهم أو علمهم على آدابنا وعقائدنا وعلومنا وحضارتنا

فالمصري القديم والعربي القديم من الاثار التي ندرسها كما

ندرس الفينيقي القديم . وان كان المصري يمتاز بأنه ينير أذهاننا عن نشوء الحضارات الاولى . ولكن المهم الذي أرى وجوب تأكيده أننا ونحن نخلع أنفسنا من الشرق لا نفعل ذلك لكي نعود الى وطنية فرعونيه . كلا . انما نريد وطنية مصرية حديثة تنهج منهج القرن العشرين في الوطنيات والقوميات وتسير على المبادىء الاوربية فيهما

١٢ — تطور الوطنية المصرية

ربما كان اسماعيل باشا أول من بذر بذور الوطنية المصرية لأنه هو الذي جعل الأمة تصطنع الحضارة والمبادىء الغربية . والوطنية مبدأ أوربي لم يعرفه العرب قط . ولذلك لا وجود لهذه الكلمة في المعاجم العربية لأن العرب لم يعرفوا سوى الاسلام جامعة تجمعهم ولها يجاهدون الكفار ولو كانوا من أهل وطنهم . وكذلك كان حال أوربا في القرن الحادي عشر والثاني عشر حين خرج الاوربيون يقاتلون المسلمين في فلسطين ومصر

وظهر عرابي وحاول أن يقوي هذه الوطنية ويجعل مصر أمة دستورية ولكنه خاب في مسعاه . ثم حدث ارتداد في الفكرة الوطنية بظهور مصطفى كامل والخديوي عباس والمؤيد . فان كل هؤلاء عادوا الى جامعة الاسلام وكانوا يقولون ان مصر هي من أملاك الدولة « العلية » أي التركية . وكانت الاستانة عندهم « دار السعادة » أما القاهرة فهي القاهرة فقط . وكان المصري عثمانيا يجب عليه أن يحارب

المقدونيين للدفاع عن عبد الحميد ورعيته . وكان عبد الحميد خليفة المسلمين الذي يجب على كل مصري أن يطيعه . وأوشك مصطفى كامل ومحررو جريدته أن يحدثوا فتنة بين الاقباط بهذا السخف والهراء

ولكن الاقدار هيأت لنا رجلاً آخر هو لطفي السيد « صاحب الجريدة » فانه نظر حوله فرآنا شائعين في العالم الاسلامي ورأى الاذهان قد زاغت عن الصراط الوطني . حتى كان المزارع أو التاجر أو الصانع المصري يبالي بقراءة أخبار المسلمين في أدرنة أو بخارى اكثر مما يبالي بحادث قتل في الجيزه . وعندما شبت الحرب بين تركيا واليونان سنة ١٨٩٨ جمع المصريون نحو ستين الف جنيه أرسلوها الى الاستانة لمعاونة الاتراك مع انهم كانوا في حاجة الى ستين الف مليم لتعليم صبي مصري

وشرع لطفي السيد يكتب لنا دروساً كل يوم عن الوطنية وان المصري يجب أن يقصر جهوده على مصر . ودأب في ذلك ثماني سنوات يلطم فيها الخديوي عباس كل يوم لاتفاقه مع الانجليز وحرمانه الامة من الدستور . واخذ يفشي المبادىء الاوربية بيننا عن العائلة وحرية المرأة واللغة والادب والسياسة . ورأى الاقباط بعد ان كانوا لا يهتمون بوطنية الخديوي عباس ومصطفى كامل والمؤيد ان وطنية لطفي السيد مصرية لا شائبة فيها وانها لا تزيغ بهم الى الجامعة الاسلامية او الجامعة العثمانية فصاروا يؤمنون بالوطنية . حتى اذا كانت

سنة ١٩١٩ هبوا مع اخوانهم المسلمين كتلة واحدة للدفاع عن مصر

فالاتحاد الذي نراه الآن بين الاقباط والمسلمين يرجع الى لطفي السيد ، لا الى الحرب الكبرى كما يظن بعض شبابنا

١٣ — نحن والعالم

ولكن وطنيتنا يجب ان تكون نيرة بارة . فاذا كنا نضحي بانفسنا لاجل مصر فيجب ان نضحي بمصر لاجل العالم . فالعالم هو وطننا الاكبر . وليست ترتكز الوطنية على اننا نحب مصر اكثر من العالم بل على اننا نستطيع خدمتها اكثر مما نستطيع خدمة العالم لاننا نعرفها ونقف منها على امكنة الخلل والنقص فيمكننا ان نخدمها ، اما العالم فخدمتنا له محدودة بحدود جهلنا له

ويجب ان نطهر وطنيتنا من جميع افكار القرون الوسطى ، من فكرة التوسع والطمع وامتلاك السودان ونحو ذلك . فكل ما نريده ان نستقل في شئوننا الوطنية ونسير في العالم في رقيه نؤدي الفرض الاول الواجب على كل امة وهو زيادة المعارف الانسانية وترقية الحضارة . واذا شاء السودان ان يتحد معنا فله الخيار في ذلك ، اما الاجبار والاستعمار فجناية يجب ان نترفع عنها

لقد عشنا في القرن الماضي واوربا تعولنا بمخترعاتها ومكتشفاتها حتى لو انها قطعتها عنا لعدنا الى عهد المماليك . ومع ذلك لا يزال بيننا شيوخ مأفونون يعدون التفرنج رذيلة مع انه عين الفضيلة . حتى

لقد نسبوا اليه من المعاني ما ليس منهُ . فاذا رأوا امرأة متبرجة عدوا ذلك منها تفرنجاً . مع ان المرأة الافرنجية ابعد ما تكون عن التبرج فمثلا تزجيج الحواجب والشفاه وصبغ الوجنات وكشف الصدر كل ذلك نراه في المرأة المبرقعة المحبرة ولا نراه في المرأة الغربية السافرة

انا في حاجة الى تنشئة الوطنية المصرية ولكن بحيث لا يلابسها أي روح من العدوان أو التنطع أو الكراهية لاوربا . ويجب أن تكون غاية كل شاب مصري ان يكون باراً بالعالم فقد برت أوربا العالم بمخترعاتها ومكتشفاتها . وحقنا في الحياة والبقاء لا يكون الا بنسبة ما نستطيع أن نزود العالم من هذا البر السامي

وسبيلنا الى ذلك ان نتخلص من قيود الاستعمار البريطاني وندفع في ذلك الثمن الذي تتطلبه منه أخطاؤنا الماضية . ولكن اذا اتفقنا فيجب أن نقضي على جميع مراكز الدسائس والرجعية والشرقية في بلادنا . ولا بأس من ان ندفع ثمن ذلك ايضاً

١٤ — حضارتنا وحضارة اوربا

ان حضارتنا « العربية » هي في الحقيقة حضارة رومانية . وانا اذكر لك بعض الفاظ تنطوي فيها معاني الحضارة مثل قلم وقرطاس ودينار ودرهم وبلاط وقانون . فهذه الالفاظ التي تنطوي فيها معاني الكتابة والثقافة والتعامل المالي والحكومة هي الفاظ رومانية . وقد عشنا نحن المصريين الف سنة تقريباً من دخول الاسكندر لمصر الى

دخول العرب ونحن على اتصال بثقافة اوربا عن سبيل الرومان والاغريق

ونحن المصريين لم نتصل قط باسيا اتصالا تاماً. فان الاخشيديين انفسهم لم يعيشوا طويلا في مصر ولم يُدخلوا الى بلادنا الا القليل من عادات آسيا ولذلك ليس مقدار ما تسرب الينا من دمائهم كبيراً. ومما نحمد الاقدار عليه ان التتار لم يدخلوا مصر قط

فالدعوى باننا امة شرقية الدم او الثقافة او الحضارة هي دعوى زائفة لا أساس لها البتة: والعرب انفسهم لم يكونوا في اول خروجهم وتفشيهم امة شرقية وان كانوا بتوغلهم في آسيا الى حدود الصين وايضاً بعادة التسري وعادة الضرار اللتين اجازهما لهم الاسلام قد دخلهم دم اسيوي وخاصة صيني كثير. فان لفظة امة بمعنى الجارية هي لفظة صينية وقد دخلت اللغة العربية لكثرة الاماء التي كان يشتريها العرب من الصين

والامة المصرية كانت في الاصل اي قبل ظهور دول الفراعنة لا تختلف البتة عن الشعوب التي كانت تقطن انجلترا او فرنسا. فلما كان زمن الفراعنة دخل مصر كما دخل اوربا قليل من الدم الارمني فاستدارت الرؤوس قليلاً بعد ان كانت مستطيلة. ولم يكن العرب يختلفون من حيث العنصر من المصريين. ثم اتصلنا نحو الف سنة بالرومان والاغريق أي من ٣٢٠ق. م. الى ٦٤٠ ب. م. ثم دخل العرب ودخل في دمائنا بعدهم قليل من الدم الاسيوي. ثم جاء الاتراك فلم يختلطوا بالامة الا قليلا

وها نحن اولاء نرى انفسنا في تقاسيم الوجه نشبه الاوربيين اكثر مما نشبه الصينيين او اليابانيين وفي ثقافتنا نسير مع اوربا دون آسيا . وفي لغتنا اكثر من الف كلمة اغريقية ورومانية . وفي حضارتنا لانرى اي اختلاف بيننا وبين اوربا الا من حيث الدرجة فقط اما في النوع فكلتاهما واحدة . واديانا لا تختلف البتة من اديان اوربا حتى الاسلام نفسه يكاد يكون مذهباً من المسيحية . ولكن ليس في الاسلام شيء يشبه عقائد البرهمية في الهند او الكنفوشيوسية في الصين او الشنتوئية في اليابان

ومنذ القرن الماضي شرعنا نقتبس الحضارة الاوربية ومرنا فيها شوطاً بعيدا . فلنا الآن حكومة لها وزارة وبرلمان مثل حكومات اوربا . ولنا نظام تعليمي يشبه الانظمة الاوربية وان كان متأخرا عنها ، ونحن في معيشتنا لا نختلف من الاوربيين الا اختلاف الدرجة لا اختلاف النوع

فحضارتنا هي حضارة اوربا والقول بالسير فيها الى غايتها ليس سوى القول بالتطور والانتقال من الحال الدنيا التي نحن فيها الى حال عليا

١٥ — الحضارة الصناعية

وهذا التطور يقضي علينا بان نخرج من نهضتنا الحاضرة ، نهضة الزراعة والادب ، الى نهضة اخرى هي نهضة الصناعة والعلم . لان

هذه الزراعة التي نمارسها قد تعلمتها الامم المتوحشة من جهة وسلطت عليها الالات الكبرى عند الامم المتمدينة من جهة اخرى فصارت حرفة لاتجدي العامل بيديه كالفلاح المصري . فان الفلاح الاميركي يزرع بالآلات نحو خمسين فدانا من القمح او القطن بينما الفلاح المصري لا يستطيع ان يزرع بيديه سوى فدانين او ثلاثة . ولذلك فالاميركي يستطيع ان يبخس الاسعار ويجعل منتجاتنا منخفضة الاثمان. والزنجي الذي تعلم الزراعة يزرع مثل فلاحنا بيديه ولكنه لايطلب من الاجر مقدار مايطلب فلاحنا فهولذلك ايضاً يمكنه ان يبخس اسعارنا

فنحن في الحالتين قد قضى علينا بالهزيمة من حيث الزراعة امام هذه المزاحمة العالمية ذات الحدين : حد الالات الكبيرة في امريكا واوربا وحد الاجور القليلة في آسيا وافريقا

فيجب ان نخرج من هـذا الطور الزراعي ونعمد الى الصناعة فنطرقها من جميع ابوابها . واذا قدرنا ان نجعل زراعتنا بالالات فنعم مانفعل ، ولكن نظام الامتلاك في مصر يمنع ذلك الان . فلا بد لكي نسير مع اوربا ان نجعل بلادنا صناعية بانشاء المصانع من كل الانواع. ولكن انتشار الصناعة يحتاج الى شيئين :

اولهما : ايجاد رأى عام يحترم الصناعة ويساوي بين الموظف والخباز والحداد والنجار والمنجد

والثاني : ايجاد بيئة علمية غير البيئة الادبية المتسلطة الان . لان هذه البيئة الادبية التي تتسلط الان على عقول شبابنا تجري على

اصول السلف من العرب فتعنى بالالفاظ والعبارات المبهرجة . فادبها حتى عند معظم من يسمون انفسهم بغير حق مجددين هو ادب رث يؤذي الناس ويزيغ ابصارهم لانه يوهمهم ان التفكير هو اللعب بالالفاظ فقط واجترار افكار القدماء . ولو كان ادبنا يجري على النسق الرومي التحليلي او يسير في نزعة الحرية الفكرية مع الادب الفرنسي او في نزعة الاصلاح مع الادب الانجليزي لكان منه فائدة . اما وهو في حاله الحاضرة فلا فائدة منه البتة . وهذه النهضة الصناعية التي نحن في اشد الحاجة اليها لاتقوم الا في وسط علمي بحيث يلوك الناس النظريات العلمية ويفشونها بين العامة فتتغير الاقدار والقيم ويفكر الشباب في الاختراع والاكتشاف كما يفكرون الان في قراءة مقال مبهرج يتمصصون عبارته ويتلمظون بها لحسن جرسها وتآلف ايقاعاتها

١٦ — ثقافة مصرية

لست انتقص الادب . وانما انتقص اللعب واللهو بالالفاظ كما يفعل معظم ادبائنا يجيزون لعبهم ولهوهم على الناس كانه ادب . فنحن في حاجة الى ادب مصري يدرس شئوننا المصرية بلغتنا العامية المهذبة او يدرس شئون العالم بنفس مصرية . ونحن ايضاً في حاجة الى ادب علمي يستغل جميع النظريات العلمية الحديثة . اما درس العرب فهو في نظري نوع من الارخيولوجية يستوي ودرس الاثار المصرية او الاثار الفينيقية له قيمته العلمية والثقافية بالطبع ولكنه لايسمى ادباً مصرياً بذلك

ثم نحن في حاجة الى ثقافة مصرية . فقد الفت كتب عن الاسلام وتاريخه والخوارج والاندلس ولكن لم يؤلف للآن كتاب عن اخناتون او القاهره او المقوقس او عقائد الشيعة في مصر او تاريخ الرومان عندنا او المماليك او نحو ذلك مما يمس النفس المصرية ويؤثر او قد اثر فيها

اني عندما اعرض تاريخ الثقافة الحديثة في مصر لا اتردد في الحكم بان المعلمين قد ادوا لها من الخدمة اكثر مما اداه لها من يسمون انفسهم ادباء . فان افضل الكتب المصرية الحديثة هي من اقلام المعلمين وليست من بهارج الادباء المضحكة . واعتقادي ان المعلمين سيحملون عبء الثقافة في المستقبل مدة غير قليلة حتى ينسى ادباؤنا الاعيبهم وماحفظوه عن ظهر قلب من لغة الجاحظ والجرجاني واشعار النابغة وابن الرومى

ونحن في حاجة الى ثقافة حرة ابعد ما تكون عن الاديان ولا بأس من ان نعتمد على الترجمة الى حد كبير حتى يتمصر العلم وتتمصر الفاظه وعندئذ نسير فيه بالتأليف

١٧ — نحن والاجانب

ان الاجانب يحتقروننا بحق ونحن نكرههم بلا حق ·

فقد رأونا منذ دخول الانجليز ونحن نحاول ان يمتلكنا الاتراك دون الانجليز . وسمعونا نطالب بلسان مصطفى كامل والخديوي عباس

والشيخ على يوسف بالاستقلال ولكن لا لكي نكون اسيادا بل لكي نكون عبيد الاتراك . فاحتقرونا لذلك بحق

ثم نحن كرهناهم وكانت اكثر كراهيتنا لهم حسدا لانهم نازعونا البقاء فغلبونا واشتغلوا بالتجارة والصناعة والصيرفة ولم يتركوا لنا سوى الزراعة نعمل فيها كالعبيد . ولم يكن لنا حق في كراهيتهم لان هذه الابواب التي طرقوها واثروا منها كانت مفتوحة لنا ولم نطرقها

والاجانب ماداموا اجانب فهم شوكة في جسم الامة . فيجب لذلك تمصيرهم والتزاوج بيننا وبينهم وحضهم على ارسال اولادهم الى مدارسنا حتى يعرفوا لغتنا ويقرأوا صحفنا وكتبنا كما يجب ان نسمح لهم بالتوظف في الحكومة والانتخاب للبرلمان حتى تغدو عواطفهم مصرية لايعرفون لهم وطنا ثانيا غير مصر . وبقول اخر ، ينبغي ان ننظر للاجنبي كما تنظر اليه حكومة الولايات المتحدة . فهى بمجرد وصوله الى بلادها تحاول ان تؤمركه ، فان لم تقدر على ذلك تسلمت اولاده وصبغتهم في المدارس بالصبغة الاميركية فينشأون اميركيين مخلصين تمثلهم الامة في جسمها . وهذا ما يجب ان نفعل نحن مع الاجانب . يجب ان نمثلهم . ويجب ان نمنع وساوسهم فنفصل الدين عن الدولة ونلغي تعليمه في المدارس

وهم اذا اختلطوا بنا في الزواج وصارت لغتنا لغتهم فليس يبعد ان تنزع لذلك نزعتهم في الصناعة والعلم والتجارة والصيرفة

١٨ – القبعة رمز الحضارة

وقد يكون اصطناع القبعة اكبر ما يقرب بيننا و بين الاجانب و يجعلنا امة واحدة

والقبعة هي رمز الحضارة يلبسها كل رجل متحضر سواء اكان يابانيا ام صينيا ام انجليزيا ام اميركيا . ونحن اذا لبسنا القبعة فلسنا بذلك نلبس لباس اوربا فقط بل انما نصطنع لباسا اتفق المتحضرون على وضعه على رؤوسهم كما اتفقوا على ان يأكلوا بالسكين والشوكة اوكما اتفقوا على ان يستحموا كل يوم. فان للمتحضرين عادات يتعارفون بها و يصطلحون عليها واتخاذ القبعة من هذه العادات فلسنا نحب ان نخرج على العالم المتمدين بلباس خاص يجعلنا في مركز من الشذوذ يجلب الينا الانظار فيعمد السياحون الى تصويرنا كاننا امة غريبة عن الامم التي جاءونا منها

ومما يدل على ان حركتنا الوطنية بايدي اناس غير قادرين على الاضطلاع بها ان الحركة التي قامت في العام الماضي وكانت غايتها اصطناع القبعة قاومها زعماؤنا وقتلوها في مهدها فاثبتوا بذلك انهم لايزالون اسيويين في افكارهم لايرغبون في حضارة اوربا الا مكرهين

وقد أدرك مصطفى كمال الذي لم تنجب بعد نهضتنا رجلا مثله ولا نصفه ولا ربعه مقدار ما للقبعة من القيمة والاعلان بالانسلاخ من آسيا والانضمام لاوربا . ولم يمتنع عن استعمال السيف في سبيل ذلك

انا نلبس كل ما يلبسه الاوربي عدا القبعة . ولكن الانسان يعرف بوجهه والقبعة تتم صورة الوجه ولذلك سنبقى في نظر انفسنا وفي نظر الاوربيين شرقيين حتى نتخذ القبعة لرجالنا ونسائنا ونعلن انسلاخنا من الشرق

١٩ — فلندخل عصبة الامم

واجبنا لأنفسنا ان نرقي بلادنا بالسير في ما ينهجه المتمدنون من الحضارة ، نتخذ الصناعة بدل الزراعة والعلم بدل الادب أو نجعل الادب والزراعة علميين

ولكن علينا واجباً نحو العالم لا يفكر فيه أدباؤنا أو شيوخنا البتة . بل عندنا من الناس من يبلغ تعصبهم للقديم ان يتمنوا زوال الحضارة الاوربية ووقوع الشر للاوربيين . وهذا عين الجحود بالانسان والكفر بالتطور . فان الانسان الاوربي أرقى انسان ظهر في العالم للآن والحضارة الاوربية على ما فيها من عيوب تعد بالمئات هي آخر درجات التطور الاجتماعي . ومن البلاهة البالغة ان يظن أحد الشيوخ ان حضارة بغداد أو القاهرة أو الاندلس كانت تبلغ في السمو عشر أو جزءا من مابة مما تبلغه الحضارة الاوربية الآن

وواجبنا نحو العالم انما يكون بترقيته .لأن العالم هو الامة الكبيرة وليست مصر سوى أحد اعضائه ، واذا كنا نعلم صبياننا بانه يجب ان نضحي بأنفسنا لأجل مصر فيجب ان نضحي بمصر لأجل العالم

ولن تكون خدمتنا للعالم شيئاً سوى مساعدته على النهوض والسير في الحضارة الغربية . ويجب ان يكف كتابنا عن التنطع والزهو في انتقاد هذه الحضارة وان يعمدوا الى الاخلاص في خدمة العالم . ويمكن الصحف ان تربي الجمهور على الاهتمام بالعالم اذا هي خصت صفحاتها المهمة باخبار العالم تستوي في ذلك أخبار مصر مع أخبار الامم الاخرى كما تفعل الصحف الانجليزية . أما تنحية أخبار العالم في الصفحات الاخيرة بل في زوايا الصفحات الاخيرة فليس مما يبعث في النفس روحا عالمية تعدو حدود الوطن ودائرة الوطنية

ثم يجب ان ننضم الى عصبة الأمم ونزيدها قوة بمقدار ما فينا من قوة مهما كانت صغيرة فانها تكبر باضافتها الى قوى الخير والبر في هذه العصبة التي هي بذرة حكومة المستقبل للعالم كله

٢٠ — الخاتمة

يرى القارىء من هذا الفصل الذي ختمت بهِ هذا الكتاب انه تكبير للمقدمة إذ هو مثلها دعوة الى التنصل من آسيا والانضمام لاوربا والايمان بحضارتها وثقافتها . وكل من يقرأ هذا الكتاب ويرى حماستي لهذه الحضارة لا يعجب اذا هو تأمل أحوال الامم الناهضة . فليست أمة تنهض في العالم الآن الا وتنسلخ من قديمها ، سواء أكان هذا القديم اسيويا أم غير أسيوي . فهذه اليابان قد تفرنجت ودخلت في الطور الصناعي وصار لها علماء يكتشفون

ويخترعون . وهذه الصين قد اصطنعت اللغة العامية وهذبتها وتركت لغة الشيوخ القديمة والادب القديم وأخذت تترجم كل ما يجد من المطبوعات الاوربية . ونحن في مصر ليس لنا من المؤسسات الحسنة كالبرلمان أو المحاكم أو المدارس الا ما أخذناه عن اوربا ، وكل ما هو باق لنا من القديم سيء لا يزال يؤذينا مثل وزارة الاوقاف والمحاكم الشرعية وكلية الازهر والمجالس الملية والبطركيات العديدة

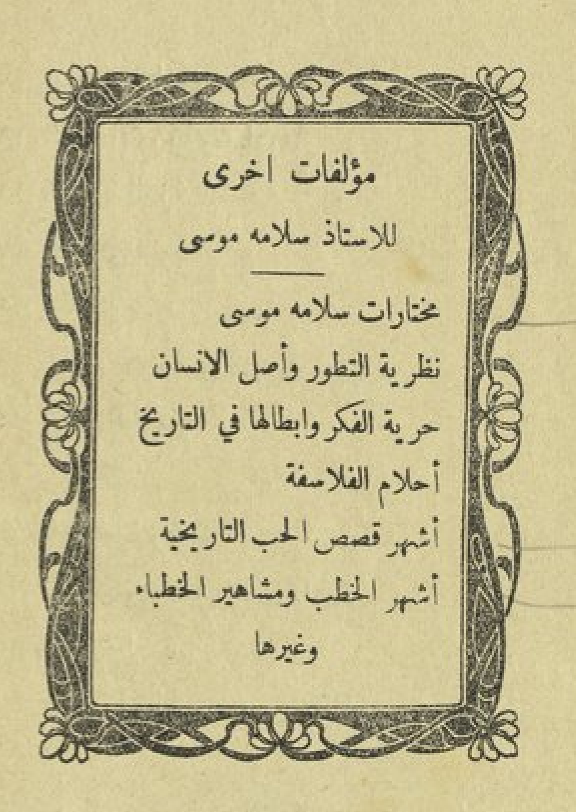
ثم ان الزعامة السياسية في أيدي أناس ليست فيهم الكفاية للقيام باعبائها . ودليل ذلك فشلهم العظيم في عدم الاتفاق مع الانجليز وفي عدم ادراكهم قيمة اتخاذ القبعة . ولكني لا أزال مع ذلك متفائلا أرى ان الجمهور يسبق الزعماء ويجرهم على السير بخطوات واسعة نحو الاستقلال بجميع أنواعه . فشبابنا قد سئم سخافة أدبائنا وصار يطلب من الادب شيئاً جديداً مغذياً غير الكلام عن العرب بلغة العرب . وشبابنا أيضاً يوشك ان يلبس القبعة لأنه يجد هواناً في الشذوذ من العالم المتمدين . وهو أيضاً قد أبصر اننا اذا أخلصنا النية مع الانجليز فقد نتفق معهم اذا ضمنا لهم مصالحهم وهم في الوقت نفسه اذا أخلصوا النية لنا فاننا نقضي على مراكز الرجعية في مصر وننتهي منها

فلنول وجوهنا شطر اوربا ؟

(انتهى)

فهرس





مؤلفات اخرى

للاستاذ سلامه موسى

مختارات سلامه موسى

نظرية التطور وأصل الانسان

حرية الفكر وابطالها في التاريخ

أحلام الفلاسفة

أشهر قصص الحب التاريخية

أشهر الخطب ومشاهير الخطباء

وغيرها

نظرية التطور

وأصل الانسان

تاليف الكاتب الكبير الاستاذ

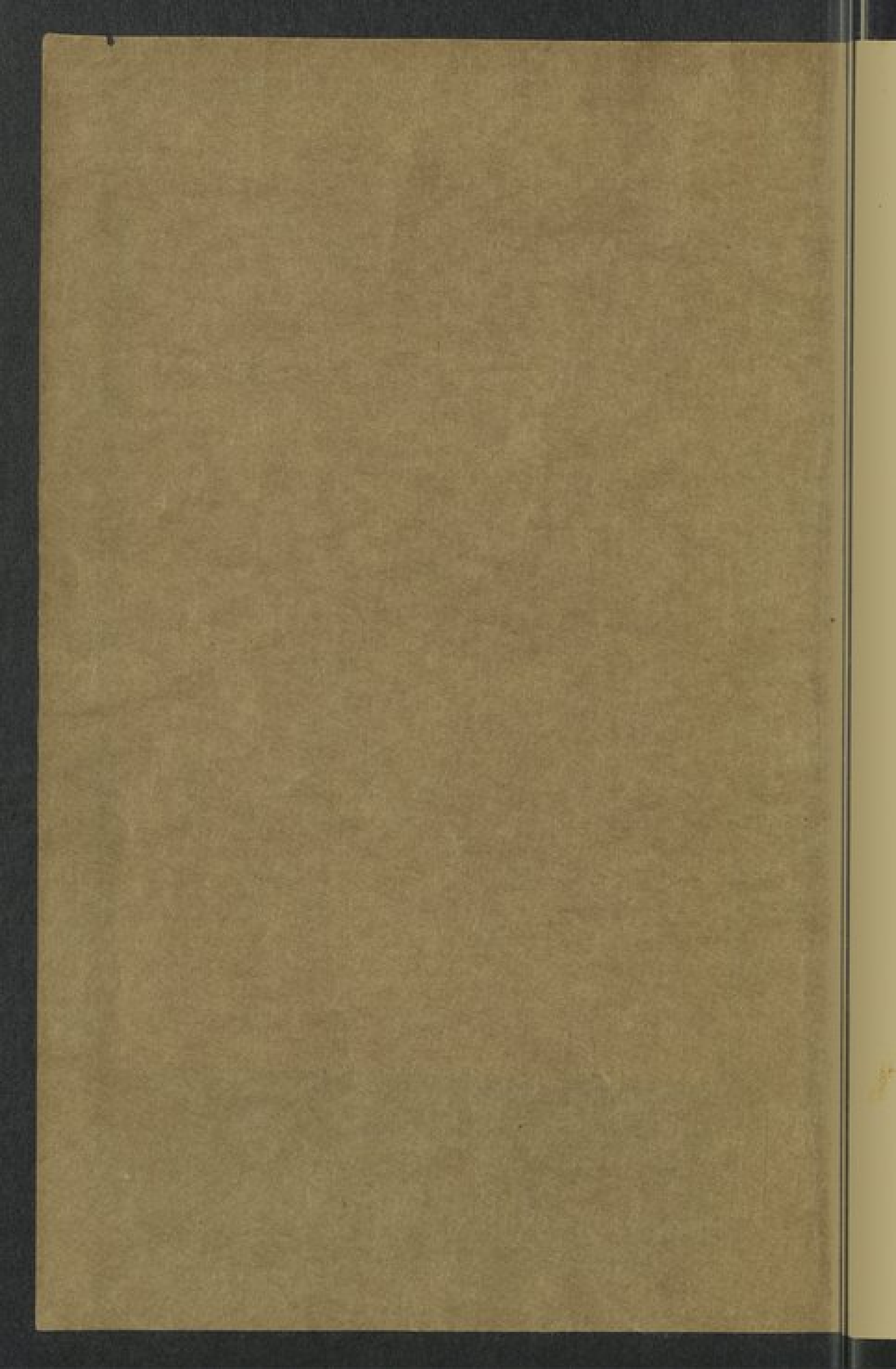
سلامه موسى

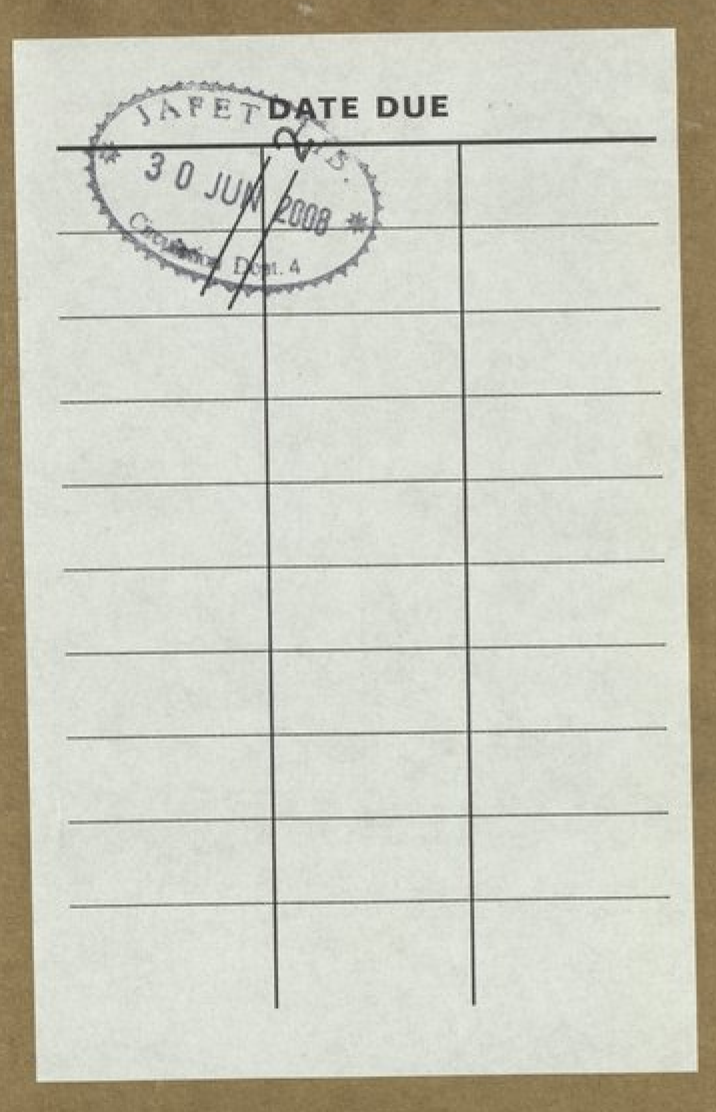
ليس بين الالفاظ الآن ما هو اكثر وروداً على اقلام الكتاب والمؤلفين من لفظ « التطور » ولا يمكن قارئاً يحترم نفسه أن يهمل فهم مدلول هذه اللفظة وادراك النظرية التي تقول بها

والتطور ليس نظرية فحسب بل هو نزعة نزعت اليها العلوم والاداب والفلسفة . بل لا يمكن أن نجاري الثقافة الحاضرة ونساير العلماء في أرائهم ما لم نفهم هذه النظرية ونقتنع بها

وليس في العالم العربي منذ أن مات الدكتور شبلي شميل من يدعو الى هذه النظرية بنشاط وهمة مثل الاستاذ سلامه موسى ، فهو يكتب عنها بأسلوب مغر ويأتي بأمثلة مألوفة تعين القارىء على فهمها . وقد وضع كتاب « نظرية التطور وأصل الانسان » فى نحو ثلاثين فصلا يتضمن النصف الاول من الكتاب فصولا عن تطور الاحياء الى ظهور الانسان . والنصف الثاني يحتوي على ١٥ فصلا خاصة بتطور الانسان الجسمي والعقلي والاجتماعي . والكتاب موضح بنحو خمسين صورة فريدة تساعد القارىء على فهم الموضوع

وثمنه ١٠ قروش مصرية والبريد ٣ قروش لمصر و ٦ للخارج




DATE DUE





AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

